

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE


Princeton University Library
32101 046834154



﴿ رفيق بك العظم ﴾

« رحمه الله تعالى »



Azm, Rafiq

ترجمة

مؤلف هذه الآثار

رفيق بك العظم

رحمه الله تعالى

رفيق العظم

وفاته وترجمته

﴿ بقلم صديقه الوفي السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ، ونشرت فيها ﴾

في يوم عرفة (٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٣ الموافق ٣٠ حزيران (يونيه) سنة ١٩٢٥ م) فجعت البلاد المصرية والسورية ، بل الامة العربيـة ، برجل كان من أعلى رجالها قدراً ، وأنبههم فيها ذكراً ، وأعظمهم لديها ذخراً ، رجل الحسب الشامخ ، والادب العالي ، والفكر المنير ، والوطنيـة الصادقة ، العالم المؤرخ ، الكاتب الاجتماعي ، العامل السياسي ، صديقي الوفي (رفيق بك العظم) ابن محمود بك خليل العظم من أسرة آل العظم السورية العريقة في المجد . ففقدت الامة بفقده زعيما كبيراً ، ونابغاً حكيما ، وكاتباً قديراً ، في زمن هي أحوج فيـه الى الرجال المحنكين ، والزعماء المخلصين منها الى العافية للابدان ، والطمأنينة للحيران ، فرحمه الله تعالى

نشأته الاولى

ولد الفقيـد في دمشق سنة ١٢٨٢ هـ ونشأ كما كان ينشأ أمثاله من أبناء الوجهاء المترفين في ذلك العهد . فلم يعن والده بتعليمه في مدارس العلم العربية ، لأنها خاصة برجال الدين . ولا في مدارس الحكومة العثمانية الاعدادية والعالية ، لعدم شعوره بالحاجة الى تخريجه فيها ، أو عدم رغبته بجعله من عمالها وموظفيها ، الذين لاتسكنهم دار ، ولا يقر لهم بين أهلهم قرار . أو لمحض الاهمال — على أنه هو لم يتعلم تعلماً منظما . وانما أخذ بعض المبادي عن بعض شيوخ عصره ، وكان يعاشر العلماء والادباء والمتصوفة ، ويطالع الكتب ودواوين الشعر لأجل التسلية . فكان بذلك شاعراً ومؤلفاً في الادب والتصوف . وجاء فقيدنا وارثاً

له في ذكائه ونشأته، ولكنه فاقه في الجد والعلم النافع والعمل .

أخذ التعليم الابتدائي في كتاب أهلي ثم أخذ شيئاً من مبادىء اللغة العربية عن الاستاذ الفاضل الشيخ توفيق افندي الايوبي الشهير . وكان كل ما حصله بعد ذلك بمطالعاته الشخصية فهل كان يدور في خلد أحد أن مؤلف كتاب أشهر مشاهير الاسلام وغيره من الكتب والرسائل والمقالات الكثيرة في كبرى الجرائد والمجلات المصرية . لم يقرأ كتابا حافلا من كتب النحو والصرف، ولا من كتب المعاني والبيان. ولم يتلق علماً ولا فنا قديما ولا حديثاً عن أستاذ ؟ فما هذا الذكاء النادر الذي وضعه في مصاف العلماء المصنفين، والكتاب المجيدين؟ وما تلك الهمة العالية التي رفعته الى مقام الزعماء السياسيين، ورجال الانقلاب المدبرين ؟!

كان رفيق ذكي الفؤاد، ميالا بفطرته الى العلم والجد ومعالي الامور، عزوفا عن سفاسفها وصغائرها . نبت به هذه الفطرة الزكية عن صرف أوقات صباه في اللهو واللعب مع أمثاله من أبناء الموسرين، وجذبته الى معاشرة أهل العلم والادب والافكار في الامور العامة كالاستاذ المرحوم الشيخ طاهر الجزائري والاستاذ الشيخ سليم البخاري والاستاذ الشيخ توفيق الايوبي من كهول مشيخة الشام والاستاذ الشيخ محمد علي مسلم ومحمد افندي كرد علي من الاتراب . وحبب اليه البحث ومطالعة كتب الادب والتاريخ . وكانت نزعته العلمية وكذا الاجتماعية إسلامية، حتى إن علماء الاقطار البعيدة الذين وصلت اليهم كتبه ورسائله بعد ذلك كانوا يظنون أنه من علماء الدين

اشتغاله بالسياسة وهجرته الى مصر

ثم إنه كان يعاشر أحرار رجال الحكومة العثمانية من الترك وغيرهم أيضاً . وتعلم اللغة التركية باجتهاده حتى صار يقرأ كتبها وجرائدها . وإذ كان ميالا بطبعه الى السياسة والامور العامة استماله بعضهم الى الاشتغال معهم في جمعياتهم السرية . فدخل أولا في جمعية الدستور التي أسسها في الشام أسعد بك مدير

البوليس فيها . ثم في جمعية الاتحاد والترقي

ولما اشتد السلطان عبد الحميد في مطاردة السياسيين العثمانيين طلاب الدستور وطفق ينكل بمن يتعـذر استمالته منهم بالوظائف أو الرتب والنياشـين ، أزمع الفقيد الهجرة الى مصر ، ويقول شقيقه الكبير عثمان بك: إن ذلك كان سنة ١٨٩٤ م

وبعد استقراره في مصر واتخاذها دار هجرة ومقامه طفق ينشر المقالات السياسية والاجتماعية فى أشهر جرائدها اليومية : الاهرام فالمقطم فالمؤيد فاللواء وفى أشـهر مجلاتها كالمقتطف والهلال والمنار والموسوعات . وكان يختلف الى مجالس الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ولا سيما بعد تلاقينا وتوادنا . وكان له بالشيخ علي يوسف صاحب المؤيد صلة ود وثيقة . ثم كان من أصدقاء الزعيمين السـياسيين مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك منـذ نشأتهما السياسـية الاولى وظهورها فى ميدان السياسة الى آخر عمرها ، حتى إنه رثى محمد بك فريد حين علم بموته — طريد وطنيته — فى أوربة بأبيات من الشعر ، وجدها شقيقه عثمان بك في أوراقه ، وقد رثى قبله الاستاذ الشيخ طاهراً ، ولعل هذين الرثائين آخر ما نظم وليسا كل ما نظم . فقد كان رحمه الله ينظم الشعر بما يجده من الداعية فى نفسه لارضاء نفسه . ولـكنه لم يكن يحب أن ينشر شيئاً من شعره فى الجرائد ، ولا أن يظهره للناس ، إما لأنه لم يكن يراه بالمنزلة اللائقة بشهرته ، أو لأنه لم يكن يحب أن يسمى شاعراً . وإذ كان الشعر عنده أمراً ثانويا ذكرناه فى ترجمته استطراداً

تلاقينا وتعاوننا على خدمة الامة

فى منتصف سنة ١٣١٥ (الموافق لخريف سنة ١٨٩٧ م) هاجر كاتب هذه الترجمة الى مصر . وفى الربع الاخـير منها أنشأ (المنار) فـكان سبباً للتعارف والتآلف بينـه وبين الفقيد . فالتعاون على الاصلاح السياسي والاجتماعي . فالاشتراك فى الاحزاب والجمعيات السرية والجهرية

وكانت أول جمعية سياسية أسسناها بمصر (جمعية الشورى العثمانية) وقد

اشترك في تأليفها معنا رجال من سائر الشعوب العثمانية الكبرى ، وفى مقدمتهم الترك والجركس والارمن ، وكان من أعضائها المؤسسين الضابط صائب بك الذي كان حاجباً لصاحب الدولة احمد مختار باشا الغازي، ومندوبا لجمعية الاتحاد والترقي بمصر . ثم ترك خدمة المندوب العثماني السامي إيثاراً للسياسة التي تغضب السلطان عليه . ومنهم الدكتور عبد الله جودت بك المشهور أحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي أول مرة . وكان هو (السكرتير التركي) لها . وكان القميد أمين صندوقها ، وابن خاله حقي بك (سكرتيرها العربي) وكاتب هذه السطور رئيس مجلس إدارتها

كان تأسيس هذه الجمعية موافقاً لرأي صاحب الدولة أحمد مختار باشا الغازي المندوب العثماني السامي بمصر ، وأنا الذي استشرته فى ذلك وطلبت منه أن يمنحها رعايته ويأذن لنجله محمود باشا بأن يكون الرئيس العام أو رئيس شرف لها فيمدها بمساعدته فقال : إن الاصلاح لا يأتي من الاعلى ومن رجال الدولة انما يأتي من وسط الامة ومن الطبقات الدنيا فيها . وأخبرني أن السلطان علم بوجود الجمعية ، وهو أنه يرسل البرقيات اليه تترى فى السؤال عنها وعن مؤسسيها ويسميها جمعية إفسادية . وأنه تجاهل فى جوابه أولا ثم كتب اليه بأن لا إفساد ولا ضرر منها فانها مؤلفة من بعض أهل العلم وأبناء الاسر الوجيهة المخلصة للدولة

ثم علمنا من شأن اهتمام السلطان بها ما هو فوق ذلك . فقد روى لنا حقي بك عن خاله المرحوم صادق باشا المؤيد عن السلطان نفسه : إن نبأ هذه الجمعية أقض مضجعه فبقي ثلاث ليال لا تذوق عيناه النوم الا غراراً . ولم يقر له قرار حتى عرف مؤسسيها من بعض جواسيسه بمصر (وهو رجل إسمه كامل بك) دخل الجمعية بعد تأسيسها وأظهر من الاخلاص لها والعناية بخدمتها ما كان محل إعجاب جميع الأعضاء

ولا غرو فقد كان عمل الجمعية عظيما . تأسس لها فروع فى الاقطار المختلفة وكانت تطبع المنشورات بالعربية وبالتركية وترسلها الى فروعها في البلاد الاجنبية

فيوزعونها في الولايات التي يقيمون فيها وفيما جاورها . بل كان يرسل بعض هذه المنشورات في البواخر الروسية مع بعض المسافرين والمستخدمين فيها الى ثغور البحر الاسود فيأخذها هنالك منهم من يتولون إرسالها الى جميع بلاد الاناضول

ثم أصدرت الجمعية (في فبراير سنة ٩٠٧) جريدة باسمها (الشورى العثمانية) استغنينا بها عن المنشورات . وكان الفقيد يحرر القسم العربي منها . وحقي بك يحرر القسم التركي . إما انشاء واما ترجمة لما يكتبه الفقيد أوغيره منا بالعربية وقلما كنا نساعدهما على ذلك . وكان ينشر فيها بعض المقالات باللغة الفرنسية أيضاً

وبلغ من عناية جمعية الاتحاد والترقي بالجمعية فوق ما كان من التعاون والمراسلة بينها من أوربة ومن المركز العام في سلانيك أن أحمد رضا بك الشهير جاء من باريس الى مصر لأجل السعي لتوحيد الجمعيتين . وقد قصد الفقيد أولا وكلمه في ذلك فجاء به إلي ، فلما كلمني قلت له : ان جمعيتكم تركية وجمعيتنا عثمانية عامة فنحن لانتفق معكم الا فى مقاومة الاستبداد والظلم والسعي لجعل الحكم بالشورى النيابية . قال : ونحن جمعيتنا عثمانية لايميز قانونها التركي على غيره . قلت : هي عثمانية بالقانون تركية بالفعل . فليس في زعمائها أحد من غير الترك . فقانونها كقوانين السلطان عبد الحميد . ولو كان السلطان عبدالحميد ينفذ قوانين الدولة على علاتها لما أبحث لنفسي ولا لغيري أن يسعى لتغيير شكل الحكومة أو يقاوم نفوذه فيها . . . . ثم اتفقنا على أن تعمل الجمعيتان بالتعاون مع بقاء كل جمعية على حالها

ثم إن جمعية الاتحاد والترقي عادت بعد إعلان الدستور فكتبت الى جمعيتنا من المركز العام تدعوها الى الحلول فيها والاتحاد بها فاشترطنا في ذلك شروطا لم تقبلها ، ولكن الفقيد وحقي بك دخلا في جمعيتهم عند زيارتهما للآستانة بعد الدستور ، وتفرق سائر الاعضاء الذين لم يجمعهم في مصر إلا الاضطهاد . فلم يبق لجمعية الشورى عمل

أطلت بعض الاطالة في ذكر هذه الجمعية لان عمل الفقيد فيها كان عظيما .

وقد أنفق من ماله في سبيلها مالم ينفقه غيره ولولا اغتراره بجمعية الاتحاد والترقي لرضي بما ارتأيته من إبقاء فروع الجمعية وتكثيرها في البلاد العربية لتكون قوة للعرب أمام تعصب الاتحاديين للترك . ولكنه قال لي بعد عودته من الاستانة : انني عدت الى جمعيتي الاصلية . وأن بقاء جمعيتنا تفريق غير جائز . على أنه عاد من الآستانة غير راض عن سير الاتحاديين رضاء تاما . ثم صار يشاهد آنا بعدآن من تعصبهم على العرب وهضمهم لحقوقهم ماحاول أن يتلافاه بطرق لاقناع فألف في ذلك رسالة طويلة يئس من فائدتها قبل أن يتمها فلم ينشرها وسيأتي الكلام عليها عند ذكر مؤلفاته وآثاره

وكان آخر الجمعيات السرية التي اشتركنا في تأسيسها جمعية عربية أسست للتأليف بين أمراء جزيرة العرب وللتعاون والاتفاق بين الجمعيات السياسية التي أنشئت في الولايات العربية وفي الآستانة لمقاومة تعصب الاتحاديين وضغطهم على العرب ولحفظ حقوق العرب في الدولة والعمل لمستقبلهم

كان تاسيس هذه الجمعية ضروريا لان آفة العرب المفسدة لجميع مواهبهم الفطرية هي التفرق والاختلاف . وكان الملجيء اليها انكسار الدولة العثمانية في حرب البلقان . والخوف على البلاد العربية أن تتخطفها الدول المستعمرة . فرأى المؤسسون أن قوة العرب في جزيرتهم . وأنها لايمكن الانتفاع بها ، إلا بتأسيس اتحاد حلفي يجمع بين أمرائها . وكان قد سبق لهذا تمهيد من بعض المؤسسين . ثم وضع له النظام الذي يرجى تنفيذه . وأما الجمعيات العربية فكانت مختلفة المقاصد . وليس بينها من التعارف والاستعداد للاتحاد عند الحاجة مايؤمن معه سوء المغبة ، ويرجى به حسن العاقبة . فوضعت الجمعية نظاما لذلك . ولم يقنع المترجم بضرورة هذه الجمعية الا بعد أن رأى من انكسار الدولة في حرب البلقان ما أقنعه بأنه ليس لها من القوة الذاتية مايضمن بقاءها . وأنها عرضة للزوال فجأة إذا صدمتها صدمة أخرى .

الاحزاب الجهرية

وأما الاحزاب الجهرية التي اشتركنا فيها فهي حزب اللامركزية . وكان الفقيد رئيساً له وحزب الاتحاد السوري وأمرهما معروف للجمهور فلا حاجة الى شرح خدمة المترجم لوطنه فيهما . وانما أقول إن حزب اللامركزية كان يراد به خدمة الدولة والبلاد العربية معا . وكان سبب تأسيسه ماذكر آنفامن سبب تأليف الجمعية العربية . وهو ماأنذرت الحرب البلقانية العثمانيـة من توقع زوال الدولة . وقد كنا نعتقد أن الدولة لايمكن أن تعيش طويلا اذا أصرت على شكل حكومتها المركزي وتحكيم الترك في جميع شعوب الدولة . وكان المترجم رحمه الله تعالى حريصاً على بقاء الدولة . وكان على هدي وبصيرة في ذلك وكنا متفقين معا على هذا الرأي . وعلى أن العرب يحتاجون الى زمن طويل لترقية أنفسهم وجمع كلمتهم واستغنائهم عن الدولة إن زالت أو بقيت . وكنا نرى أن الخروج على الدولة ضار وخطره على العرب أشد من خطره على الترك . ولا أقول إن كل أعضاء الحزب كانوا على رأينا وانما كانوا متفقين على أن شكل الحكم اللامركزي خير لبلادنا ولغيرها . وكان لبعضهم أهواء أخرى وشذوذ في الفكر وفي العمل ولكن الحزب نفسه لم ينحرف عن قانونه المستقيم

وأما حزب الاتحاد السوري فامره أظهر ، لأن العهد به أقرب . وكان الفقيد من المؤسسين له ولكنه تركه منذ سنين واعتزل السياسة وغيرها من الاعمال . لأن صحته ساءت . واشتد عليه مرض الربو . وضاعفه تصلب الشرايين فضعف القلب . حتى أودى ذلك كله بحياته فجأة

هذا وإننا لم نختلف في كل هذه المدة في مقصد من المقاصد ولا في مهمات الوسائل أيضاً . إلا ماكان في أيام حرب المدنية الكبرى . فقد اختلفنا في مسائل مهمة لايحسن في هذه الترجمة ذكرها . ونحمد الله تعالى ان كان اختلافنا محصوراً في مناقشات جرت بيننا . لم تتجاوزنا الى غيرنا .

آثاره القلمية

(١) ان أجل تآليفه وأعظم آثاره العلمية هو تاريخ (أشهر مشاهير الاسلام) الذي طار به صيته في الاقطار . وانما أتم منه أربعة أجزاء طبعت مرارا ونفدت نسخها

(٢) وكتاب (السوانح الفكرية ، في المباحث العلمية) وهو كتاب اجتماعي أدبي جعله أربعة أقسام: (القسم الاول المدنية ودواعيها ، وأسباب تقدمها أو تلاشيها) وفيه ٣ أبحاث (القسم الثاني التربية والاخلاق) وفيه ٤ أبحاث (القسم الثالث الادبيات) وفيها ٤ أبحاث (القسم الرابع مباحث علمية مختلفة وفيه ٥ أبحاث خامسها (التفرنج) وقد أطال في ذمه ، ووصف ضرره وشره.

وهذا الكتاب مبيض بخطه في زهاء مائة صفحة من القطع الوسط وانما صده عن طبعه — كما نظن — أنه أثنى في فاتحته على السلطان عبد الحميد فاطراه إطراء لم يلبث أن ظهر له انه مخطيء فيه ، بعد أن انخدع كغيره بما كانت تنشره جميع الجرائد العربية والتركية من مدائحه المنثورة والمنظومة

ويحسن بي أن أذكر عبارته في ذلك لما فيها من الدلالة اللفظية والمعنوية ، على حال فقيدنا العزيز الفكرية والادبية . قال :

« وانني لما رأيت أبناء وطني قد تفتحت منهم الاذهان وتنبه بعد الرقدة الفكر ، وسرى سر الحمية فى أمثالي من شبان هذا العصر ، فأخذوا يتتبعون أشتات العلوم والمعارف ، ويتفيؤن تحت ظلها الوارف ، بوجود من لا تكل عن الثناء عليه ألسنة رعيته ، وقد اتحدت القلوب تحت راية عدله وشوكته ، السلطان ابن السلطان ، السلطان الغازي عبد الحميد ، المحفوف من الله بالعز والتأييد ، فقد أحببت إتحافهم بكتاب يروق في عين كل لبيب ، ويحتاج اليه كل أديب ، أريب ، وشحت بفرائد الفوائد طروسه . وأبرزت في دست الكمال عروسه ، ليكون بهجة للناظرين ولذة للسامعين »

وانني لم أر له رحمه الله أسجاعا كهذه في غير هذا الكتاب الذي كان من

أول ماكتب، وأول ماأنا على ماأعلم . بيد أنه لم يلتزم السجع الا في خطبته فقط وهو لا يخلو من لحن فيما هو من ضروريات علم النحو . وهاك أسماء بقية آثاره القلمية التامة :

(٣) كتاب الدروس الحكمية ، للناشئة الاسلامية) وكفاه تقريظاً له أن الاستاذ الامام قرر تدريسه فى مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية

(٤) رسالة تنبيه الافهام . الى مطالب الحياة الاجتماعية فى الاسلام

(٥) « كيفية انتشار الاديان

(٦) « الجامعة الاسلامية وأوربة

وله خطب علمية ألقاها فى بعض المحافل العلمية والمدارس العالية نشر بعضها فى المنار وبعضها فى مجلة دار العلوم ، وهذه يسهل جمعها وطبعها كمقالاته فى المجلات وأما مقالاته فى الجرائد فهي كثيرة وجمعها متعذر أو متعسر

واما الكتب التي شرع فيها ولم يتمها فهي اثنان (أحدهما) كتاب فى (تاريخ السياسة الاسلامية) رسم له ثلاثة أقسام عصر الترقي الاسلامي وعصر الوقوف وعصر الانحطاط ، وبدأ القسم الاول بخلاصة السيرة النبوية ، والخلافة والوزارة ، والقضاء والولاية ، وأمارة الجيش ، وكتابة الجيش والديوان والعطاء والكتابة العامة والسفارة الخ ، وكتب منه بعض الأبواب ثم وقف قلمه دون إتمامه وإتمام أشهر مشاهير الاسلام وغيرهما ، ولو أتمه على المنهج الذي وضعه له لكان أجل من تاريخ أشهر مشاهير الاسلام ، بل من أهم الكتب التي يحتاج اليها المسلمون على الاطلاق

(ثانيهما) الرسالة التي سبقت الاشارة اليها في الخلاف بين الترك والعرب وقد كتب منها ٦٧ صفحة كبيرة انتهى فيها الى البحث فيما سماه (أرجوفة الخلافة العربية) فبدأ به ولم يتمه وهذه الرسالة حجة بينة على شدة إخلاصه للدولة العثمانية وكراهته الشديدة للرابطة الجنسية وتنفيره عنها ، وكان رجال جمعيته الاتحادية يتهمونه مع ذلك بعداوتها ويتمنون لو تصل اليه أيديهم ليقتلوه

شر قتلة ، وهو لشدة إخلاصه فى خدمته للدولة بحزب اللامركزية العثمانية الذي كان رئيساً له صدق الاتحاديين فيما ادعوه من الرغبة في الاتفاق مع العرب وإعطائهم حقوقهم عقب مؤتمر باريس العربي الذى عقد هنالك باسم حزب اللامركزية ، وانخدع كما انخدع رئيس ذلك المؤتمر أخونا الشهيد السعيد السيد عبد الحميد الزهراوي قدس الله روحه الذي كان من اغتراره بخلابتهم أن دعاني ودعا الفقيد الى الذهاب الى الاستانة للاشتراك فى توثيق روابط الاخاء والوحدة بين العرب والترك ، فاما الفقيد فقد انخدع وزاد في اطمئنانه كتابة بعض أصدقائه من رجال الترك الاتحاديين له كجلال الدين بك عارف وأخيه نجم الدين بك ، فارسل برقية الى الى الاستانة وعد فيها باجابة الطلب والعزم على السفر وذكر لي ذلك بعد إرسالها فوفقت لاقناعه بالبقاء هنا وقلت له أنهم يريدون أن يجمعوا الزعماء العاملين هنالك لينتقموا منهم كلهم ، ولئن أجبناهم ليحيطن بنا فلا ينجو منا أحد ،وإني لخائف على أخينا السيد عبد الحميد ولكنني أرجح أنهم لايصيبونه باذى مادمنا في مصر لانهم يريدونا أن يصيدونا به .

ثم كافأني الفقيد أحسن الله اليه على هذا إخلاصاً فى المودة والنصح لا بقصد المكافأة لما علم أنني سأعود من الهند الى مصر عن طريق العراق (سنة ١٣٣٠هـ ١٩١٢) فارسل الي برقية بان أعود في البحر خوفا علي من فتك احمد جمال باشا السفاك إذ كان وقتئذ والي بغداد ، والقائد العام لجيش العراق ، ولكن الله سلم. على أن الفقيد لم ييأس من الدولة كل اليأس الا في أثناء الحرب العامة وما كان من جمال باشا فيها

فهذه جملة سيرة فقيدنا السياسية . ولولا بعض آثاره العلمية لما كان لهشيء يؤثر عنه من وراء السياسة الا أخلاقه العالية وآدابه السامية

أخلاقه وآدابه

قد أوتي الفقيد حظا عظيما من الآداب الاجتماعية والفضائل النفسية والفواضل العملية : كان نزيه اللسان طاهر القلب ، منزها عن الحسد والحقد ، وفيا لأصدقائه ، براً باهله ، وصولا لرحمه ، متواضعاً في عزة نفس ، ذا مروءة صادقة ونفس سخية ويد مبسوطة ، حسن الضيافة ، كثير الصدقات والمساعدات للجمعيات الخيرية ، قليل التبجح والدعوى ، ماعاشره أحد من قومه ولا من غيرهم من الشعوب الا وأحبه واحترمه ، ومن آدابه التي يجب أن تذكر بالنص في هذه الترجمة الوجيزة أنه تزوج ولم يرزق ولداً ولا كان مغتبطا ولم أسمع منه ولا عنه منذ عقدت له عقد زواجه الى أن توفاه الله تعالى كلمة تؤذن بحسرته على الحرمان من الولد أو الميل الى التزوج بامرأة أخرى مع زوجه أو بعد تطليقها ، فهذا من أعجب الوفاء والصبر والقناعة آداب يقل نظيرها في هذا العصر وفي كل عصر

وكان معتدلا في أمور معيشته يقتصر على اللائق به من اللباس ، وجيد الطعام ، من غير اهتمام بالتطرز ، ولا جنوح الى التورن ، ولا افناق في التنعم ، ولكنه شديد الولوع بدخان التبغ والقهوة على شدة تأثيرهما في مرضه الصدري حتى ضعف جسمه وصار يتعب من الكتابة والمطالعة فاعتزل الناس ولزم داره حتى وافاه أجله

وجملة القول أننا قد فقدنا بفقد هذا الصديق الوفي المهذب وأن الأمة العربية قد فقدت بفقد الابن البار العامل رجلا لاعزاء عنه الا أنه قد انتهى الى حال من الضعف والامراض لاهناء له في الحياة معه ولا رجاء في الانتفاع بشيء من مواهبه وتجاربه . فرحمه الله وعفا عنا وعنه وأدخلنا وإياه برحمته في عباده الصالحين

كتاب

السوانح الأفكرية

في

المباحث العلمية



تأليف

الفقير الى احسان خالقه الجم

رفيق نجل المرحوم محمود بك خليل الشهير بابن العظم

غفر الله لهم سيئاتهم

آمين

(الطبعة الاولى)

سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م

مطبعة المنار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق بشراً من ماء ، وجعله خليفة في الارض وعلمه الاسماء ، ومنحه من العقل والادراك ما يتوصل به الى التحلي بصفات الكمال ، والارتداء بأحسن الخصال وأكرم الخلال ، إلا من أخلد الى شهواته النفسية ، وانحط من ذرى الكمال الى حضيض البهيمية ، فجعله ذلك أبداً في ذم ، وأخرجه من زمرة الذين أوتوا نصيباً من العلم . وصلى الله على سيدنا محمد ينبوع الفضل والكمالات ، ومؤسس الشريعة التي اليها انتهى بيان حقوق الافراد والمجتمعات ، وبها تهذبت الاخلاق وعفت رسوم الجهالات ، وعلى آله المقتبسين من نبراس أنواره ، وأصحابه المغترفين من بحار أسراره

﴿ وبعد ﴾ فمن أهم ما يتوقف عليه تقدم الانسان ، ويترق به الى درجات الفضل والعرفان ، العلم الذي هو أس الكمالات البشرية ، وعنصر التقدم بالهيئة الاجتماعية ، إذ به يزول غشاء الحيرة عن البصر والبصيرة ، فتتضح للمرء محجة الاهتداء ، وتنكشف له حقائق الاشياء ، فيتسنى له الوصول اليها ، ويسهل عليه الوقوف عليها ، وكفى بذلك فضلا للمرء ونبلا ، وحسبه بذلك شرفا يجعله للكرامة أهلا . وإنني لما رأيت أبناء وطني قد تفتحت منهم الاذهان ، وتنبه بعد الرقدة الفكر ، وسرى سر الحمية في أمثالي من شبان هذا العصر ، فأخذوا يتتبعون آثار أشتات العلوم والمعارف ، ويتفيئون تحت ظلها الوارف ، بوجود من لا تكل عن الثناء عليه ألسنة رعيته ، وقد اتحدت القلوب تحت راية عدله وشوكته ، السلطان بن السلطان ، السلطان الغازي عبد الحميد ، المحفوف من الله بالعز والتأييد ، فقد أحببت اتحافهم بكتاب يروق في عين كل لبيب ، ويحتاج اليه كل أديب أريب ، وشحت بفرائد الفوائد طروسه ، وأبرزت في دست

الكمال عروسه ، ليكون بهجة للناظرين ، ولذة للسامعين . وقد سميته بالسوانح الفكرية ، في المباحث العلمية ، لاشتماله على ما يسنح بفكري القاصر من النبذ التاريخية ، والفوائد العلميـة ، والمقالات الادبية . وقسمته على أربعـة أقسام ، القسم الاول المدني . القسم الثاني الاخلاقي . القسم الثالث الادبي . القسم الرابع العلمي . فكل من هذه الاقسام يشتمل على مباحث ، ورجائي من كل من نظر اليه ، اذا تراءى له خطأ أن ينبه عليـه ، فاني أعترف أني متطفل على موائد أهل العلم الكرام ، وانه ان صدر مني جملة مفيـدة ، فرمية من غير رام . وما جرأني على الدخول من هذا الباب ، واستفزني الى سلوك تلكم السبل الصعاب ، الا الغيرة الوطنية ، والبواعث الظرفية ، والاجابة لداعي الحميـة ، والله سبحانه أسأل ، واليه أتوسل ، أن يلهمني مابه نفع العباد ، والاثابة في المعاد ، آمين اه

﴿ القسم الاول ﴾

(المدنية ودواءها ، وأسباب تقدمها أو تلاشيها)

﴿ البحث الاول : الانسان مدني بالطبع ، وتمثيل حالته المدنية ﴾

وذلك ان جميع النوع الانساني على اختلاف أجناسه ، متحد بالاحتياج في ضروريات المعيشـة ، وإن اختلف بالغاية اختلافا أداه الى الاستدراج في طلب العمران ، والرغبة بالتقـدم . إذ من المقرر أن اتحاده هذا لايتم له الا بالاجتماع المدني ، أي أنه يحتاج الى مدنيـة شاملة على أشخاص عديدين لتـتم لكل فرد منهم بمعاونة الباقين له احتياجاته الضرورية ، ومتى تم له ذلك فلاغرو اذا اختلف بالغاية الناشئة عن حب التنافس الذي يدعوه الى التجاوز عن حد الضروريات للأشياء اللازمة للحالة المدنية ، الباعثة على التقدم في الهيئة الاجتماعيـة ، إذ أن اتحاده بالضروريات لايتوقف عليه كمال مدنيته ، بل هذا ينشأ عن اختلافه بالغاية إذ كل شعب أو جمعيـة لهـا غاية تختلف عن الاخرى بانصرافها نحو التقـدم

بالغنى والمال ، أو بالعلوم والمعارف ، أو بالعمران ، أو بقوة السلطان الى غير ذلك من الامور التي يترتب عليها التقدم ، وتكون نتيجة حب التنافس ، لأن الانسان مفطور على حب المنافسة والبحث عما هو الاصلح لشأنه ، والاحسن لترقي مدنيته ، بقدر ما تتوصل اليه الطاقة

ولا يخفى أن من أعظم الأسباب الباعثة على تقدم الانسان الروابط الاجتماعية ، التي تتوفر بها الاستعدادات المدنية ، وينشأ عنها التعاون والتعاضد في هيئة الاجتماع ، فتتحد على تحصيل أسباب النجاح ، والارتقاء الى معارج التقدم والفلاح . ولو طال عليها في سبيل تقدمها أمد العهد . فان الله سبحانه وتعالى لما خلق الانسان وضع فيه تلك الغريزة الطبيعية التي تدعوه الى طلب المعاش ، وجعل له العقل سراجا يهتدي به الى أسباب معيشته ، وصون حياته ، وسبل تقدمه ، فجعل أولا يفتكر فيما يستر به عورته ، ثم فيما به قوام حياته ، وما يقيه آفة البرد والحر ، ولما تمت له تلك المعدات أخذ يتناسل ويتوالد حتى ضاقت به تلك البقعة التي كان منحصراً فيها فتفرق الى أمكنة متعددة ، جماعات وأحزاب ، واضطرت تلك الأحزاب الى الاجتماع المدني ، فابتنى كل حزب لنفسه أكواخا يأوي اليها ، وجعل يتقوى وينمو يوما عن يوم ، حتى قوض بحكم الضرورة أكواخه الحقيرة ، وابتنى مكانها دوراً صغاراً . وهكذا لما تقوت جميع الاحزاب تولد فيها عنصر الحقد وحب التغلب ، فخافت من أن يسطو بعضها على بعض ، فأخذوا يعمل الفكرة فيما يدافعون به عن أنفسهم عند مسيس الحاجة . فاستعملوا مثلا المقلاع وما شابهه من آلات الدفاع الحقيرة ، حتى اضطروا أخيراً الى حفر الخنادق وابتناء القلاع .

ولما رأى كل حزب منهم أن لابد من العصبية والاتحاد ، وان تلك العصبية يلزم لها رئيس يضم شملها ويجمع شتاتها ، وينتصف للمظلوم من الظالم ، ويجعلها خاضعة لأوامره ونواهيه ، راضخة لأحكامه ، متحدة تحت رايته ، خوفا من اختلاف الآراء والوقوع في المحذور . اختاروا واحداً من أنفسهم ، معروفا بالعقل ، وأصالة الرأي ، وقوة الجنان ، فملكوه عليهم ، ووطنوا أنفسهم على قبول أوامره ، فاتخذ منهم الوزراء والقواد ليعول في حال الشدة عليهم ، ويرجع

عند حلول المحذور اليهم ، فعظمت شهرته ، وحلت في قلوب الناس رهبته ، واتحدت تحت رايته جميع أفراد رعيته . ولما تم له ذلك ، ورأت أهل ولايته أن لا بد من عمل الفكرة في تحصين البلاد ، وحفظ النفوس والأموال ، عمدوا الى اختراع الآلات الكافية للبناء ، وخططوا المدن ، وشيدوا الامصار ، وأقاموا حولها الاسوار . ولما أمنوا بذلك على أنفسهم وأموالهم ، وجدوا أن اجتماعهم المدني لم يزل في احتياج عظيم الى أشياء كثيرة من ضروريات المعيشة ومعدات الحالة الحضرية . فأخذ كل فرد منهم يجهد رويته باختراع شيء نافع أو آلة مفيدة ، أو صناعة حسنة ، الى غير ذلك ، حتى تم لهم ذلك على قدر الامكان . فجعلوا يزخرفون الدور ، ويعممون المتنزهات ، ويشيدون القصور ، ويتأنقون بالمآكل والمشارب ، واستطلع كل فرد الى نحو من هو أعلى منه ، فطفق يجد في طلاب ما هو فوق طاقته ، وأخذت تنمو فيهم قوة التنافس وحب الايثار(١) لينفرد كل منهم بمزية يختص بها دون سواه ، سواء كانت تلك المزية مختصة بالعلوم أو الصناعة أو الثروة ، أو القرب من السلطان ونحو ذلك ، حتى استغرقوا في بحار المدنية ورفاهية العيش . وهذا التنافس لم يبق منحصراً بالافراد فقط ، بل سرى الى الممالك الكبيرة ، فأخذت تنافس على بعضها بالقوة والسلطان ، والعلوم والعرفان ، والجند والمال ، والخيل والرجال

وما كفى هذا الانسان البائس الضعيف ما وصل اليه حتى استطلع الى إدراك ما هو فوق طاقته البشرية كالوقوف على الحقائق الكونية ، والطبقات الارضية ، والاجرام السماوية ، والمواليد الحيوانية والنباتية والمعدنية . فأعمل الفكرة وأجهد الروية ، حتى توصل بواسطة إدراكاته العقلية الى الاطلاع على أسرار المصنوعات الالهية ، والوقوف عند حكم بعض الحقائق الكونية ، وأخذ يسبر كنه الموجودات ، ويتتبع دقائق المصنوعات ، فخبط خبط عشواء ، وتردد بين الصواب والخطأ ، وأنى له الوقوف على حده ، والاكتفاء بما وصل اليه بجده . فان لله في خلق السموات والارض عجائب لا تحدها العقول ، ولا تدركها الابصار

(١) لعله أراد الاثرة والاستئثار كما يقتضيه المقام اه مصححه

فهذه حالة الانسان قبل الطوفان وبعده ، حتى الآن ، وهكذا استدراجه بالمدنية شيئاً فشيئاً مع توالي السنين والايام . فظهر مما تقرر لديك جميعه أنه مدني بالطبع بالنسبة لاتحاده بالضروريات ، واتحاده بها يحوجه الى الاجتماعات المدنية ، والاجتماعات المدنية تسبب اختلافه بالغاية ، واختلافه بها يسبب تقدمه على بعضه البعض بمقتضى المقصد . والغاية التي ينصرف اليها كما مر معنا القول هذا مع قطع النظر عن سجيتي الحقد والحسد اللتين تدعوانه الى الحروب المستمرة والفتن الدائمة ، التي تؤول أحياناً لتلاشي غالب العمران ، واضمحلال مدنيته وخراب البلدان ، كما وقع بممالك الفرس واليونان والرومان ، ومن تقدمهم من الامم المتمدنة البائدة ، كما سنشرحه في البحث الثاني

وهنا مبحث آخر ينبغي التنبيه عليه وهو أنه : اذا قيل كيف يكون الانسان مدنياً بالطبع ؟ وكثيراً ما نرى من لم يستضيء بنورها من الامم ، ومن زالت عنهم بعد أن كانت راسخة القدم ، كما هو مشاهد الآن ، فانا بينا نرى أكثر سكان المشرق لم تتوفر لديهم الاستعدادات المدنية ، نجد أن سكان المغرب (الاورباويين) قد ترقوا من المدنية الى أوج الكمال ؟

أقول : هذا أمر اقتضته حوادث الدهور في تقلبها على حسب الظروف ، والاحوال الباعثة على تحول المدنية وانتقالها ، وتقدم الشعوب أو زوالها ، وذلك لأسباب جمة ، منها أن اتحاد الانسان بالضروريات لا يتوقف عليه كمال مدنيته نظراً لاختلافه بالمشارب والغايات . ولما أنه بمقتضى انصراف الغاية نحو الشيء الباعث على التقدم ، وعكسه يكون تمام المدنية أو نقصانها كما مر معنا الكلام

(ثانياً) قد يختلف التمدن باختلاف أمزجة القطر ، واستعداد الفطرة وقابليتها لتحصيل أسباب المدنية بالسرعة ، وبالعكس أعني قد لا تكون الفطرة مستعدة لقبول التعليمات وتحصيل الاشياء المتعلقة بأسباب التقدم بالمدنية الا بعد الزمن المديد وذلك لأن الانسان مهما كانت فطرته مطبوعة على السذاجة ، فلا بد اذا توفرت الأسباب التهذيبية لديه من حصوله على الكمالات البشرية ، وتهذيب فطرته لما أنه مدني بالطبع كما ذكرناه ، وقوتي النطق والادراك اللتين تميز بهما عن سائر

الحيوان تخولانه قبول التربية البشرية ، والارتقاء منها الى معارج المدنية

(ثالثاً) ان تمدن الشعوب على نوعين ، تمدن يرجى معه طول البقاء ، وتمدن قريب الزوال والفناء ، فأما مايرجى معه طول البقاء ، فهو التمدن البطيء النمو الذي إبطاء نموه هذا يجعله أن يبنى على أساس لا تزحزحه مرور الأجيال . وأما القريب الزوال فهو التمدن السريع الظهور ، لأنه لعدم بنيانه على أساس متين يضمن له طول البقاء يكون عرضة للزوال

(رابعاً) إن الحروب الدائمة والفتن المستمرة التي جبل الانسان على إثارتها بمقتضى طبيعتي الحقد والحسد ، كثيراً ما تكون سبباً في تلاشي أمة متمدنة وظهور أخرى

(خامساً) من المقرر أن المدنية أكثر ما يكون ظهورها وتقدمها في الامصار والمدن الكبار ، وكلما تقدمت في المصر وتمكنت من أهله تضطرهم الى الترف بالمعيشة والسرف والتبذير وارتكاب الفواحش ، وهذا كله يحتاج الى كثرة النقود ، سيما مع غلاء الاسعار لما يضربه الحاكم على الرعية من المكوس والضرائب الفادحة لاحتياجه اليها في تكثير الشرط ، والمحافظين لصون الراحة العمومية ، ودفع ما ينشأ عن مرتكبي الفواحش وأرباب الفجور ، والمتلصصين من الخلل والغوغاء ، فيعز وجدان النقود ، فيضطر الناس في تحصيلها الى الاقدام على المحظورات كالسرقة والظلم ، وعمل الغش ونحو ذلك . وكلما نمت بالمصر هذه الاسباب كانت عرضة للفقر والهبوط الى حضيض التأخر والاضمحلال . فتتلاشى هي ومدنيتها معاً

(سادساً) إن اختلاط أمة غير متمدنة بأخرى متمدنة يكون سبباً في تقدم الاولى بالمدنية لاقتباسها من الثانية أخلاقا وعوائد لم تكن معلومة لديها ، كما وقع لأهل أوربا في زمن الحروب الصليبية مع أهل الاسلام بالمشرق ، كما يعترف بذلك مؤرخو الافرنج . وقد أوردت ذلك مفصلا في رسالتي المسماة (بالبيان في التمدن وأسباب العمران)

مطلب المدنية شرقية

فاذا تقرر لديك ذلك فقد علمت أن الغربيين (سكان أوربا) ليسوا بمتمدنين من الازل ، وكما قال بعض الفضلاء : ماهم أول من عمر الارض ، وما أهبطوا من السماء — بل هم الشرقيون سواء ذاتيا وعرضيا ، والشرقيون متقدمون بالمدنية على الغربيين — وإنا وإن خرج بنا الكلام عن الموضوع ينبغي أن نثبت ذلك بالبراهين القاطعة ليتأكد لديك صحة ماقلناه : فان المشرق (آسيا) ينبوع المدنية ومهبط الانسان ، إذ أن آدم عليه السلام الذي هو أبو البشر كان مهبطه بالهند كما ثبت عند جميع الكتابيين . ومن ثم انتشر الانسان في أجزاء الأرض ، وعمر الاقطار . ومن المشرق بعثت الرسل الذين بهم توصل الانسان الى معرفة حقائق الامور ، وأخصها معرفة الخالق جل وعلا ، وفيه واليه أنزلت الكتب السماوية التي بينت حقوق الافراد والمجتمعات وبهذين السببين ومآثرهما أرشدت العقول ، وتنورت الابصار ، حتى استكملت بالامم الصفات الانسانية ، وهذبت الاخلاق ، وصفت مرآة الوجود، فشيدت الممالك ، وعمرت المسالك ، وحسنت الاحوال. فالشرق مبرزة النبوة والملك ، ومظهر النشأة الانسانية، ومقر العالم القديم ، وبه عرفت الحقوق ، ومنه انتشرت الأديان — وزد على ذلك ما يشاهد فيه من الآثار الدالة على كمال مدنيته في غابر العصور ، كالاهرام المصرية ، والقلعة التدمرية ، وقلعة بعلبك المسماة قديماً هيرو بوليس التي تعد من عجائب ما تركته لنا عصور المدنية الشرقية، هذا وبالشرق ظهر كل هذا الفخار، وعن أهله استفاد المتقدمون والمتأخرون ، وعلى ما أسسوا بنت الاجيال. أفيجوز أن ينكر فضله وفضل أهله؟ لا وأيم الحق وان اخنت عليه الدهور ، ومحت آثار مدنيته القديمة كرور الايام وتوالي الفتن بين الامم المتغلبة وصروف الحدثان ، على أنه لم يزل الشرقي الى الآن صاحب ذكاء وقابلية وفطانة تخوله الارتقاء الى أسمى مقامات الكمال ، سيما السوريون والمصريون ، فقد أخذوا بالتقدم رويداً رويداً الى معارج الفضل

وتحصيل أسباب المدنية . وما نلبث أن نراهم إن شاء الله في ظل دولتنا العلية ، حاصلين على كمال المدنية ، متمتعين باجتناء ثمرات العلوم والفنون ، والله الموفق من شاء لما يشاء ، وهو الهادي الى سواء السبيل . انتهى

البحث الثاني

﴿ الحرب ومنشؤها وبواعثها الردية ﴾

﴿ وما تعود به من الضرر على المدنية ﴾

لما كانت الحرب من أعظم البواعث على هلاك الانسان ، وتلاشي المدنية والعمران ، أحببت تتميما للفائدة أن اذكر نبذاً تتعلق بها وبمنشئها وأقسامها وعلل الانتصارات والانكسارات فيها وما يتبع ذلك من الأمور التي يلزم الوقوف عليها لما أنها من أعظم المصائب العائدة على الانسانية وأكبر الاسباب الذاهبة بأصول المدنية فأقول

اعلم أن الحرب علة سارية في عناصر الامم لاسبيل الى استئصال جراثيمها المتولدة عن حب التغلب والحسد المطبوع عليه نوع الانسان ويستحيل إزالة أسبابها من بين الشعوب لما أن منشأها إما أن يكون عن عداوة سابقة وأما أن يكون عن مجرد حب التغلب فاما العداوة فهي أيضاً أما أن تكون ناشئة عن تعد سابق وذلك مما يدعو الى أخذ الثار واسترجاع المسلوب جريا على ماجبل عليه نوع الانسان من الانفة والعزة وعدم احتماله للضيم واهتضام الحقوق فان التعدي لا يكون الا باهتضام الحقوق واهتضامها مما لاتقبله النفوس البشرية وهذا أمر مقرر بين العموم والافراد وعنه تنشأ المنازعات والمخاصمات التي دعت الى اقرار الشرائع وسن القوانين العادلة بين الناس لالزام كل فرد بمراعاة جانب الحق ومعرفته ما كان له أو عليه

وإما أن تكون ناشئة عن أحقاد كامنة في الصدور وهذه منشؤها الغضب

وحب الايثار(١) بالرياسة ومنشأ الجميع الحسد الذميم الذي يتولد في عناصر الامم فيدعو الى العداوة والبغضاء وحب ازالة النعم واثارة الحروب بين الامم والشعوب

وأما حب التغلب فمنشؤه جر المنفعة للامة بتوسيع نطاق مملكتها والميل الى الشهرة بتقدمها على من عداها من حيث القوة التي تصون بها بلادها وتحفظ مركزها بين الدول الفاتحة فهذه علل الحروب المستمرة التي طبع على اثارتها نوع الانسان وسبب بها على نفسه الهلاك ودوام الارتباك فبئست العلة الردية المنبثة بين الامم لاجل هلاكهم وزوال المدنية

واذا تقرر لديك ذلك فقد علمت أن الحرب تنقسم الى قسمين: مجردة أعني ماتنشأ عن مجرد حب التغلب ، وغير مجردة أعني ماتنشأ عن عداوة سابقة

وأما الانتصارات والانكسارات التي تحصل للامم في مواقف الحروب فهي متعلقة باختلاف القوات وتباينها وهي تنقسم على ما أدركه فكره الى أربعة أقسام قوة المال وقوة الرجال وقوة المركز الجغرافي وقوة المركز السياسي وكل من هذه القوات الاربع وعدمها له دخل عظيم بالمظفرية وعكسها فأما قوة المال وقوة الرجال فمثالها أن الدولة المحاربة اذا كانت قوتها منوطة بالرجال وهي تستطيع أن تحشد لساحة الحرب مليونا من الجند والدولة المحاربة قوتها منوطة بالغنى والمال وليس بوسعها أن تحشد أكثر من مائتي ألف جندي الى مواقف القتال فقد تكفيها ثروتها للموازنة مع الاخرى اذ باستطاعتها أن تبذل من النفقات في سبيل أغراضها مايجعلها أن تتناسب بالقوة مع محاربتها كما اذا أدت للجند من المؤن مايزيد عن كفايته واستحضرت من المهمات الحربية والاستعدادات اللازمة ماتعجز عنه عدوتها واستحصلت ببذل المال على قوة عظيمة وعدد غفير من الجنود المتطوعة وغير ذلك من الامور التي يتوقف عليها كمال الاستعداد ونوال التناسب بين قوتي المتحاربتين وبهذا تحصل الموازنة بين القوة الجندية والقوة المالية وكلاهما يترتب عليه نوال الانتصار بالحروب

وأما القوة من حيث المركز الجغرافي فهي عظيمة أيضا اذ أن الدولة التي تكون

«١» يستعمل المؤلف الايثار بمعنى الاثرة أو الاستئثار وهما ضدان وقد تقدم مثله

محصنة الجوانب بالمضايق البرية والبحرية والمسالك الوعرة يمكنها لدى مس الحاجة سد الدروب في وجه العدو من جهة البر وقفل المضايق (البواغيز) من جهة البحر وحصر جميع قوتها الدفاعية في مركز واحد حتى يستحيل وصول العدو اليها الا من طريقة واحدة مثلا فهذه ليست من حيث الحصانة كالدولة التي تكون متفرقة الاجزاء والقوة محاطة من جميع جهاتها بالاعداء بل هي أمينة بحسن موقعها من غدرات المحاربين متناسبة القوة من حيث المركز مع العدو

وأما القوة من حيث المركز السياسي فهي عظيمة أيضا بالنسبة لتلك القوات الثلاث وهي عبارة عن صون المملكة بالوسائل السياسية والطرق السلمية وأن تكون داخلية البلاد في راحة وطمأنينة من الفتن والاختلالات لاجل أن تتفرغ رجال الدولة لتلقي الامور الخارجية بسياسة الحزم واثبات ثم وجود العصبة واتحاد الكلمة وعدم الشغب والاختلاف بين الاحزاب وانتظام القوة الجندية وانضمامها وأن تكون الدولة لدى الحرب والسلم مع جميع الدول على حد سواء أعني بأن تظهر لهن المحبة والرغبة بالحيادة عند وقوع حرب ما وتبذل كامل الاسباب السياسية التي تدفع عنها الغوائل العدوانية وهنا أمر آخر يتعلق بهذه القوة وهو أن يكون وجود الدولة بالعالم السياسي فيه مصلحة لجميع الدول أو لدولة دون أخرى وهذه دائما تكون ملزمة بالنسبة لمصلحتها بالمدافعة عنها لدى الاحتياج أدبيا كان أو ماديا وتكون تلك في راحة من تكبد العناء

وبالجملة فكل قوة من هذه القوات الاربع أعني قوة المال (المالية) وقوة الرجال (الجندية) وقوة المركز الجغرافي (الموقع الطبيعي) وقوة المركز السياسي (السياسية) متناسبة مع الاخرى وعليها يتوقف الانتصار بالحروب . وأما مايقع على بعض الدول أحيانا من الخسران والانكسار في الحرب فذلك سببه إما أن تكون الدولة المحاربة مستحوذة على قوتين أو أكثر والدولة المحاربة تحوز قوة واحدة فقط، أو أن تلك لديها قوة كاملة وهذه ضعيفة وليس لديها قوة كاملة، أو أن ينتصر للواحدة بعض الدول ويخذل الاخرى فتضعف أمامها بحكم الضرورة لوقوع الرجحان عليها ويكون ذلك مع قدر الله تعالى سبب انكسارها، أو أنهما

يتوازنان بالقوة فلا تنال احداهما من الاخرى وينتهي بينهما الامر على صلح وسلام بعد خسران المصاريف الحربية وتعطيل أشغال التجارة واتلاف الزرع وإحراق أو خراب القرى والضياع المتاخمة لحدود المملكتين ونحو ذلك من الاسباب التي هي من فظائع الحروب وهذه أمور لاتحتاج الى زيادة بيان لما أنها مشاهدة بالعيان في كل زمان ومكان

واذ قد استوفينا الكلام على الحرب ومنشئها وبواعثها الردية ينبغي قبل أن أذكر نتائجها الوخيمة على المدنية ان أورد نبذة تتعلق باستعدادات الحروب في الازمنة المتمدنة القديمة ونأتي على ذكرها في زمننا الحالي ليرى أيهما أشد وقعا على الانسان، وسببا لتلاشي المدنية وخراب البلدان، فقد ذكر بعض المؤرخين ان أقدم دولة أنشأت جيشاً ورتبت للحرب والمحاربين نظاما فرقت به بينهم وبين سائر الاهالي هي مملكة مصر في زمن الفراعنة فقد جاء في أقدم أحكامهم على ما رواه البعض أن دخل الدولة يقسم على ثلاثة أقسام متساوية فيعطى الملك منها قسما والكهنة آخر والجنود آخر

وأعظم من اعتنى منهم أي من الفراعنة بالجيوش وتنظيمها واحراز معدات الحروب رعمسيس الثاني الذي اكتشف منذ زمن يسير على جثته المحنطة وعرضت في دار التحف ببولاق مصر فهذا الملك الشهير اذا تتبعنا النظر في تاريخ حروبه ومواقعه الشهيرة مع الاحباش ثم الجنود المجاورين لنهر الكنج وانتصاراته عليهم وقهره التتار والاشوريين ثم حربه الهائلة للحثيين في شمالي سورية وتملكه قلعة قادس التي على نهر العاصي وتدويخه لمعظم ممالك العالم تجده بلا ريب أعظم قواد المصريين القدماء، ومع ما كانت عليه جيوشه من الاعتناء بها وحسن الانتظام ومع ماوصلت اليه المدنية في تلك العصور كما تدل على ذلك الآثار المشاهدة بالعيان فلم يكن السلاح حينئذ ذاك الا من السهام والفؤس والسيوف النحاسية ولم تكن الدروع الا من اللبد على أن آثارهم القديمة كما ذكرنا تدل على وصولهم من المدنية الى درجة عظيمة فلا جرم أن عقولهم لم تتوصل الى اختراع أدوات لهلاك الانسان الضعيف أكثر من الفأس والسيف وكذلك أمة الفرس

الذين فاقوا في نظامهم الحربي سائر من تقدمهم من الامم وأنشأوا جيشاً خاضعاً لنظامات وقوانين شبيهة بجيوش هذه الايام لم يكن لديهم من السلاح الا ماذكر ومع ذلك فقد أفنتهم جميعاً الحروب ولاشت مدنيتهم الغارات حتى لم يبق لهم إلا أثر يبصر أو خبر يذكر

فكيف بنا اذا نظرنا الى المدنية الجديدة الأوروباوية وما هي عليه الآن من التقدم وتفنن رجالها باختراع الادوات المهلكة للانسان ان كان في الماء أو على الارض أو في الهواء كالمدافع الرشاشة والكروب والبندق السريع الطلق والتربيد والديناميت والمنطاد الحربي (البالون) الى غير ذلك من الاسباب التي تسد في وجه المدنية المذاهب وتقرب تلاشيها وصيرورة أهلها خبراً تحتار عند ذكره الاذهان، فلا ريب أن مضار هذه المدنية على البشر أشد من نفعها وأي نفع يرجى من مدنية صيرت العالم على شفا جرف هار وفتحت على الممالك أفواه المدافع والبنادق فهي تنتظر أول إشارة لتهلب البسيطة بنيران الهلاك والتدمير، واذا قسنا هذه الحال بالحال التي ذكرناها عن سالف العصور نجد أن بينهما بونا بعيداً جداً وأن رجال الامم الماضية كانوا أرفق بنوع الانسان من رجالها الآن، وكانت الحروب أهون مما هي عليه في هذا الزمان ، ومع ذلك فما كان من نتائجها الا محو تلك الدول العظيمة والامم المهولة من حيز الوجود وخراب الممالك الكبيرة واضمحلالها فمن باب أولى أن تكون نتائجها الآن أوخم، ووقعها على المدنية أشد وأعظم

البحث الثالث

﴿ الاتحاد ونفعه للبلاد والعباد ﴾

إن من أعظم المواهب الالهيـة التي خص بها نوع الانسان قوتي النطـق والعقل اللتين يتوصل بهما الى الالفة التأنسـية ، وحسن المعاشرة الداعيـة الى المحبة والاتحاد في تحصيل السعادة الدنيوية والاخروية . ولما كانت الناطقيـة

هي السبب الباعث على الالفة والامتزاج بين الانسان على اختلاف أجناسه وجب بها اتحاده في ضروريات المعيشة ، وتعاونه على ما به قوام حياته وصون نفسه . ولما ان ذلك يتوقف على مرشد أمين وناصح معين ، خصه الباري تعالى بالعقل ليكون له سراجا يهتدي به في ظلمات البهيمية ، ودليلا يخرجه من مهاوي الحيرة الى ساحات المدنية

وهاتان القوتان العظيمتان هما قوتان في الانسان يقال لاحداهما العاقلة ، والاخرى الناطقة . فالقوة العاقلة هي التي تبين له أوجه الحقائق ، وتدفعه الى عمل الخير ، وتنير له سبل الرشاد . والقوة الناطقة هي التي تحمله على حسن المعاشرة الموجبة للاتحاد في ارتياد ضروريات المعيشة ، لذلك شبه بعض الحكماء المجتمع الانساني بأعضاء الجسم الذي يحتاج كل عضو منه بحركته الى العضو الآخر(١) فالانسان الواحد ليس يطيق القيام بجميع الكمالات البشرية ، كما أنه يستحيل انضمام جميع النوع البشري المتفرق في أجزاء الارض تحت غاية واحدة بل هو مع اتحاده بالضروريات يختلف بالغايات ، لذلك تفرق الى أمم وشعوب ، يقصد كل منها مقصداً مخصوصاً ، على أن المبدأ واحد ، وهو الاتحاد

فالامة التي تكون فطرتها مستعدة لقبول الكمالات الانسانية ، وهممها منصرفة لنيل السعادة والرفاهية ، بعيدة عن دواعي الكسل الذي يفضي بالانسان الى الدرجة البهيمية ، نراها منضمة تحت عاصمة الوحدة الجامعة ، متحدة على الذب عن الأوطان والحرية ، ودفع كل ما من شأنه أن يفرق الكلمة ، محافظة على جلب كل ما يعود بالنفع على الافراد ، ويكون فيه تقدم البلاد ، وذلك باستحضارها جميع الادوات الحسية والمعنوية اللازمة للحالة الحضرية ، والاقبال على الاسباب التي تخولها الارتقاء الى معارج المدنية والتقدم بالهيئة الاجتماعية ، بعكس الشعوب التي تكون في حالة الهمجية ، فان اتحادها انما يكون مقصوراً على شيئين : الضروريات ، والذب عن الاوطان — فأما

---

(١) ثبت هذا التشبيه في حديث نبوي شريف رواه الامام احمد ومسلم في صحيحه يشبه به المؤمنين في توادهم وتراحمهم بالجسد الواحد وافراده باعضائه الخ اهـ مصححه

الضروريات فلأنها لازمة لجميع نوع الانسان كما تقدم . وأما الذب عن الاوطان فهو شيء يشترك فيه سائر الحيوان ، فان النمل الضعيف اذا رأى حيواناً غيره يريد اغتصاب وكره ، يعمل كامل الدسائس اللازمة لدفعه عنه ، وكذلك الاسد الكاسر اذا رأى حيواناً قد قصد مربضه لأجل الاقامة فيه لا يقبل ذلك ، بل ربما حملته الغيرة وعزة النفس ، لأن يبطش به ويدفعه عنه بالقوة ، إذاً فالانسان يتميز عن بعضه تميزاً عظيما ، ويختلف اتحاده اختلافا بيناً ، ولا يكفي اتحاده بالذب عن الوطن كما يتوهمه البعض في معنى الاتحاد ، بل يلزم اتحاده على كل ما من شأنه أن يسبب عمران الاوطان ، ويرفع شرف الامة ، ويسهل تقدمها في مضمار التمدن ، واستحصال أسباب المعارف والعلوم

وأذا أردت بسط الكلام في أسباب الاتحاد الآيلة الى تقدم الامة وعمران البلاد عليك برسالتي المسماة (بالبيان ، في التمدن وأسباب العمران) . وينبغي هنا أن نبين لك بكلام وجيز ما يتوقف عليه دوام العصبة المدنية ، والاتحاد الباعث على التقدم ، وما يترتب على انحلال الروابط الاجتماعية من المضار العظيمة

فأقول (أولا) إن أول شيء يتوقف عليه دوام الوفاق، ويناط به حسن المعاشرة الداعية الى اتحاد الأفراد في تحصيل السعادة ونوال أسباب العصبة هو المحافظة على الأخلاق الحميدة التي تتبادل بها الأيدي على عمل الخير ، كما سأشرح ذلك في البحث السابع

(ثانياً) اتحاد الكلمة وانقياد جميع الأفراد لرأي واحد يكون به صلاح الامة وحسن مستقبل العموم ، لأن اختلاف الآراء وتباين الأحزاب كثيراً ما يكون ذريعة لانحلال عرى الوفاق

(ثالثاً) الاقبال على تحصيل الفضائل ، واجتناب أسباب الرذائل التي تبعث على الشغب والعصيان

(رابعاً) الجد في طلب كل ما يسبب تقدم الاوطان وتتوفر فيه نتائج العمران

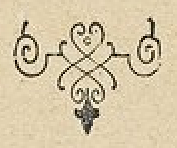
(خامساً) دفع الأسباب الداعية الى تداخل اليد الغريبة لتفريق وحدة الوفاق الجامعة — فالامة التي تكون مرتبطة بهذا الاتحاد ارتباطاً لا يخشى معه

الحلال تسود على من عداها من الامم، ويكون ذلك سبباً لترقي مدنيتها، وتقدمها على الشعوب وعظم سطوتها بخلاف الامة الجارية على عكس ذلك ، فانها تكون عرضة للدمار ، وهدفاً لسهام الاعداء . فتتناوبها أيدي المتغلبين ، وتصير أبداً أسيرة لضروب الحوادث وتقلبات الزمان ، وذلك لعدم وجود العصبة المدنية والاتحاد وتفرق الوحدة الذي يمكن منها الدخيل ، ويسبب الانقسام والخلاف وعدم الانتظام . فاننا اذا دققنا النظر بالاسباب التي ترتب عليها تلاشي الامم المتمدنة القديمة كالفرس واليونان والرومان نجدها هي التي ذكرت بعينها ، وأخصها الانقسام الذي طرأ عليها ، ونشأ عنه تفريق الكلمة ، وانتثار سلك العصبية والانضمام . فالدولة الرومانية التي امتدت فتوحاتها الى قرطاجنة الحصن المانع في بلاد الغرب ، وخضعت لسطوتها ملوك الفرس بالشرق ، وحمل اليها الخراج من جميع الأقطار، عند ما دبت فيها علة الانقسام وانفصلت الى شطرين الدولة الشرقية ، والدولة الغربية، أخذت رابطتها الاجتماعية بالانحلال شيئاً فشيئاً، وكلمتها بالتفريق ، ومدنيتها بالتلاشي والاضمحلال ، حتى زالت من الوجود ، وأصبحت خبراً تحتار عند ذكره الأذهان

وكذلك ما وقع في دولة الخلفاء في عرب الاسلام . فان ماحازته من القوة والسلطان لم تحزه الفرس ولا اليونان والرومان، فقد امتدت فتوحاتها من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، وهابتها جميع ملوك الأقطار، إذ كانت الامة يومئذ متحدة على كلمة الحق ، منضمة تحت لواء الوحدة الجامعة والوفاق التام، حتى اذا تمكن منها الدخيل لأسباب شرحناها برسالتنا المسماة بالبيان ، انحل عرى اتحادها الوثيق ، وانقسمت أولا الى ثلاث ، ثم تشعب عنها بالمشرق ما ينوف عن العشرين قسما كالسامانية والصفارية والبويهية والحمدانية ونحوهم . وأما المغرب فصارت أشبه بملوك الطوائف ، فكان ذلك مع قدر الله سبحانه وتعالى سبب اضمحلالها ، وذريعة تلاشيها — وقس على هذا ما ينشأ عن عدم الاتحاد من زوال الممالك العظيمة ، وخراب البلاد

إذاً فيجب علينا نحن معشر العثمانيين على اختلاف المذاهب وتباين

الأجناس أن نرفع الى الله أكف الضراعة بأن يديم لنا كل دولتنا العلية العثمانية التي جمعت تحت رايتها تلك الأجزاء المتفرقة بعد الشتات ، وصانتنا من ربقة أسر المتغلبين ، كما ينبغي لنا الاتحاد على دفع كل ما من شأنه أن يفرق الكلمة ، ويحل عرى الوفاق ، وذلك بدوام المحافظة على الوحدة الجامعة ، وعدم الانصياع الى دسائس المفسدين الذين يرومون تشتيت قوتنا ، وتفريق كلمتنا على أي وجه كان لينالوا منا ما كمن في صدورهم من الأغراض . وهيهات أن ينالوا ذلك ما دمنا تحت راية واحدة ، وهي راية الهلال العثمانية ، المؤيدة بالنصر من باري البرية . وما الداعي لعدم الانضمام وقد انتشر العدل في هذه الايام ، وتساوت بالحقوق سائر الأفراد ، وأخذت لذلك أسباب المدنية تمتد رويداً رويداً بالممالك المحروسة ، وارتفعت أيدي الظلم والاستبداد ، وتوفرت بالمملكة أسباب العمران في زمن من أشرقت البلاد بنور عدله ورأفته ، ولم يسبقه من العثمانيين ملك بما بذل من الجهد لتقدم رعيته ، الملك المؤيد من الله بالنصر المبين ، أمير المؤمنين السلطان الغازي عبد الحميد خان ، دام كرسي خلافته العظمى ثابت الاركان الى منتهى الدوران ، ولا زالت المملكة العثمانية محفوفة بحفظ الله من طوارق الايام وهجمات الأعداء ، مشرقة بأنوار المدنية محروسة الارجاء ، آمين ، انتهى القسم الاول



القسم الثاني

﴿ التربية والاخلاق ﴾

البحث الرابع

﴿ في التربيتين : الحسية والمعنوية ﴾

اعلم أن التربية نوعان، التربية الحسية ويقال لها المادية، والتربية المعنوية ويقال لها الادبية . فأما التربية الحسية فنعني بها المنوطة بالجسد وهي تنقسم الى قسمين

(القسم الاول) تربية الجسد وتنميته على الشروط التي تضمن حفظه من العوارض الطارئة في مدة الحياة كالغذاء الذي يدفع عنه آفة الجوع ، والملبس الذي يقيه من العوارض الخارجية ، فانهما من أهم ما يتوقف عليه نماء الجسد ، هذا مع مراعاة الأسباب الباعثة على حفظه مما يسبب خللا في أعضائه ، وتوقيفاً لسير انتظام نمائه ، وذلك بالمحافظة على الشروط الصحية ، الراجعة الى العوائد الفطرية أو القواعد الطبية

(وأما القسم الثاني) فهو تمرين الجسد على المصارعة أو الرياضة بالألعاب الخفيفة التي تنشط الجسد وتبعثه على الخفة بالحركات البدنية . فان أمة اليونان كانت تعتبر الالعاب الرياضية من أهم فروع التربية الحسية ، لأنها تصير الانسان سريع الحركة قوي البنية ، صبوراً على الأهوال واحتمال المشاق في مواقع النزال ، ولقد كان الحكماء وأرباب العقول منهم مع رغبتهم بجعل مدار التربية على ازدياد القوة الادبية، يحكمون — اتباعا للرأي العام — باعدام ضعيفي البنية غير جيدي الصحة من الصبيان . وذلك مما يدل على مزيد اعتناء اليونان وقتئذ ذاك بالتربية الحسية أي البدنية التي يتوقف عليها كمال التربية المعنوية أي العقلية

وأما الرومان فقد كان اعتناؤهم بالتربية المعنوية أعظم من اعتنائهم بالتربية الحسية ، وانما كان أساتذة المدارس المعدة لتعليم الاولاد يزرعون في قلوبهم مبادىء الشجاعة ، ويبثون فيهم روح الوطنية ، وغالباً كانت التربية عندهم موكولة

الى العيال ، فكانوا يكلفون ببث روح الشجاعة في نفوس الاولاد ، فتبذل كل عائلة وسعها لتحريك خواطر أبنائها نحو محبة الوطن ، والبسالة والاقدام على الأهوال ، على أن هذا غير كاف في تمرين الجسد على تحمل المشاق ، والشجاعة لاتجدي صاحبها شيئاً اذا لم يكن جسده متمرناً على الجولان والخفة بالحركات ، ولا أدركه العجز والملل ، ووقع في النقصان .

واذا نظرنا الى تربية العرب في العصور الخالية نجدها توافق تربية اليونان من حيث كونها بدنية ، فان الطفل عندهم كان متى ترعرع واستطاع المشي والحركة يبدؤن بتعليمه لعب الاكرة والصولجان التي هي من أعظم الألعاب الرياضية ، ثم يمرنونه على ركوب الخيل ، ثم على اللعب بالسلاح كالرمح والسيف ، وهكذا حتى تستكمل فيه أوصاف الفروسية كالخفة بالجولان والصبر على القتال ، واقتحام الحروب للمدافعة عن الحريم والعيال

وبالجملة فالتربية الحسية على العموم مما يتوقف عليها كمال التربية المعنوية ، لأن الجسد خادم للروح ، وهي مخدومة من جميع أعضائه وحواسه . فاذا لم تتم تربية تلك الحواس ، وتنمية الاعضاء على وجه يضمن حسن نمائها . لم تتم تربية الروح وتهذيبها ، وبقدر ما يتعطل من أعضاء الحواس الجسمانية يضر بقوى النفس كالعينين اذا أغمضتا ، واليدين اذا شلتا ، فان كليهما ضرر عظيم على النفس ، لأنه مثلا بالعينين يتوصل الانسان الى رؤية الأشياء النافعة فيطلبها والأشياء الضارة فيدفعها أو يهرب منها ، وباليدين يتناول الغذاء وهو من قوام الجسم ، وبتعطيل اليدين أو العينين يتعطل الجسم فيضر بقوى النفس . وهذا بحث طويل ستراه مفصلا في البحث السادس . والآن ينبغي بعد ما استوفيت الكلام على التربية الحسية أن أبين ما هي التربية المعنوية ؟ فأقول :

أما التربية المعنوية فهي تهذيب العقل وترويض الذهن والفكر وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام

(القسم الأول) تربية النوع البشري أعني تربية الانسان من حيث هو انسان ، وتنمية مواده الجسمية وحواسه العقلية

(والقسم الثاني) تربية أفراد الانسان أعني تربية الامم والملل

(والقسم الثالث) التربية العمومية لكل انسان في خاصة نفسه . وهذا القسم أيضاً يقسم على ثلاث مراتب (الاولى) مرتبة تعليم العلوم الابتدائية (والثانية) مرتبة العلوم الثانوية التجهيزية (والثالثة) مرتبة العلوم العالية ، وقد استوفينا الكلام على أقسام هذه التربية في رسالتنا المسماة بالبيان المقدم ذكرها فلا لزوم هنا لاعادة الشرح ، ولما كانت الاخلاق لها دخل عظيم بهذه التربية وقد فاتنا أن نذكرها هناك فقد اقتضى أن نفرد لها بهذا الكتاب بحثاً مخصوصاً ، وهو البحث الآتي وبه تمام الغاية المطلوبة

البحث الخامس

﴿ الاخلاق ﴾

اعلم أن قولنا إن للاخلاق دخلا عظيما في التربية المعنوية يستفاد منه أن الاخلاق تكتسب بالتربية فهو قابل للتغير بطريق الرياضة وهذا ينافي مازعمه البعض من أن الاخلاق غير قابلة للتغير ومن كان له خلق طبيعي لن ينتقل عنه فاقول نعم الاخلاق تكتسب بالتربية ولولا ذلك لشب المولود على سلامة فطرته لما أنه يولد صحيح الفطرة بالطبع وبقاؤه على الفطرة لايتصور وقوعه بل هو ينشأ إما حسن الاخلاق وإما قبيحها ولا يقال إنه خلق مطبوعا على تلك الاخلاق بل يقال انه لسلامة فطرته واستعدادها لسرعة قبول الاخلاق ينشأ على مااعتادته فطرته من الاخلاق وعلى ذلك فالاخلاق كلها غير طبيعة في الانسان بل هي مكتسبة بالتربية والمكتسب بالتربية قابل للتغير كما اذا اعتاد الشخص على البخل ونشأ عليه لايقال إن خلقه البخل وهو مطبوع عليه ولايمكن تحوله وانتقاله عنه بل يقال انه خلق بالفطرة قادرا على الامساك والبذل ومن يكون قادراً على هذين الخلقين يمكنه بالطبع التحول عن واحد والثبات على آخر وما زعمه البعض من استحالة تغير الاخلاق فهو فاسد أصلا ولذلك قال بعض الحكماء

ليس شيء من الاخلاق طبيعيا ولايقال انه غير طبيعي وذلك انا مطبوعون على قبول الاخلاق بالعادة والاستمرار بل ننتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً واما بطيئا وذلك بقدر قرب الشخص من الخلق السيء وبعده عنه ولولا ذلك لبطلت السياسيات والمواعظ والوصايا التي هي سبب نجاتنا وقربنا من الله سبحانه وتعالى ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم «حسنوا أخلاقكم»

وما يراه البعض من عدم امكان تغير الاخلاق بسبب كونها طبيعية وضرورية أيضا كقوتي الشهوة والغضب اللتين هما مما به قوام الانسان فذلك غير مسلم به لانا لو سلمنا بكون الخلق طبيعياً لما أمكن أن نسلم باستحالة تغيره اذ الواقع يكذب ذلك لانه كثيراً مانشاهد من بعض الناس امساك الشهوة بعد استرسالها وبالعكس ، وتوقيف ثورة الغضب عند هيجانها واستعمال الحلم والاناة وبالعكس ، فهل يمكن بعدها أن يسلم بعدم امكان تغير الاخلاق بدعوى كونها طبيعية وهل يقال إن ذلك ليس تغيراً للاخلاق؟ لا لايمكن أن يقال ذلك البتة

وهناوجه آخر وهو أنه لو حكمنا بأن قوتي الشهوة والغضب طبيعيتان في الانسان ويستحيل لذلك تغيرهما للزم أن نحكم بأن الناس كلهم أشرار وذلك لعدم إمكانهم من رد هاتين القوتين اللتين تدعوانهم بالضرورة الى الاسترسال في الشهوات الجالبة لانواع الرذائل ، والحال أنه لايمكن الحكم بذلك أصلا اذ من الناس من هم أنبياء ومن هم أولياء ومن هم أخيار ومن هم صالحون ومن هم أشرار أيضاً اذاً فلا ينبغي أن يحكم بعدم إمكان تغير الاخلاق وانتقالها بل هي قابلة للتغير والانتقال لكن ليس المقصود من تغير الاخلاق تغيرها تغيراً كلياً ومحوها محواً أصلياً اذ أنه لايتأتي ذلك لانه اذا أريد قمع شهوة النكاح ومحوها بالكلية ينقطع النسل الذي يتوقف على بقائه عمار الكون وكذلك اذا أريد قمع الغضب ومحوه بالكلية تعدم الشجاعة التي يدفع بها الانسان مايهلكه وبعدمها يصبح فريسة في أيدي ماسواه من الحيوان، اذاً فالمقصود من تغير الاخلاق ردها الى حد الاعتدال الذي هو وسط بين الافراط والتفريط، ومجاهدة النفس بالتهذيب والتأديب، حتى تتوصل الى نوال الفضائل، ورفع أسباب الرذائل ، وتحوز على

السعادة السرمدية والحياة الطيبة الابدية

واذ قد بينت بطريق الاجمال ثبوت تغير الاخلاق وكونها تكتسب بالتربية وهي قابلة للانتقال فقد لزم بيان ماهو الخلق وما هي أصول الاخلاق لكن لما كان ذلك يستدعي شرحا طويلا وهو مبسوط في كتب الاخلاق للشيخ الرئيس ابن مسكويه ولحجة الاسلام الامام الغزالي وغيرهم ولما أن نقل آراء الجميع ربما يضيع ثمرة الغرض المقصود فانا اكتفي فقط بنقل ماراه بهذه الشأن الامام الغزالي لما أنه مع تحريه للاختصار قد وفي بالفائدة المطلوبة وأتى بالغاية المرغوبة وطوبى لمن نظر الى كلامه بعين البصيرة وكان قلبه خاليا من الشوائب، راغبا في الموعظة الحسنة، ليتحلى بمكارم الاخلاق ومحاسن الافعال، ويتوصل بها الى القرب من الرحمن، والبعد عن الشيطان، وها أنا أبسط لك كلامه لتعول عليه وترجع في حقيقة الاخلاق اليه

قال رضي الله عنه في بيانه للاخلاق وتعريفه للحق «إنه هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الافعال بيسر وسهولة من غير فكر ولا رويةفان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وان كان الصادر عنها الافعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا، وانما قلنا انها هيئة راسخة لان من يصدر منه بذل على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وانما اشترطنا أن تصدر منه الافعال بسهولة لان من يكلف بذل المال والسكوت عند الغضب لا يقال خلقه السخاء والحلم، فهنا أربعة أمور أحدها فعل الجميل والقبيح والثاني القدرة عليهما والثالث المعرفة بهما والرابع هيئة للنفس بها تميل الى إحدى الجانبين، ويتيسر عليها إحدى الامرين، إما الحسن وإما القبيح، وليس الخلق عبارة عن الفعل فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء، وليس هو عبارة عن القوة لان نسبة القوة الى الامساك والاعطاء بل الى الضدين واحد، وكل انسان خلق بالفطرة قادراً على الامساك والاعطاء وذلك لايوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس

هو عبارة عن المعرفة فان المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد بل هو عبارة عن المعنى الرابع وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الامساك والبذل

فالخلق اذاً عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الانف والفم والخد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد للحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق فاذا استوت الاركان الاربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهي قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث

أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الاقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الافعال، فاذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الاخلاق الحسنة وهي التي قال الله فيها (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً)

وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها في حد ما تقتضيه الحكمة وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة أعني إشارة العقل والشرع . وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هى القدرة ومثالها مثال المنفذ الممضي لاشارة العقل ، والغضب هو الذي تنفذ فيه الاشارة ومثاله مثال كلب الصيد فانه يحتاج أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الاشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس ، والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فانه تارة يكون مروضا وتارة يكون جموحا ، فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالاضافة الى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض ، وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالعفة فان مالت قوة الغضب عن الاعتدال الى طرف الزيادة تسمى تهوراً وان مالت الى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخوراً ، وان مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها وإن مالت الى

النقصان تسمى . جموداً والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل اذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان ، بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند استعمالها في الاغراض الفاسدة خبثا وجربزة ويسمى تفريطها بلها والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة

فاذاً أمهات الاخلاق وأصولها أربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الاحوال الاختيارية ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة ويحملها على مقتضى الحكمة ويضبطها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وأحجامها ونعني بالعفة تأديب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع فمن اعتدال هذه الاصول الاربعة تصدر الاخلاق الجميلة كلها اذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الاعمال وخفايا آفات النفوس ، ومن إفراطها تصدر الجربزة والمكر والحقد والخداع والدهاء ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون ، وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الانسان غمراً في شيء دون شيء ، والفرق بين الحمق والجنون أن الاحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل الى الغرض. وأما المجنون فانه يختار مالا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وايثاره فاسداً

وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتؤدة وأمثالها وهى أخلاق محمودة ، وأما إفراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب

وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع

واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع وأما ميلها الى الافراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للاغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك

فأمهات محاسن الاخلاق هذه الفضائل الاربعة وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقي فروعها ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الاربع الا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه فكل من قرب منه في هذه الاخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع كمال هذه الاخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم اليه ويقتدون به في جميع الافعال، ومن انفك عن هذه الجملة كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من البلاد والعباد فانه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد فينبغي أن يبعد، كما أن الاول قريب من الملك المقرب فينبغي أن يقتدي به ويتقرب اليه فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلا ليتم مكارم الاخلاق كما قال وقد أشار القرآن الى هذه الاخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فالايمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين وهي ثمرة العقل ومنتهى الحكمة، والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع الى ضبط قوة الشهوة، والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التي ترجع الى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال (أشداء على الكفار رحماء بينهم) إشارة الى أن للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً فليس الكمال للشدة في كل حال ولا فى الرحمة بكل حال، فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه» انتهى كلامه رضي الله عنه

***

والطريق الى تحصيل محاسن الاخلاق ورد الخلق الى حد الاعتدال مجاهدة النفس وحملها على ترك الرذائل واتباع الفضائل بالعادة والتدريج لما أن الاخلاق تكتسب بالعادة وهى قابلة للتغير كما تبين لك ذلك فان من أراد أن يحصل

لنفسه مثلا خلق السخاء والغالب عليها البخل يعتاد بذل المال شيئاً فشيئاً ولو تكلفاً منه حتى يصير له ذلك طبعا لا تطبعاً وقس على هذا بقية الاخلاق، وأحسن مايكون اعتدال النفس وصحة الفطرة في الاطفال المولودين حديثاً اذ أن المولود يخلق معتدل المزاج صحيح الفطرة بالطبع وانما يضر بمزاجه عارض يطرأ عليه ويغير فطرته قبح أو حسن تربية أبويه وهذا المراد من قولنا في البحث الرابع إن القسم الاول من التربية المعنوية تربية الانسان من حيث هو انسان أعني تنمية مواده الجسمية وحواسه العقلية فكما ينبغي تنمية مواده الجسمية على الشروط التي تضمن استطراد نمائها وبلوغها حد الكمال كالغذاء والمحافظة على الصحة كذلك يلزم تغذية الروح والعقل بغذاء الحكمة اذ أن المولود مع سلامة فطرته واستعدادها لقبول الفضائل أو الرذائل ينشأ على مااعتادته فطرته من الضدين، وعلقت به نفسه من احد الامرين ، فلا ينبغي تعليمه على أسباب القبائح والرذائل كالشره والوقاحة وعدم الاذعان وسوء الادب والالحاح بالطلب ونحو ذلك من الامور التى تعود عليه بالوبال وتبعده عن نوال أسباب الفضائل والكمال وينبغي لمن ينشأ على شيء من ذلك زجره عنه وأخذه تارة بالترهيب وتارة بالترغيب وحينا بالتأديب ووقتا بالنصح وبيان قبح ماأتاه من الامر القبيح حتى ينفك عنه بالكلية وتظهر على وجهه لدى أول اشارة سيماء الحياء والامتثال ثم أن من أعظم مؤثر بالاخلاق مصاحبة الاشرار فينبغي ابعاده عند مايشب عن كل من اتصف بغير الاخلاق الحميدة وقربه ماأمكن من مجالسة الاخيار ومعاشرة من اشتهر بمكارم الاخلاق ومحاسن الافعال وقد قيل بالمعنى شعراً

اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الاردى فتردى مع الردي
عن المرء لاتسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن مقتدي

وللقصاص الغرامية والاشعار الهزلية والغزلية تأثير سيء بالاخلاق لما ينشأ عن مطالعتها من التشوق الى رؤية النساء الحسان والشبق وخمول الذهن والكذب والانصراف نحو اللذات الغرامية التي هى من أضر مايكون على النفس فأذا أبعد الولد عن ذلك وعن كل مايشينه وغذي من حال الطفولية

بغذاء الحكمة والآداب وعود على مطالعة كتب الحكم والمواعظ وآداب النفس ينشأ على الاخلاق الحسنة المحمودة والعقل السليم والنفس الادبية المهذبة وبذلك يرجى فلاحه ويتم نجاحه

ومن الجهل الفادح أن من الناس من هم بدلا من أن يربون الولد على شروط التأديب والتهذيب يعلمونه من بدء نشأته على الشره والوقاحة وسوء الادب مع الغير وذلك من أوجه يزعمونها دلالا وخيراً للولد وهى شر وقبح كما اذا بكي الطفل من عارض يصيبه أو ألم يلم به ولو في اليوم مئة مرة فأنهم يسرعون لمداواته بوضع الثدي في فمه وارضاعه ولو تكلفا منه ظنا منهم أنه جيعان وبكاؤه إشارة الى طلب الرضاع هذا مادام في المهد وأما اذا ترعرع وانتشا فأنه لا يرى إلا والاكل مالىء حجره وفيه فينشأ على هذه العادة القبيحة وهى الشره الذي هو من اسوأ الاخلاق والاشد من ذلك وبالا انهم لما يأخذون بمداعبته ولعبه يعلمونه السفه والرذالة وقلة الحياء بأن يقولون له اشتم فلانا بكذا وسبه بكذا وان قال لك كذا فقل له أنت كذا ونحو ذلك من الامور التي تضر بأخلاق العاقل المدرك فضلا عن الطفل الصغير المستعدة نظرته لسرعة قبول الاخلاق إن حسنة وإن قبيحة فلعمري أن هذه عادة لمن أقبح العادات وأعظمها ضرراً على الاطفال وبعداً عن نوال سعادة النفس

وبالجلة فما أوردناه في هذا البحث من لزوم التربية وبيان حقيقة الاخلاق وأصولها وثمراتها فيه الكفاية لكل عاقل حكيم والله سبحانه المسؤول أن يرشدنا لنوال السعادة السرمدية ويجعلنا أهلا للكرامة بارشادنا الى الاخلاق المحمودة والافعال المرضية انه تعالى مجيب الدعوات آمين » انتهى

﴿ البحث السادس ﴾

﴿ الجسد بالحواس وبكليهما كمال تربية النفس ﴾

اعلم أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الجسد وزينه بالحواس التي هي من تمام وجود الجسد وضع فيه من أمره تلك النفس العظيمة التي هي سبب الحياة الابدية وأشرف المواهب الالهية لتمام صنعته البديعة وحكمته الباهرة فربطت مع الجسم رباطا طبيعيا لذلك قلنا في البحث الرابع انه بقدر مايتعطل من أعضاء الجسد أو حواسه يضر بقوى النفس بدليل رباطها به واحتياج البدن وشوقه للحواس التي هي آلة للنفس في استدراكها بقضايا المحسوسات الا أن الجسد ليس بأفضل من النفس بل النفس أفضل وأشرف من حيث كونها جوهراً نفيسا والجسد عرض زائل وهي قوة الهيئة مستعملة لذلك المزاج الخاص ومربوطة معه فهي لا تفارقه الا بمشيئة الله تعالى لذلك ترى أنها اذا حدث بها مرض من أمراض النفوس كالحزن والوله والغضب ونحو ذلك يحصل للجسد ذبول واصفرار ونحول أو احمرار الى غير ذلك من ضروب التغيرات الظاهرة وكذا مايشاهد بالنفس وقواها عند مايصاب الجسد بمرض من الامراض الجسمية سيما اذا كان في الرأس أو القلب فقد يرى المريض ذاهل اللب متحير الفكرة قليل التصور متغير العقل وسائر قوى النفس الشريفة هذا بالنظر الى كامل الاعضاء وأما بالنظر الى الاجزاء كالحواس البدنية مثلا فان فقدان واحدة منهن يعطل على النفس تمييز مايتعلق بتلك الحاسة لان النفس تأخذ كثيراً من مبادىء العلوم عن الحواس وهي تستدرك أشياء كثيرة مما تقتصر بها على مجرد مبادي أنعالها الحواس وانما بتوصل الحواس الى مجرد مبادي ذلك الشيء توصلت النفس الى استدراكه وتمييزه والحكم عليه بمباد عقلية وأحكام صحيحة، ومثال ذلك اذا تراءى لحاسة النظر وحش مقبل نحو الجسد لافتراسه فان غاية مايتوصل اليه النظر الرؤية له فقط ومجرد تلك الرؤية لا تفيد البدن شيئاً وانما العقل الذي هو جوهر النفس يستدرك من اقبال

ذلك الوحش كونه آتيا لافتراس البدن ويحكم بذلك حكما صحيحاً الا انه لولا توصل النظر الى رؤية ذلك الوحش لما استخرج العقل تلك القضية وحكم بها ذلك الحكم الصحيح، بل لكان أتى الوحش وافترس ذلك البدن بدون أن يشعر العقل لفقدان حاسة النظر التي هى آلة للعقل في استدراك مايتعلق به من المحسوسات وكذا حاسة السمع فان غاية ما تتوصل اليه سماع الالفاظ والجمل المركبة وعلى العقل فهم المراد من تلك الالفاظ واستدراك معانيها الا انه اذا زالت حاسة السمع توقف العقل عن استدراك الالفاظ ومعانيها وهكذا الحال فى بقية الحواس

فاذا تقرر ذلك فقد علمت أن البدن بالحواس وبكلاهما تمام تربية الروح أو النفس (وكلاهما بمعنى واحد) غير انه لايتبادر لذهنك أن النفس العاقلة تأخذ جميع مبادي العلوم عن الحواس البتة وهى المبادي الشريفة العالية التي تبنى عليها القياسات الصحيحة كادرا كها أسباب الاتفاقات والاختلافات التي من المحسوسات وهى معقولاتها التي لاتحتاج للاستعانة عليها بشيء من الجسم فانها كثيراً ماتخطيء النظر برؤيته للشيء البعيد صغيراً وهو بالحقيقة يختلف بكونه أكبر جداً مما رآه النظر والنفس هى التي تدرك أسباب ذلك الاختلاف وتستخرج ذلك من مباد عقلية وتحكم على تخطئة النظر حكما صحيحاً والحاكم بالشيء والمصحح له أعظم وأعلى من المحكوم عليه، اذا فالنفس أشرف من الجسد وأفضل منه وانما قلنا إن النفس تأخذ كثيراً من مبادي العلوم عن الحواس وانه بقدر مايتعطل من أجزاء الجسم يضر بقوى النفس ليتبين لك أن الجسد خادم للنفس وهى مخدومة من جميع أعضائه فينبغي تنمية تلك الاعضاء على وجه يضمن حسن نمائها وعدم تعطيل جزء منها لما أنها خادمة للنفس وهى مخدومة منها كما تقدم ولذلك سبق معنا الكلام على لزوم التربية الحسية التي يتوقف عليها تمام التربية المعنوية انتهى

﴿ البحث السابع ﴾

﴿ دوام الوفاق ، بالمحافظة على الأخلاق ﴾

لما كانت سعادة كل انسان متوقفة على قدر ما يصدر عنه من أفعال الخير والعكس بالعكس ، ولأن الخيرات الانسانية وملكاتها في النفوس كثيرة ، لايستطيع القيام بها انسان واحد ، وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة ، وهؤلاء الجماعة هم الاشخاص الذين تتألف منهم الجمعية التي تتحد في تحصيل تلك السعادة المشتركة لاستكمال كل فرد منهم بمعاونة الباقين له ، فيقوم كل واحد منهم بجزء من تلك الخيرات حتى يتم للجميع بمعاونة الجميع الكمال الانسي ، وذلك يدعو بحكم البداهة الى حسن المعاشرة التي تبعث على الوفاق الحسن والارتباط التام لتبادل الأيدي على الأعمال الخيرية ، ونبذ الشرور ، والمحافظة على الاخلاق الحميدة والآداب، التي منها الرضوخ (١) الى الأوامر الشرعية والاحكام الدينية الداعية بالحقيقة الى جميع أسباب الفضائل التي بمقتضاها ينال المرء سعادة النفس النورانية، المتوجهة الى ما فرض عليها من أفعال الخيرات الانسانية ،بدليل إنزال تلك الاوامر والأحكام من الباري تعالى ، فهي التي توقف كل إنسان عند حده ، وتعرفه من الحقوق ما كان له أو عليه ، ومتى علم كل فرد بحقه اتضح له طريق الواجب ، فأداه الى الوقوف عند الحد اللازم ، والائتلاف الباعث على المعاونة والمعاضدة ، والمثابرة على الاخلاق الحميدة لنوال السعادة السرمدية

فلا شك بعدها في أن هذا التعاون اذا استمر بين الجمعية بمحافظتها على الاخلاق والآداب دعاها الى الوفاق التام وحسن الالتئام ، وكان لها بمنزلة الحصن الذي ليس يهدم على ممر الايام، لما غرز في نفوس أفرادها من حب الائتلاف ، وحسن المعاشرة ، وبواعث الحكمة التي تنير لها سبل الفضائل ، وتخرجها من ظلمات البهيمية، الى ساحات الأنوار المدنية ، وتكون لها دليلا

«١» استعمل الرضوخ بمعنى الخضوع والاذعان وهومن لغة الجرائد لم يرد في اللغة وانما فيها رضخ له رضخا أي اعطاه قليلا اه مصححه

باستخراج مخبئات المعارف ، وحاجزاً بين تفرق وحدة الوفاق الجامعة تحت لواء العصبة والاتحاد ، وتمام المحبة الخالصة بين العموم والافراد . انتهى القسم الثاني ويليه القسم الثالث

القسم الثالث

﴿ الادبيات ﴾

البحث الثامن

﴿ فضيلة الشعر والشعراء ﴾

إعلم أن الانسان يختلف من حيث الذوق اختلافا ناشئاً عن رقة الطباع وجمودها ، والعقل ميزان الذوق ، والنطق هو الشاهد العدل على ذلك . لهذا امتاز البلغاء وأرباب الصناعة الشعرية عن غيرهم من حيث رقة الطبع وانسجام الألفاظ ، وعظموا في عيون الناس .

ألا ترى أحدهم اذا شهد ناديا من الأندية غادر الجمع ممسكين عنان الكلام عن التجول في كل موضوع ، محاسبين على ما يصدر عنهم من الالفاظ خوف السقطات ، وما ذلك الا لعلمهم بمكانه من نقد الكلام ، ومعرفته صحيحه من سقيمه ، وتمييزه لغثه من سمينه — فالشعراء أعظم الناس محافظة مراعاة للذوق في الكلام، لعلمهم أن ما يصدر عنهم ويسطر بأيديهم مخلد في صحف تواريخهم ، فهو بالحقيقة موازين عقولهم ، وما يأتون به في أشعارهم من المبالغات أدبيا لايؤاخذون عليه لما أن ذلك مما تقتضيه صناعتهم الشعرية . فان الشعر الخالي عن الاستعارات والتشبيه والتنميق ، كالعروس العاطلة من الحلي والزينة، فقد قال بعضهم : إنه لا يكذب أحد الا اجتراه الناس وقالوا : كذاب ، إلا الشاعر فانه يكذب ويستحسن كذبه ، ويحتمل ذلك له ولا يكون عيباً عليه ، ثم لايلبث أن يقال له : أحسنت ، وامرؤ القيس شاعر العرب المشهور كان من أبناء

الملوك ، وكان من أهل بيته وبني أبيه أكثر من ثلاثين ملكا ، فبادوا وباد ذكرهم وبقي ذكره الى القيامة ، وانما أبقى ذكره شعره — وبالاجمال فالشعراء قادة الكلام ، والشعر صوب العقول ، وكلام الفحول ، وبه تزين المجالس ، وتضرب الامثال ، وتعرف محاسن الاخلاق ، وما أحسن قول أبي تمام في مدح الشعر :

ولولا خلال سنها الشعر مادرى بناة المعالي كيف تبنى المكارم

وكفى بقول النبي صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة » شرفا للشعر وقد أذن صلى الله عليه وسلم لحسان بقول الشعر ، كما جاء في الحديث عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم قريظة لحسان : « أهج المشركين فان جبريل معك » . وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وينافح ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يؤيد حسان بروح القدس مانافح أو فاخر عن رسول الله » . ومما روي عن عمرو بن الشريد عن أبيه أنه قال : ردفت وراء النبي صلى الله عليه وسلم يوما فقال « هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء ؟ » قلت : نعم قال : « هيه » فأنشدته بيتا فقال « هيه » ثم أنشدته بيتا قال «هيه» حتى أنشدته مائة بيت — وعن جابر بن سمرة قال: جالست رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة ، فكان صحابه يتناشدون الشعر ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت ، وربما تبسم معهم ، أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح

ولما امتدحه صلى الله عليه وسلم عمه العباس رضي الله عنه بقوله :

وأنت لما ولدت أشرقت الار ض وضاءت بنورك الافق

فنحن في ذلك الضياء وفي النو ر وسبل الرشاد نخترق

قال له : « ياعم لكل شاعر جائزة ، وجائزتك أن تبقى الخلافة في عنقك الى يوم القيامة » (١) وواقعة كعب بن زهير لما هدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه

«١» هذا الحديث باطل وضعه دعاة العباسية وقد تبين بعدهم مخالفته للواقع اه مصححه

مشهورة ، ثم لما أتاه تائباً وامتدحه بقصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول — متيم إثرها لم يفد مكبول

عفا صلى الله عليه وسلم عنه وألقى عليه بردته الشريفة . وقد مدح وذكر كعب بهذه القصيدة المهاجرين ، ولم يمدح الانصار لغلظتهم عليه حين دخوله المسجد فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « هلا ذكرت الانصار بخير فانهم أهل لذلك » فقال يمتدحهم :

من سره كرم الحياة فلا يزل — في منقب من صالحي الانصار
المكرهين السمهري بأذرع — كسوافل الهندي غير قصار
والناظرين بأعين محمرة — كالجمر تحت كايلة الأبصار
والباذلين نفوسهم لنبيهم — يوم الهياج وقية الجبار
وهم اذا انقلبوا كأن ثيابهم — منها تضوع فأرة العطار
لا يشتكون الموت إن نزلت بهم — شهباء ذات معافر وأوار
ورثوا السيادة كابراً عن كابر — إن الكرام هم بني الأخيار

وبمناسبة إكرام النبي صلى الله عليه وسلم لكعب ابن زهير ، ومنحه له بردته الشريفة ، وعفوه عنه لما امتدحه بقصيدته المار ذكرها ، وكرم أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، قال بعض الافاضل :

جحود فضيلة الشعراء عز — وتفخيم المديح من الرشاد
محت بانت سعاد ذنوب كعب — وأعلت كعبه في كل ناد
وما افتقر النبي الى قصيد — مشببة ببين من سعاد
ولكن سن إسداء الأيادي — وكان الى المكارم خير هاد

فلا مشاحة بعدها في فضيلة الشعر والشعراء ما دام أن النبي صلى الله عليه وسلم أكرم شعراء المؤمنين ليكرموا بعده ، وأجازهم على الشعر ، وأذن لهم بقول الشعر — وقد رأيت لابي بكر الخوارزمي فصلا جامعاً في مدح الشعراء لا بأس بايراده هنا قال :

ماظنك بقوم الاقتصاد محمود الا منهم ، والكذب مذموم ومردود الافيهم ،

اذا ذموا ثلموا ، واذا مدحوا سلبوا ، واذا رضوا رفعوا الوضيع ، واذا غضبوا وضعوا الرفيع ، واذا أقروا على أنفسهم بالكبائر لم يلزمهم حد ، ولم تمتد اليهم بالعقوبة يد ، غنيهم لايصادر ، وفقيرهم لايستحقر ، وشيخهم يوقر ، وشابهم لايستصغر ، سهامهم تنفذ في الأعراض ، وشهادتهم مقبولة وان لم ينطق بها سجل ، ولم يشهد بها عدل ، وسرقتهم مغفورة وإن جاوزت ربع دينار ، وبلغت ألف قنطار ، إن باعوا المغشوش لم يرد عليهم ، وإن صادروا الصديق لم يستوحش منهم ؟ بل ما ظنك بقوم هم صيارفة أخلاق الرجال ، وسماسرة النقص والكمال؟ بل ماظنك بقوم اسمهم ناطق بالفضل ، واسم صناعتهم مشتق من العدل ؟ بل ما ظنك بقوم هم أمراء الكلام ، يقصرون طويله ، ويطولون قصيره ، يقصرون ممدوده ويخففون ثقيله ؟ ولم لا أقول : ما ظنك بقوم يتبعهم الغاوون ، وفي كل واد يهيمون ، ويقولون ما لا يفعلون اه

وقوله : لم لا أقول الخ — يعرض بذكر الآية التي أنزلت في حق شعراء الكفار وهي قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون) ولما كان البعض يتوهمون من ظاهر الآية انها بحق جميع الشعراء ، ويقيمونها حجة عليهم بالمكابرة والعناد — والحال أنها أنزلت في حق شعراء المشركين فقط . وقد استثنى الباري تعالى شعراء المؤمنين بقوله عز من قائل (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فقد أحببت أن أورد تفسير هذه الآية لتمام الفائدة ، قال في لباب التأويل في تفسير قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) : أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون النبي صلى الله عليه وسلم ، منهم عبد الله بن الزبعرى السهمي ، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبو عمرو بن عبد الله الجهمي ، وأمية بن أبي الصلت الثقفي ، تكلموا بالكذب والباطل وقالوا : نحن نقول مثل ما يقول محمد ، وقالوا الشعر ، واجتمع اليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكانوا يروون عنهم قولهم ، فذلك قوله (يتبعهم الغاوون) فهم الرواة الذين يروون هجاء المسلمين ، وقيل : الغاوون هم الشياطين ، وقيل : هم

السفهاء الضالون ، وفي رواية : إن رجلين أحدهما من الأنصار تهاجيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع كل واحد غواة من قومه وهم السفهاء ، فنزلت هذه الآية (ألم تر أنهم في كل واد) من أودية الكلام (يهيمون) يعني حائرين وعن طريق الحق حائدين ، والهائم الذاهب على وجهه لامقصد له (وانهم يقولون ما لا يفعلون) أي انهم يكذبون بشعرهم ، وقيل : انهم يمدحون الجود والكرم ويحثون عليه ولا يفعلونه ، ويذمون البخل ويصرون عليه ، ويهجون الناس بأدنى شيء صدر منهم . ثم استثنى شعراء المسلمين فقال تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) روي أن كعب بن مالك قال للنبي صلى الله عليه وسلم إن الله أنزل في الشعر ما أنزل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ماترمونهم به نضح النبل » . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر : يابن رواحه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلّ عنه ياعمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل » انتهى ملخصاً من لباب التأويل

وقد تبين مما أوردناه أن الآية أنزلت في حق شعراء المشركين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمنع شعراء المؤمنين من قول الشعر ، بل أذن لهم به وأكرمهم عليه كما سبقت الاشارة الى ذلك . إذا فلا حجة بعدها لمن يقول بكراهة الشعر وذم الشعراء ، وليس يكره الشعر الا عاجز عن روايته ، أو جاهل بصناعته . وكيف يكره الشعر وقد قاله كثير من الصحابة والتابعين ، والائمة المجتهدين ؟ كما حكي عن الشعبي أنه قال : كان أبو بكر يقول الشعر ، وكان عمر يقول الشعر ، وكان علي أشعر منهما — وروي عن ابن عباس : أنه كان ينشد الشعر ويستنشده في المسجد . وما ينسب للامام الشافعي من الشعر يشاطر ديوانا

كبيراً ، وكفى بالشعر فضيلة كونه يهذب الاخلاق ، ويحسن المنطق ، ويطلق اللسان ، ويزين الاندية ، ويضرب الامثال . وليس من كتاب الا ومملوء من الاستشهادات الشعرية ، والأقوال النظمية . وكفى الشعراء فضلا بكونهم يحثون على عمل الخيرات ، ويعلمون مكارم الأخلاق ، كالكرم والشجاعة والحلم والعدل ونحو ذلك ، وهم أمراء الكلام ، والحاكمون على الحكام ، والمزينون للأندية والمحافل ، والشعر محيي الجود ، وعنوان الفخر ، ومبقي الذكر ، وقد قيل:

أرى الشعر يحيي الجود والباس بالذي ... تبقيــه أرواح لهـا عطرات

وما المجـد لولا الشعر الا معاهد ... وما الناس الا أعظـم نخرات

ولقد كان بعض وزراء بني بويه وأمراء بني حمدان يبذلون للشاعر المئتين والثلاثمائة دينار لأجل أن يقول قصيدة ينسبونها لأنفسهم ، وما ذلك الا فخراً بالشعر ، وحبا ببقاء الذكر . فلا سبيل بعد هذا كله لانكار فضيلة الشعر والشعراء ، ولا يقول الشعر الا الذين أوتوا نصيباً من العلم والذكاء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، انتهى

البحث التاسع

﴿ النطق ترجمان العقل ، وخير الكلام ما قل ودل ﴾

النطق من حيث هو عبارة عن التكلم ، وهو التعبير عما في الضمير بسهولة. والكلام هو الصوت الخارج من الفم بكيفية مخصوصة ، والقوة التي يصدر عنها النطق تسمى الناطقية أو النفس الناطقة ، وهي منحة جليلة خص بها من الباري تعالى نوع الانسان ، ليتوصل بواسطتها الى استكمال الصفات البشرية ، ويتميز بها عن سائر الحيوان ، وهي التي تبعثه على الالفة التأنسية ، والمحبة ، وحسن المعاشرة التي تدعوه الى الاجتماع الحامل على التعاون والتعاضد في الاعمال البشرية ، فالالفة بالتأنس ، والمحبة بحسن المعاشرة ، وعلى الجميع يتوقف أمر المعاونة والمعاضدة في الهيئات الاجتماعية . فالنطق جليل القدر من حيث هو ،

الا أنه يتفاوت بتفاوت الطباع رقة وجموداً ، ويختلف باختلاف الذوق في الاشخاص ، وليس هو بجميعهم سواء ، بل رب شخص كلامه كلام ، وآخر در ونظام . ورب نطق كجمان ، ولسان كسنان ، والمرء كلما رق طبعه وحلاذوقه ، رقت ألفاظه ، وحسن نطقه . واللسان ليس هو الا ترجمان العقل ، والنطق إن هو الا دليل الجهالة أو الفضل ، وذو الفصاحة والذكاء من زايل التطويل ، الممل ، والفضول المخل ، والتزم مراعاة جانب الموضوع في الكلام ، واحترز من الخوض في المباحث العسرة المسالك ، واكتفى ببث مالديه ، وحافظ على مراعاة الذوق بما يصدرعنه من الألفاظ ، واحترز من سقطات اللسان وعثراته ولو بأدنى لفظة توجب لومه وتجر العتب اليه ، فرب كلمة سلبت نعمة ، ورب لفظة أوجبت نقمة ، ورب بلاء جره اللسان ، وما أحسن قول بعضهم مضمناً :

إحفظ لسانك أن تقول فتبتلى إن البلاء موكل بالمنطق

فالمرء لايعرف قدرعقله الا بنطقه ، والعاقل من اذا تكلم أفصح وأوجز ، واذا نطق أقل من الكلام ، وأعرب عن حقيقة المرام ، ليكون لكلامه من البلاغة وحسن الوقع نصيب لدى الأفهام ، فان البلاغة أن يؤتي بالمعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، وخير الكلام ما قل ودل ، كما في قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) الآية . فمع ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة من الايجاز والبلاغة والفصاحة ، فقدينطوي تحتها من المعاني الدقيقة ما يشاطر تأليفاً مخصوصا . وكقوله تعالى (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وكقوله تعالى وهي أبلغ آية وردت في القرآن (فاصدع بما تؤمر) واذا أردنا إيراد ما يناسب هذا الموضوع من الآيات القرآنية لضاق بنا المقام ، وكيف وكلام الله كله معجزة قد أفحمت البلغاء ، وحيرت عقول الأذكياء

واذا تتبعنا أقوال النبي صلى الله عليه وسلم نجدها أيضاً في أعلى طبقات البلاغة ، وأسمى درجات الفصاحة والبراعة ، نحو قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » ونحوقوله صلى الله عليه وسلم « دع مايريبك الى مالا يريبك » وقوله صلي الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه »

فهذه الأحاديث الشريفة مع ماهي عليه من قلة الألفاظ وانسجام العبارة مملوءة من المعاني الدقيقة ، والحكم المفيدة الأنيقة . ومما هو من البلاغة والفصاحة في مقام عظيم قوله صلى الله عليه وسلم « حبك الشيء يعمي ويصم » ولم يقل عليه الصلاة السلام يعميك ويصمك، فانظر الى سلاسة هذه الألفاظ مع سلامة التعبير والفصاحة التي ليس لها نظير ، هذا فضلا عما اشتملت عليه من المعاني الدقيقة التي هي تبصرة لكل عاقل حكيم ، ولا جرم فانها صادرة عن أفصح العرب والعجم، صلى الله عليه وسلم ، وشرف قدره وعظم

هذا ولما كان الناس يختلفون من حيث الفصاحة اختلافا بيناً ، ويتفاوتون بسلامة التعبير بتفاوت الطباع والاذواق ، إذ رب شخص يعبر عما في ضميره بجملة مختصرة فيفيد ، وآخر لايفهم غاية مرامه بالشرح الطويل العريض

نرى أن البلغاء والقراء وأرباب الفصاحة العربية أقدر الناس على التعبيرعن المقصود بالالفاظ المختصرة الرشيقة ، والمعاني الجامعة الدقيقة ، كما فعل امرؤ القيس باستهلال قصيدته المشهورة حيث قال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فقد وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل في طالعة شعره ، لذلك عد بعضهم هذا البيت من أبلغ ماقالته العرب لاشتماله على كثرة المعاني

وأنا أيضاً أقول : انه من البلاغة في مكان ، وليس من ينكر ذلك، الا أن وقوع البلاغة فيه من حيث المعنى المقصود ، أعني الذي قصده امرؤ القيس لا البلاغة من حيث هي بلاغة ، على أنه وان تكن البلاغة هي استيفاء المعنى المقصود بالكلام الوجيز ، انما البلاغة من حيث هي ، والكلام البليغ على ما أراه وأفضله ، والذي هو الأجدر بأن تستلذه الارواح ، ما يكون مع قلته مشتملا على معان أو معنى يؤثر عند تلاوته في النفوس ، وترقص طربا له الاسماع ، وذلك بأن يأتي في الجملة أو البيت بنكتة مبهجة ، أو موعظة مؤثرة ، أو حكمة مفيدة، ليكون مع ما اشتمل عليه من الفصاحة حاويا على معنى مؤثر في النفس ، مفيد للمتأمل ، كما فعل السموأل في مطلع قصيدته التي هي كلها درر حيث قال :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

فلعمري إن كلاما مثل هذا لجدير بأن يعد من البلاغة لما جمع به من المعاني الدقيقة ، والالفاظ الرشيقة ، فقد نبه به على أن كل مايصدر عن المرء بعد سلامة العرض من اللؤم فهو جميل ، ولا ريب فان من سلم عرضه من اللؤم فقد تمت فيه صفات الكمال ، كالشرف والمروءة ، ومن تمت مروءته فقد حاز الكرم والشجاعة والعفة الذين هم(؟) من مكارم الاخلاق — ولما سئل عمرو بن العاص عن المروءة ؟ قال : هي ترك اللذة ، فقيل له : وما اللذة ؟ قال : ترك المروءة ، ولا يخفى أن ترك اللذة من العفة ، والعفة من الفضائل ، واللذة التي هي ترك المروءة من الرذائل ، وعن العفة تنشأ المروءة ، ومن تمت مروءته فلا شك بسلامته من اللؤم وصيانة عرضه ، وعدم تدنسه بالرذائل ، لما أنه لاتصدر عنه الا الافعال الجميلة لا الرذيلة . فانظر الى هذا البيت المشتمل على بيان مكارم الاخلاق ، والمملوء من الحكم مع قلة الالفاظ وانسجامها ، فهذا هو السحر الحلال ، الذي يلعب بعقول الرجال ، ومثله قول المتنبي :

يهون علينا أن تصاب جسومنا ... وتسلم أعراض لنا وعقول

ومن الكلام الجامع على أشتات المعاني قول المتنبي أيضاً :

واذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الاجسام

وكقوله أيضاً

ذل من يغبط الذليل بعيش ... رب عيش أخف منه الحمام

وهو مملوء من الحكم والمواعظ ، إذ قد بين فيه أن أذل من الذليل من يغبط الذليل بحياته التي هي كالعدم ، لأن الذليل بلا ريب هو متبع شهوات النفس وخطواتها ، فهذا وجوده عدم ، وموته أخف عليه من الحياة الذليلة ، فلا يغبطه عليها الا الذليل ، فكأنه يقول : إياك وأن تكون ذليلا للنفس مذلولا بها فتصبح مرذولا بين الناس ممقوتاً منهم ، وبذلك تكون حياتك عدم وموتك أخف عليك

فانظر الى هذا الكلام الجامع لهذه الحكم ، ما أحسن وقعه لدى النفوس ، وأطربه للاسماع ، وهو حري بأن يعد من البلاغة من حيث هي بلاغة . وأما

البلاغة من حيث المعنى المقصود ، كما في بيت امرىء القيس ، فهي التعبير عن المقصود سواء كان بالخطب أو الاشعار ، أو الكتابات بالالفاظ المختصرة الرشيقة ، والمعاني الجامعة . واذا احتمل أن موضوع الخطبة أو الكتابة غير قابل لايراد العبارات الحكمية ، والمعاني البعيدة ، ولم يأت الكاتب بها لا يقال إنه غير بليغ ، إذ هذه أمور تختص بالبلاغة من حيث هي بلاغة ، أعني ما تكون عن مجرد الفكر والبديهة ، بدون قصد لمعنى مخصوص . والكاتب القاصد لمعنى مخصوص اذا التزم تتبع الدقة بايراد الالفاظ المناسبة للموضوع مع كمال الاختصار الجامع للمعاني المطلوبة يكون قد راعى جانب الموضوع في الكلام ، وأتى بالبلاغة من حيث المعنى المقصود . ومن ذلك ما كتبه الملك الظاهر بيبرس الى الشريف أبي يمن محمد بن سعيد ، وقد صدرت عنه أفعال أوجبت ذلك

« أما بعد فان الحسنة في نفسها حسنة ، وهي من بيت النبوة أحسن ، والسيئة في نفسها سيئة ، وهي من بيت النبوة أقبح ، وقد بلغنا عنك أيها السيد أنك أبدلت حرم الله بعد الأمن بالخيفة ، وفعلت مايحمر الوجه وتسود به الصحيفة ، ومن القبيح كيف تفعلون القبيح وجدكم الحسن ، ولا تقانلون حيث تكون الفتن ، هذا وأنت من أهل الكرم ، وسكان الحرم ، فكيف آويت المجرم وسفكت دم المحرم ؟ (ومن يهن الله فما له من مكرم) فاما أن تقف عند حدك ، والا أغمدنا فيك سيف جدك ، والسلام »

فلقد اشتمل هذا الكتاب على غاية البلاغة والفصاحة ، لاصابته المعنى المقصود بهذا الكلام الوجيز ، الذي هو أثمن من الدر النظيم ، وأرق من ماء التسنيم — وما أجابه به الشريف هو :

« أما بعد فان العبد معترف بذنبه ، تائب الى ربه ، فان تأخذ فأنت الاقوى وإن تعف فأقرب للتقوى ، والسلام »

ومن تأمل في هذا الجواب ، وما اشتمل عليه من لذيذ الخطاب ، شهد لصاحبه بسلامة الذوق ، وفصاحة اللسان ، وان كلامه من البلاغة في أسمى مكان فقد اعترف واستعطف ، وتاب عما جنى واقترف ، وألزم على نفسه التأديب ،

وأقر عليها بالعجز ، والتمس العفو بوجه لايمكن الا اتباعه، بأقل من سطرين ، فهذه لعمري من البلاغة العربيــة ، والألفاظ الدرية . وما الفائدة من التطويل والاسهاب ، وقد يورثان الملل ، وربما أدخلا على العبارة الخلل ، وضـيعا موقع الفصاحة من الكلام ، والايجاز اذا وفى بالمعنى المقصود فهو أعجب لدى الافهام، وأقرب للفصاحة التي هي جوهر اللسان وزينة الانسان

ومن المنقول المستجاد في الفصاحة ما حكي عن الاصـمعي أنه قال : كنت أدور في قبائل العرب ، وأرد مناهلها ، وأطلب غريب الكلام وفصيح المنطق، فسرت ذات يوم وعدلت عن الطريق ، فلقيت صـبيا فاسترشـدته لدار أوس فقال : يمينك يمينك ، فاذا ازور طريقك فاذا أنت بباب مسجد منقش بالعقيق الاحمر، فهناك دار أوس قال : فسرت فاذا أنا بصبيين يختصمان ، فلما نظرا إلي عدلا نحوي فقال أحدهما : ياعم احكم بيننا فقلت: بماذا ؟ قال: كنت أنا وأخي هـذا نلعب وبيننا كرة فضرب وضربت فتعلو محاجيننا فترادف دوني وونى فوقع لظهره ووقعت في زروته ، فهـل ترى لي ياعم ذنباً ؟ فقلت : لو كان لك ذنب كذنب إبليس لغفره الله لك على فصاحة لسانك

وحكي عنه أيضاً أنه قال : رأيت امرأة من العرب تطوف حول البيت وهي تنشد هذه الابيات

أستـغفر الله لذنبي كله قبلت إنساناً لغير حـله
لحسن عينيه وحسن دله شبه غزال كانس في ظله
وانتصف الليل فلم أصله والخمر مفتاح لهذا كله

فقلت لها: لله درك ، ما أفصح لسانك ، فقالت : اليك عني يابطال ، الفصاحة في كتاب الله عز وجل ، لقد سمعت منه آية واحدة جمعت بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين ، وهي قوله تعالى (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ، ولا تحزني إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين)

أقول : وما قالت المرأة الا حقا ، إذ ليس بعد فصاحة كتاب الله فصاحة

ولا بلاغة ، وكيف وهو معجزة قد حيرت الالباب ، وأعجزت الفصحاء والبلغاء عن الاتيان بآية من مثله (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)

﴿ البحث العاشر ﴾

﴿ مستحسنات الشعر ﴾

اعلم أن الشعراء يختلفون من حيث البراعة الشعرية اختلافا ناشئاً عن قدر سلامة الذوق وغزارة العقل والادراك للمعاني المستحسنة. والناس قد ذهبوا في مستحسنات الشعر مذاهب شتى فمنهم يستحسن أشعار العرب قبل الاسلام لاشتمالها على الكلام الفحل والمعاني العويصة، ومنهم من يستحسن شعر المتأخرين لاشتماله على الالفاظ الرشيقة والمعاني البديعة الخالية عن التعقيد ومنهم من يستحسن شعر المولدين ، ومنهم من يستحسن الغزل مطلقا ومنهم من يستحسن الحماسة أو الحكميات مطلقا أو غير ذلك وكل يرجح مذهبه على الآخر * وللناس فيما يعشقون مذاهب * وإن ماأراه يستحسن في الشعر لدى كل ذي ذوق سليم سواء كان من كلام المتقدمين أو المتأخرين هو كل ماشتمل على الالفاظ الرقيقة والمعاني الجامعة والحكم والامثال المفيدة والكلام الفحل الخالي عن التعقيد، فان ذلك أقرب لطرب الاسماع وأحسن موقعاً لدى النفوس، لما له من التأثير الحسن في النفس، وذلك سواء كان في المديح أو الحماسة، وذكر الفخر والرياسة وغيره وأما الغزل فانه وان يكن غالبا رقيق العبارة منسجم الالفاظ الا انه على ما أرى ليس له في النفوس الا قليل تأثير ، وليس له عظيم رغبة بين العقلاء والفضلاء ، اللهم الا ان كان ممزوجا بنوع من الحكم أو الحماسة وغيرها كما في قصيدة أبي فراس الحمداني المشهورة في الحماسة التي يقول : في مطلعها ،

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر   أما للهوى نهي عليك ولا أمر

وسيأتي ذكرها أو كما في قول عنترة العبسي

أحبك ياظلوم وأنت مني مكان الروح من جسد الجبان
ولو أني أقول مكان روحي خشيت عليك بادرة الطعان

فانظر كيف مزج الغزل بالحماسة على هذا الاسلوب العجيب؟ ثم إن ماينسب لبعض الافاضل من الاشعار الغزلية فانما صدورها منهم من قبيل التفكه والتنقل وحب الاكثار من فنون الشعر لذلك نرى أن أغلب العلماء والافاضل البلغاء لا يستشهدون في مؤلفاتهم وأقوالهم ومحاوراتهم الا بالابيات الحكميات المشتملة على المعاني الجامعة والامثال المفيدة لمناسبتها لكل موضوع، ونرى أن الاذكياء وأرباب العقول لايميلون الى الغزل كما يميلون الى سواه، ولا يطربون منه كما يطربون من الشعر الفحل، ولا يقول الشعر الفحل الا كل شاعر فحل، كما أن شعراء الغزل ليسوا من حيث الشهرة كغيرهم، فأين شهرة ابن العفيف من شهرة أبي تمام؟ واين شهرة الحاجري من شهرة ابي الطيب المتنبي الذي تداولت ديوانه أيدي الشراح وتباهت به خزائن الكتب واستشهد بأقواله المؤلفون والعلماء ؟ بل اين قول ابن معتوق في مطلع قصيدة يمدح بها السيد علي خان

ضحكت فبان لنا عقود جمان فجلت لنا فلق الصباح الثاني

من قول المتنبي في مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة ابن حمدان عند منصرفه من بلاد الروم

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأي قبل تطاعن الاقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى الى شرف من الانسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت أيدي الكماة عوالي المران

واين وصف الخد بالحمرة والجبين بالنضرة والثغر بالدر والوجه بالبدر من قول بعضهم في المديح

فبشرت آمالي بملك هو الورى ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

وقول النابغة في المديح أيضاً

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وقول المتنبي في المديح أيضاً

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى ... يرجى الحيا منها وتخشى الصواعق

وقول أبي العلاء المعري في ممدوحه عبد الله التنوخي

رأوك بالعين فاستغوتهم ظنن ... ولم يروك بفكر صادق الخبر

والنجم تستصغر الابصار صورته ... والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

وقوله في المديح أيضاً من قصيدة

ألفت الحرب حتى قال قوم ... أما لصلاح بينكما فساد

يموت الدرع دونك حتف أنف ... ويبلى فوق عاتقك النجاد

وقوله منها أيضا

توري عنك ألسنة الليالي ... كانك في ضمائرها اعتقاد

فأن يكن الزمان يريد معنى ... فانك ذلك المعنى المراد

وقول المتنبي وهما من حكمياته

بذا قضت الايام مابين أهلها ... مصائب قوم عند قوم فوائد

وكل يرى طرق الشجاعة والندى ... ولكن طبع النفس للنفس قائد

وقوله أيضاً

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندى

وقوله أيضاً

اذا كان طرف القلب ليس بمطرق ... فاطراق طرف العين ليس بنافع

وقوله أيضاً

كل حلم أتي بغير اقتدار ... حجة تلتجي اليها اللئام

وقوله في الحماسة

عش عزيزاً أومت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود

فرؤوس الرماح أذهب للغيـ ... ـظ واشفي لغل صدر الحقود

لا كما عشت عشت غير حميد   وإذا مت مت غير فقيد

وقول أبي فراس الحمداني من قصيدته المشهورة بالحماسة وأسلوبي الفخر والرياسة وقد مر مطلعها

وقال أصيحابي:الفرار أو الردى   فقلت هما أمران خيرهما شر
ولكنني أمضي لئلا يعيبني   وحسبك من أمرين خيرهما الاسر
يقولون لي بعت السلامة بالردى   فقلت أما والله ما نالني خسر
وهل يتجافى عني الموت ساعة   اذا ما تجافى عني الاسر والضر
هو الموت فاختر ما حلا لك ذكره   فليس يموت المرء ما حيي الذكر
ولا خير في دفع الردى بمذلة   كما ردها يوما بسوءته عمرو

وقوله منها

ستذكرني قومي اذا جد جدهم   وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وقوله منها

ونحن أناس لاتوسط بيننا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا بالمعالي نفوسنا   ومن يطلب الحسنا فما يغله المهر

وقول المرحوم والدي بل الله ثراه في مطالع قصيدة وهى من نوع الحماسة الممزوجة بالغزل كقصيدة أبي فراس

عديني وامطلي مهما تشائي   ففي التعليل تعليل لدائي
وتسويف الملاح وان تمادى   على العاني ألذ من الوفاء

وقوله منها

فلم أترك لقاها عن ملال   ولا عن علة تركت لقائي
ولكنا نرى للعز أهلا   وأهلا للمذلة والشقاء
رويدك أين تبلغ من لحاقي   أمامك أيها العادي ورائي

وقوله منها

ظمئت وما شربت الماء حرفا   ولا ادليت دلوي في الدلاء
أأشرب والزلال يخاض فيه   ومن نهر المجرة كان مائي

ولما ان سموت على الثريا أنفت بأن أسير على الثراء
فما رتب العلا الا حظوظ مقسمة على أهل الولاء
وحسبك فاقتنع بالبعض منها ولا تلقي بنفسك للبلاء

وقوله أيضاً من قصيدة أخرى من هذا القبيل

روحي فداك وان أردت لي الردى يامن على تلف المحب تعودا
أما هواك فمثل ماعاهدته في كل يوم لايزال مجددا

وقوله منها

رفقا بمن يرثي العدو لحاله ياويح من ترثى لحالته العدا
ما كنت أعلم قبل بينك ما الهوى والآن قد ختم الفؤاد وجردا
فيما أبحت دمي وكنت منادمي بالله قل لي ما عدا مما بدا
فلعلني فيك اقترفت جناية أو لا فلم تجفو جعلت لك الفدا!
لو كان وصلك لي ينال بعزمة لتركت هذا الكون يمطره الردى
وجلبت نحوك فوق كل طمرة من كل شهم للطعان تعودا
شيخ تراه بالغبار ملثما فتظنه مما تلثم أمردا

وقوله منها

يمشي الى الحرب العوان كأنه يمشي الى الماء الزلال من الصدا
متبادر نحو الصريخ وانه يصغي فيطرب عند مرتفع الندا

وقوله منها

لو خانه الرمح الاصم وسيفه لوقاه ساعده الكريم من الردى
أو شاء نظم الشهب في أذياله جعل الدلاص من النجوم مسرداً
أو شاء تمزيق الدجى لاتاه من فلق الضحى سيفا تراه مجردا
أو رام من نهر المجرة مورداً لجواده لدنا اليه فأوردا

وقول السموأل بن عادياء وهى من أحسن ماقالته العرب من القصائد الحماسية المملوءة من البلاغة

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وان هو لم يحمل عن النفس ضيمها — فليس الى حسن الثناء سبيل
تعيرنا انا قليل عديدنا — فقلت لها إن الكرام قليل
وقد ماقل من كانت بقاياه مثلنا — شباب تسامى للعلا وكهول
وما ضرنا انا قليل وجارنا — عزيز وجار الاكثرين ذليل
لنا جبل يحتله من نجيره — منيعاً يرد الطرف وهو كليل
رسى أصله تحت الثرى وسما به — الى النجم فرع لاينال طويل
هو الابلق الفرد الذي سار ذكره — يعز على من ناله ويطول
يقرب حب الموت آجالنا لنا — وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه — ولا ظل منا حيث مات قتيل
تسيل على حد السيوف نفوسنا — وليس على غير السيوف تسيل
صفونا ولم نكدر وأخلص سرنا — أناث أطابت حملنا وفحول
علونا الى خير الظهور وحطنا — زمان الى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن مافي نصابنا — كهام ولا فينا يعد بخيل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم — ولا ينكرون القول حين نقول
اذا مات منا سيد قام سيد — قؤل لما قال الكرام فعول
ولا خمدت نار لنا دون طارق — ولا زمنا في النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة في عدونا — لها غرر معلومة وحجول
ولا عيب فينا غير أن سيوفنا — بها من قراع الدارعين فلول
معودة أن لاتسل ظباتها — وتغمد حتى يستباح قتيل
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم — فليس سواء عالم وجهول

فأين هذه الاقوال المفيدة والشعر الجامع على المعاني الدقيقة التي تؤثر عند تلاوتها في النفوس من الغزليات التي ماخرجت عن كونها في وصف المنزل والحبيب وحمرة خده ونضرة جبينه كما تقدم؟ فلعمري إن بينهما بوناً بعيداً من حيث الافادة والاستفادة وأما من حيث رقة الالفاظ وانسجامها فهي في الغزليات أحسن من غيرها لذلك لم يخل عنها ديوان من الشعر، والمتأخرون من الشعراء قد بالغوا في

تصدير قصائد المديح وغيرها بالغزل والتشبيب لرقة ألفاظه وقابليته لايراد العبارات الرشيقة وكونه يحرك النفس ويهيج القريحة للمبالغة في الوصف، وذلك حسن الا انه قد يكون أحيانا في غير محله، وقد تكون أبيات الغزل أكثر من أبيات المديح وهذا غير موافق لذوق الشعراء الفحول، ألا ترى أن المتنبي مع غزارة فهمه قليلا مايصدر قصائده بالغزل وان فعل فلا يكثر منه ويبالغ فيه، وهذا هو الاحفظ لمقام المديح والممدوح والسبب الباعث على كون أغلب شعراء المتأخرين يكثرون في أشعارهم من الغزليات هو تعذر حفظ اللغة التي يسهل بسببها استنباط المعاني الجامعة ولما كانت الغزليات سهلة التناول لاتحتاج الى عويص المعاني والالفاظ كانوا هم أرغب فيها من العرب العرباء الذين كانوا مطبوعين على اللغة العربية المحضة ومن المتقدمين في الصدر الاول فالثاني من الاسلام لقرب عهدهم باللغة التي تسهل سبك المعاني المبتكرة باللفظ الفحل لذلك كان الشعراء المتأخرون أغلبهم مقبل على الغزل والتشبيب، ووصف المنزل والحبيب، بالالفاظ المنسجمة الخالية عن المعاني العويصة والفوائد الحكمية، على انه للسبب الذي ذكرته قد يكفي أحدهم الاتيان في القصيدة بالمعاني المبتكرة في بيت أو بيتين أو أكثر وذلك على مقتضى براعة الناظم وذكائه ودركه للمعاني الجيلة لأن الشعراء يختلفون من حيث البراعة باختلاف العقول والاذواق، كما أنهم يتفاوتون بتفاوت الطباع، فأن منهم من يميل طبعه لرقائق الكلام، ومنهم من يميل للمعاني العويصة والاقوال الحكمية وغير ذلك من فنون الشعر، وكل يستحسن ما يستحسنه طبعه ويسهل عليه نظمه

وبالجملة فأن الشعر الذي يحتوي على معنى مؤثر في النفس خير من سواه وحري بأن يعد من الشعر المستحسن والا فما الفائدة من الالفاظ المنسجمة المركبة الموزونة اذا لم يكن تحتها معان مفيدة للمتأمل مطربة للاسماع كالمستحسنات الشعرية التي آثرت ايرادها في هذا البحث والتي هي جديرة بأن تعد من الشعر وقائلوها من فطاحل الشعراء فأن من تأمل فيها شهد لقائليها بالبراعة واتضح لديه الفرق بينها وبين ماسواها من الاشعار الحرية بأن تعد من الالفاظ المركبة المنظومة لا من الشعر المفيد، الا انها تستحسن من وجه واحد وهو انسجام ألفاظها كما تقدم وللناس فيما يعشقون مذاهب. انتهى القسم الثالث

القسم الرابع

﴿ مباحث علمية مختلفة ﴾

البحث الحادي عشر

﴿ العلم بالمال والمال بالعلم ﴾

اعلم انه ربما يتوهم من أول وهلة أن قولنا العلم بالمال يستفاد منه أن للمال فضيلة عظيمة تجعله أن يكون سببا للعلم في الوقت الذي كثيراً مايرى فيه من الاغنياء أناس لايعرفون الهر من البر، وهو مذموم في جملة مواضع من القرآن لما ينشأ عن غوائله من دواعي الغرور، وارتكاب الشرور، فلكي ندفع عنك الالتباس ينبغي أن نبين لك أن المال مذموم من وجه ومحمود من آخر، مذموم من حيث هو شر، ومحمود من حيث هو خير، فأما كونه مذموما، فلأن كثرته تفتن الانسان وتشغله بدنياه عن عاقبة أخراه، وربما دعت الى البخل حتى يضن به المرء على نفسه، ويكون والعياذ بالله من المحرومين المغرورين، ويترك ماله كله ويحاسب عليه كله أو يبعث على البذخ والتبذير، الذي يدعو الى جلبه من أوجه الظلم، وصرفه على الفحش والفجور، وهذا أيضاً ممايؤدي بصاحبه الى سوء المصير

وأما كونه محموداً من حيث هو خير، فهو غرضنا المقصود، لأنه غير خاف احتياجات البشر اليه في ضروريات المعيشة التي يتوقف عليها قوام نوع الانسان، كالمطاعم، والملابس، التي هي من ضرورة حفظ البدن، الذي هو ضرورة كمال النفس، اذ أن البدن خادم للنفس بواسطة الحواس والاعضاء، والمال خادم للبدن، فاذا لم يجد الانسان من المال مايقوم بضرورة البدن، لايتم له كمال النفس وتزينها بالخلق والعلم

فاذا علمت ذلك فقد اتضح لديك ما للمال من القدر والمنفعة، هذا بالاضافة الى المقصد الخير الذي به يكون خيراً. والباري سبحانه وتعالى قد سمى المال خيراً في مواضع من القرآن فقال عز من قائل (كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان

ترك خيراً) الآية وقال تعالى (وانه لحب الخير لشديد) وقال رسول الله صلى الله وسلم ثناء على المال « كاد الفقران يكون كفراً » فان الفقير قد يشغله فقره عن تزكية النفس ورياضتها ، لانهماكه في تحصيل أسباب المعيشة الضرورية ، واهتمامه بأمر عياله ، مع قلة المال لايمكناه من شراء الكتب ، وتضييع زمن كثير بمطالعة العلوم ، واكتساب أسباب الفضائل ، لما يتحمله من أجلهم ، من الكد والتعب ، الذي يذهب به الى طرق الحيرة ، ويذهب عنه راحة البال . وقد قيل شعراً

اذا قل مال المرء قل بهاؤه وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لايدري وان كان حازما اقدامه خير له أم وراؤه

واذ قد تبين لديك بما ترضاه أن العلم بالمال الذي هو خير بالاضافة الى المقصد الخير ، فلا بد أيضاً من بيان كون المال بالعلم وإيضاح ذلك بعد ما برهنا على أن العلم بالمال فنقول

لما كانت مقاصد أصناف الانسان مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين الا بانتظام الدنيا لأنها ذريعة للآخرة ووسيلة يتوصل بها الى الله تعالى — فلابد لذلك الانتظام من سبب يتوصل به اليه الا وهو العلم باعتبار قسمه الى قسمين ، ديني ونيوي ، فأما العلم الدينى ، فسعادته غنية عن البرهان ، وليس من غرضنا شرحها الآن ، وأما الدنيوي المتعلق بحاجات الانسان الضرورية ، والذى به يتم انتظام الدنيا ، وتشترك فيه أصناف الامم ، فهو ينقسم باعتبار أصوله الى أربعة أقسام ، القسم الاول : الزراعة وهي للمطعم ، والقسم الثاني : الحياكة وهي للملبس ، والقسم الثالث : البناء وهو للمسكن . والقسم الرابع : السياسة وهي للتأليف والاجتماع ، وما يتفرع عن هذه الاقسام ، ويكون متمما لها فهو كالحدادة على اختلاف آلاتها ، فانها تخدم الزراعة وعدة من الصناعات ، والطحن للحنطة والعجن مثلا ، فانه متم للزراعة ، والحلاجة ، والغزل ، ومايتبع ذلك ، فانه يخدم الحياكة بأنواعها ، والقصارة والصقل متمم للحياكة ، والحدادة أيضاً فانها تخدم البناء ، والهندسة مثلا متممة له . وأما السياسة : فهي أس الجميع لأن بها يحصل التأليف الباعث على التعاون والتعاضد على أسباب المعيشة وضبطها ، وهي

تنقسم الى أربعة أقسام لا محل لذكرها هنا

ولا يخفى أن هـذه الأصول أي أصول الزراعة والحياكة والبناء مع متفرعاتها ، وما يتبعهـا ، مرتبطة ببعضها البعض ، بحيث لو تعطل أو فقد شيء منها لترتب عليه فقدان الآخر ، وبتمام الجميع يتم أمر انتظام الدنيا ، وتقـدم الشعوب بالغنى ، لتوفر أسباب الثروة بتوفر هذه العلوم لديها ، وما يشاهد من الفقر وقلة المال في بعض الاقطار ، فمنشؤه عدم تمام تلك العلوم في ذلك القطر ، أو وجود أصولها ، والاحتياج الى متماتهـا من أقطار أخرى ، وذلك كالزراعة مثلا ، اذا وجدت بقطر ، مع فقدان الآلات التي هي متمة لحال الزراعة ، واحتيج لجلبها من قطر آخر ، أو أن علم الزراعة نفسه لم يتقدم في ذلك القطر ، وكالحياكة مثلا اذا لم تتوفر آلاتها مع توفر الاقطان في القطر ، ويحتاج الامر لتحول تلك الاقطان الى قطر آخر لاجل حياكتها ، فهذا كله مما يسبب الفقر وقلة المال ، وأما اذا توفرت في القطر هذه الأصول ، مع متماتها وما يتبعها ، فلا مشاحة في انه يزداد فيه المال لتوفر الأسباب الباعثة على التقدم والثروة ، ويتضح مما تقرر لديك في هاتين الجملتين المختصرتين ، أن العلم بالمال باعتبار العموم ، والمال بالعلم باعتبار الافراد ، والله الرازق من يشاء ، والهادي لمن يشاء ، انتهى

البحث الثاني عشر

﴿ نتائج المنافسة والحسد ، وما بينهما من الأمد ﴾

اعلم أن المنافسة نوع من الحسد ، وهي في اللغة مشتقة من النفاسة ، وقد يقال للحسد منافسة ، وللمنافسة حسد ، غير أن بينهما بونا بعيـدا ، فان الحسد من المحظورات ، والمنافسة من المباحات ، ومما يستدل به على كونها من المباحات قوله تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) فأما الحسد وكونه من المحظورات ، فلأنه ناشىء عن كراهة النعمة ، وحب زوالها عن المنعم عليه ، وهذا من نتائج الحقد الذي هو من نتائج الغضب ، وهو مذموم في أي الحالات لما ينشأ عنه

من البغض الذي يكون سبباً للنفرة وعدم الاتحاد ، وعلة لانحلال رابطة الحب بين العموم والأفراد ، فأما بين الافراد فلارتفاع الثقة وعدم ركون بعضهم الى بعض ، وأما بين العموم فلتولد الضغائن التي كثيراً ما كانت سبباً لتلاشي أمم شتى ، وباعثاً على إراقة الدماء ، والمنازعات ، وإشهار الحروب التي هي من أعظم البواعث على هلاك نوع الانسان ، وخراب البلدان

ومما يؤيد ما قلناه ، وان الحسد من دواعي تفريق الوحدة الجامعة ، والبغضاء التي تحل عرى الوفاق ، وتسبب حب الانتقام وعدم الأخاء ، ماجاء في الحديث في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته ، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم « لاتحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً » وقال عليه الصلاة والسلام « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » وقال أعرابي : مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه. وبالاجمال فالحسد شؤم على صاحبه ، وخيم في عواقبه ، وهو محظور قطعاً

وأما المنافسة فانها ليست من المحظورات ، بل هي من المباحات ، وأصلها أن يغبط المرء غيره في نعمة يصيبها ويشتهي لنفسه مثلها ، طالما لا يحب زوالها عنه ، ولم يكره دوامها له ، وهي تنقسم الى ثلاث مراتب ، واجبة ، ومندوب اليها ، ومباحة

فأما الواجبة فهي : المنافسة في نعمة دينية واجبة ، كالصلاة والصيام ، فالذي ينافس في تلك النعمة ، ويحب أن يكون له مثلها ، يكون قد أحب الواجب والا فاذا لم يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية ، وهذا حرام

وأما المنافسة المندوب اليها ، فهي المنافسة في نعمة الفضائل ، كانفاق الاموال في المكارم والصدقات ، فالمنافسة في تلك النعمة مندوب اليها لما أنها من مكارم الأخلاق التي بها نوال السعادة السرمدية

وأما المنافسة المباحة فهي المنافسة في نعمة يكون التنعم فيها على وجه مباح ، وكل ذلك يرجع الى حب المساواة واللحوق في النعمة ، وليس فيه كراهة النعمة ، وكل فرد يحب عدم تخلف نفسه ، ويحب مساواته لذويه ، ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات ، كما ذكره في الاحياء حجة الاسلام

الامام الغزالي رضي الله تعالى عنه

وإذ قد أوضحنا لك ذلك ينبغي أن تعلم أن للمنافسة نتائج حسنة، اللهم في المباحات كما تقدم، إذ أن صاحب المنافسة كثيراً ما يكون سبباً لتقدم الامم والأفراد، سواء كان بالعلوم والمعارف، أو الفنون والصنائع

ألا ترى أن الامة التي تكون توفرت لديها أسباب المدنية، ومعدات الحالة الحضرية، اذا جاورت أمة غير متمدنة تكون سبباً لانتباه هذه الى حب المنافسة التي تبعثها على الجد في تحصيل الاسباب التي تخولها الارتقاء في معارج المدنية، والتوصل الى ما وصلت اليه جارتها، لأجل حصول التناسب والموازنة معها، وذلك لأشياء منها الحذر من رجحانها عليها من حيث القوة والسلطان، واستيلائها على ممالكها بحسن الادارة والعرفان

ومنها الخوف من تقدم الفنون والصنائع في تلك وتأخرها في هذي، لما ينشأ عن ذلك من المضار العائدة عليها بالوبال. إذ من المقرر أن الامة التي تتوفر لديها أسباب المعارف والفنون تستنضح جميع ما تدره البلاد التي يكون أهلها مقصرين في تحصيل تلك الأسباب، وهذا مما يؤول الى عدمها وانحطاط شأنها كما أوردنا ذلك غير مرة في هذا الكتاب، وهكذا حال التنافس حتى في الممالك الكبيرة، والبلاد القريبة بعضها من بعض، ولو كانت تحت حكم واحد كما أنه بأفراد الناس أيضاً، فانا كثيراً ما نرى منهم من يجد في كسب فضيلة وطلب علم ونحو ذلك منافسة لغيره، ورغبة بمماثلة الاقران، ومن هذا القبيل ما نقل عن بشار بن برد أنه قال: ما زلت أحسد امرأ القيس على قوله في وصف العقاب

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العناب والحشف البالي

حتى قلت في وصف الحرب:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فحبه المنافسة أداه الى أن أجهد رويته باختراع بيت من الشعر يماثل به بيت امرىء القيس لما له من حسن الموقع في فن البديع. وقس على هذا نتائج المنافسة التي تؤدي الى النفع، ليس كنتائج الحسد الذي يؤدي الى الضرر، وهو مذموم

في كل الوجوه ، نسأل الله أن يقينا شر الحسد وآفاته ، ويرشدنا للتنافس في الاشياء التي توجب لمرضاته، آمين انتهى

البحث الثالث عشر

﴿ نهاية قوم ، بداية آخرين ﴾

وهو مبحث لطيف فيه إشارة الى أن نهاية علوم الأقدمين ، بدايتها في عرب الاسلام ، وذلك أن العلوم ، وأخصها الحكم والرياضيات كان لها عند اليونانيين ثم الرومانيين مقام عظيم حتى نبغ فيها من العلماء كأرسطو وأفلاطون وفيثاغورس ونحوهم مما رسمت آثار فضلهم على جبهة الزمان ، وخلد ذكرهم في بطون التواريخ ،من شهرتهم تغني عن الذكر ، وما زالت شموس تلك العلوم تزهو حين شروقها بين الرومان ، والمدنية تتقدم على أعناق الخشونة والهمجية، حتى انقسام الدولة الى شرقية وغربية ، فأخذت منذ ذلك الوقت تتغيب في ظلمات العدم والنسيان ، كما كانت قوة الملك تجاريها بالضعف والخذلان ، نظراً لتوالي الفتن والحروب ، وتفرق العصبية الناشئة عن عدم الارتباط بالوطنية ارتباطاً لايخشى معه انحلال ، وفي أزمنة يسيرة تلاشت واضمحل حالها، وأصبحت أوربا مرسحاً يأوي اليه متوحشو الامم البرابرة ،حتى الممالك المشرقية ، فانها كادت تذبل نضرة مدنيتها ، وتصبح خالية عن العلم والعلماء الا اليسير منها ، وما كان رائجاً فيها من العلوم ، فان هي الا العلوم الدينية فقط ، نظراً لضرورتها بين الشعوب ولتمسك الكهنة وكبراء الديانات بها

ولما أراد الله تنوير بصائر العالم ،وإخراجها مما هي فيه الى مراقي المدنية ،بايجاد السبل المؤدية الى الحقائق وإرشاد العقول ، بعث الله نبيا عربيا للناس ، ألا وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاء بدين الحق ليظهره على الدين كله، وأسس الشريعة الاسلامية المطهرة ، التي كانت سبباً لارشاد غالب الامم الى طرق الصواب ، ثم بعد النبي صلى الله عليه وسلم قام لاتمام دعوة نبيهم الخلفاء الراشدون — ولما

كانت هممهم موجهة حينئذ الى امتداد الشريعة الاسلامية ، وطلب الفتوحات ، تمكنوا بواسطة ذلك من بث العلوم الدينية بين الناس ، حتى أفضت الخلافة الى بني أمية في الشام ، وكانت وقتئذ لاختلاط الامم الغريبة بالامة العربية ، دخلت العجمة في اللسان ، لذلك لم يكن شغل الخلفاء الامويين من العلوم الا بعلم الفقه والأدب كالنحو والصرف واللغة خوفاً من فقدان اللغة العربية الشريفة التي بها أنزل القرآن العظيم ، وعليها قوام قواعد الدين القويم

والحق يقال : إن لهم بذلك مزيد الفضل ، واعتناؤهم بضوابط اللغة مع جمع الحديث ، والحث على العلوم الفقهية والادبية ، قد شغلهم قليلا عن بقية العلوم ، فلم يكن مهتما بها بهذا المقدار ، الا علم الطب ، فانه لضرورته في كل وقت لنوع الانسان لم يخل وقتها ممن اشتغل فيه ولو قليلا من الافراد

على أننا لا يسعنا إنكار ما أنشأته بنو أمية من المدارس ، وبذلته في سبيل انتشار العلوم وتقدم الامة من الاموال ، لكن لم يتم انتشارها انتشاراً واضح الظهور الا في عهد خلفاء بني العباس الذين تقدمت في مدة أجيالهم الخمسة جميع العلوم ، وأخصها الحكم والرياضيات ، وعظم اعتناء علماء العرب باستخراج كنوز المخبآت العلمية ، وبث معارفهم بين الناس ، حتى ظهر العالم يومئذ بمظهر جديد ، وراج سوق العلوم منطوقها والمفهوم ، وأصبحت الممالك الاسلامية من الشرق في الهند الى الغرب في الاندلس تزهو بالعلم والعلماء بعد ما كانت تخبط في ظلمات الجهل خبط عشواء ، وناهيك بما بذل الخلفاء في سبيل ذلك من الجد والجهد ، حتى أضحى غراس تبعهم ممتد الظلال ، يانع الثمار ، وصارت المملكة في عهدهم الى درجات الكمال ، وما وصلت اليه هذه الامة في زمن الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل والمعتضد من المقام الأسمى في العلوم والمعارف يجل عن الوصف ، وفي غضون ذلك رسم المأمون بترجمة كتب الفلسفة ، فترجمت له على غاية ما أمكن ، وجعل يحث الناس على مطالعتها ويرغبهم فيها . وفي أواخر الجيل الثالث رسم المعتضد بالله بالزيادة في ذرع قصره بالشماسية من بغداد لتبنى بها دور ومقاصير ومساكن يترتب في كل منها رؤساء كل صناعة ، ومذهب من

مذاهب العلوم النظرية والعملية ، وتجري عليهم الارزاق الكافية ليقصد كل من أراد رئيس مايختاره من رؤساء هذه العلوم ، وهكذا كان دأب الخلفاء بتمهيد أسباب العلوم والتقدم بالمعارف ، حتى نبغ في عهدهم من العلماء والحكماء كالشيخ الرئيس ابن سينا وابن مسكويه والطوسي وابن رشد الأندلسي ونحوهم ممن شهرتهم تغني عن الذكر ، من نسخت معارفهم أكثر أقوال الأولين ، وكشفت القناع عن اغلاط المتقدمين، ومهدت السبل للمتأخرين، واخترعوا من العلوم مالم يكن في الوجود

هذا وينبغي هنا أن لايفوتنا سعة نطاق المعارف والعلوم في بلاد المغرب أيضاً حينما كانت في ذلك الوقت مقر خلافة الامويين ، فانها لعمر الحق كانت كالمشرق في مطلع شموس العلوم ، وينبوعا تتفجر منه عيون المعارف ، وسماء تتباهى بكواكب العلماء والبلغاء ، وأخصها قرطبة عاصمة الملك التي قيل فيها

بأربع فاقت الأمصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظم شيء وهو رابعها

وأعظم عهد تقدمت فيه بلاد الاندلس على سائر بلاد الاسلام عهد خلافة عبد الرحمن الناصر في أوائل القرن الرابع فانه أول من تلقب بأمير المؤمنين في المغرب، حينما ضعف أمر الخلافة في المشرق ، وبلغه أن مؤنساً المظفر أحد الموالي الاتراك قتل المقتدر بالله العباسي سنة ٣١٧ واستفحل ملك الناصر في تلك النواحي ، وهابته وهادنته جميع ملوك الروم ، وهو هو الذي وقع في زمانه ذلك المجمع المشهور الذي تواردت اليه ملوك الاقطار ، وارتجت له جميع الامصار، فمن الوافدين عليه فيه وفد قسطنطين ملك الروم ثلاثون ، وأتوا له بهدية ثمينة ، ووفد عليه أيضاً وفد من قبل ملك الألمان ، وآخر من قبل ملك الصقالبة ، وغيره من قبل ملك الافرنجة فيما وراء البرنات ، وسواه من قبل ملك الافرنجة في قاصية المشرق ، واحتفل الناصر بوصولهم احتفالا شائقا ، وقد حمل السرير الخلافي في ذلك اليوم كما نقله المؤرخون بمقاعد الابناء والاخوة والاعمام والقرابة الى ساحة المجمع ، وأمر يومئذ الاعلام بأن تخطب ، فوجموا وأرتج عليهم القول فقيل لأبي علي اسماعيل بن قاسم القالي صاحب كتاب الأمالي ، وكان من

وفود الحضرة وقتئذ: فقام وبعد أن حمد الله وأثنى عليه انقطع به الكلام ووقف صامتاً لما هاله من اتساق الجمع ووجهاء الامم ، وبهره من أبهة الخلافة ، حتى قام منذر بن سعيد البلوطي ، وارتجل من غير استعداد ولا روية تكملة خطبته ،وهي خطبة بليغة لا محل لذكرها هنا ، وهي منقولة في كتب ابن حيان وغيره ، وله في هذه الواقعة أبيات يقول في مطلعها :

مقالي كحد السيف وسط المحافل   فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكي ترتمي جمراته   كبارق رعد عند رعش الانامل

على أن هذا ليس بأول مجمع علمي وقع في الاسلام ، فان مجمع ابن عباس رضي الله عنهما في صدر الملة الشريفة لو أحصيت تفاصيله في مسائل نافعا بن الأزرق لشاطرت تأليفاً كبيراً ، والمجتمع الآخر الذي وقع بالاندلس من نبغاء العلماء ، ومصاقع الفضلاء ، ومن جملتهم ابن سعيد الغرناطي الشهير ، واستمر ذلك المجتمع مائة وخمس عشرة سنة آخرها سنة ٦٤٠ ، وهو الذي ألف فيه على ما قيل ذلك الكتاب الكافل لجميع العلوم في مائة وخمسين مجلداً ، هذا فضلا عما أنشىء في الاسلام من المدارس العظيمة ، كالمدرسة النظامية والازهر الذي كانت تدرس فيه سائر العلوم ، ليس كما هو عليه الآن

وبالاجمال فمهما تكلمنا على ما وصلت اليه هذه الامة بالعلوم والمعارف ، وما صرفته ملوكها من الهمم في سبيل تقدمها بتمهيد الاسباب المسهلة لذلك ، نكون قد أتينا بنقطة من بحر ، وفيما أوردناه دليل كاف على أن نهاية علوم الأقدمين بدايتها في عرب الاسلام ، وحسبك شاهداً ما نبغ فيهم من العلماء والحكماء ، والأئمة الفضلاء ، فسبحان من يغير من حال الى حال ، وهو الكبير المتعال اهـ

البحث الرابع عشر

﴿ في الصداقة والصديقين ، صديق الصدق وصديق المين ﴾

اعلم أنه يشترط في الصديق أن لا يكون غراً ولا أحمق ولا ملاقا ولا شريراً بل عاقلا صالحاً حكيما ، محباً للخير ، لذلك رأت الحكماء أن صداقة الصديق قل أن تخلو عن شائبة ما ، ومحبته لك وان صدرت منه بحسب الظاهر عن صدق نيـة وسلامة طوية ، فلا وثوق بها لأنها سريعة الانحلال ، وذلك على حسب اختلاف المحبات وتباين أسبابها ، سواء كانت لمنفعة أو لذة أو غرض ما وقتي ، اللهم الا إن كانت محبة من تغذوا بألبان الحكمة المغروز في نفوسهم حب المساواة التي تدعو الى الاشتراك بالفضيلة ، وعدم التطلع نحو التجاوز عن الحد المقرر لكل فرد ، فتلك هي محبة الأخيار التي لا تكون للذة دنية ، ومنفعة وقتية ، بل المقصود منها التحاب لالتماس الفضيلة وعمل الخير ، وبها يوثق بصداقة الصديق وتكون المحبـة ثابتة الاركان لعـدم وجود المخالفة والمنازعة بين المتحابين ، وللمناسبة الجوهرية التي بينهما ، غير أن أشخاصاً كهؤلاء أقل من القليل ، ولهذا قالوا : حد الصـديق بآخر هو أنت الا أنه غيرك بالشخص ، لذلك صار عزيز الوجود ، ولا يوثق بصـداقة الاحداث والعوام ومن ليس بحكيم ، لأن هؤلاء يحبون ويصادقون لأجل اللذة والمنفعة ، ولا يعرفون الخير بالحقيقة ، وأغراضهم غير صحيحة

ولما كان هذا البحث طويل الذيل فلا حاجة بنا الى إطالة الشرح فيـه ، وانما غرضنا أن نبين لك ما طبع عليه صديق المين من البهتان ، وكيف يختلف عنه صديق الصدق اختلافا واضح البرهان ، وما يذم من الاول من سيء الخلال ، ويحمد من الثاني من محاسن الخصال والافعال ، فأما صديق المين فهو الذي يميل مع الايام معك كانت أو عليك ، ولا يهش لك مالم تكن له حاجة لديك ، حتى اذا قضاها تولى عنك وأدبر ، وليته يكتفي بذلك ، بل يتوقع لك بعدها الشر ،

حتى كأنك أسأت اليه بذلك الاحسان، فتباً لكل من يقابل النعمة بالكفران ، وبعداً لخل يتلوى كالحية الرقطاء ، ويتلون بألوان الحرباء ، فتارة يقطب في وجهك ، وطوراً يهش اليك ، وحيناً يكون معك ، ووقتاً يصير عليك ، إن كان جيبك مفعما بالاحمر الرنان ، فأنت لديه أعز جميع الخلان ، وإن رقيت يوماً لبعض المناصب، يتقرب اليك بجميع الوسائل ويواظب ، أنت السيد عنده مادمت السيد في قومك ، وإن رأيته في رخاء أمسك ، فلست تراه عند شدة يومك ، اذا مد الزمان اليك يد الاسعاف والمساعدة يتقرب اليك بأنواع الحيل ، لتكون تلك المنحة عليك بالنفع عائدة ، هذا اذا لم تلعب فيه عوامل الحسد القتال ، وتفضي به الى سوء العاقبة والاضمحلال ، فنعوذ بالله من هذه الاخلاق الذميمة، والعاقبة الوخيمة ، ولا كانت صحبة اللئام، الذين لايعرفون عهداً ولا زمام ، فجانب ما استطعت مجانبه هكذا صديق ، ولا تثق بتقربه منك فعرى محبته لك غير وثيق ، وهو الذي اذا ظننت فيه خيراً لقيت منه شراً ، وإن رجوته لنفع أصابك ضرا(؟) فحاذر تقربه منك ، وادفعه بالتي هي أحسن عنك، فلاخير فيه، فان ظواهره بخلاف خوافيه

وأما صديق الصدق الذي هو من الاخيار ، وخصاله التي هي أوضح من شمس النهار ، فذاك من اذا رأى منك عورة سترها ، وان صدرت له عنك هفوة غفرها ، يحب لك مايحب لنفسه ، ولا يطيب له أنس ما لم تكن أنت من شهود أنسه ، يهتم لما يهمك ، ويسر لما يسرك ، ويبين لك ماينفعك مما يضرك ، يواسيك عند الشدة ، ويسليك في حالة الوحدة ، يحثك على كسب الفضائل ، ويمنعك من اتباع الرذائل، تراه سواء بحالتي الايسار والاعسار ، ليس فيه انحراف عنك ، ولا تقرب كاذب منك ، يمحضك النصح عن صدق طوية، وسلامة نية ، ويرشدك لعمل الخير ، واجتناب كل ما يجلب الضير، لذلك قيل : الصديق الصادق خير لك من نفسك ، لأنها أمارة بالسوء، وهو لا يأمرك الا بخير

وسئل خالد بن صفوان : أي الاخوان أحب اليك ؟ قال الذي يسد خللي،

ويغفر زللي ، ويقبل عللي — فهذا يوافق ماقلناه وشرحناه في أوصاف صديق الصدق ، والخليل أحرى . وقد قيل : حقيقة الكرم صدق الاخاء ، في الشدة والرخاء . وقيل : صداقة الصديق ، تظهر عند الوقوع في الضيق — وفي الحديث : «عليكم باخوان الصدق فانهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء »

فنق من الادناس قلبك ، وامحض لصديق الصدق حبك ، واعتبر بما مر لديك وشرحته اليك ، لتميز الغث من السمين ، وتفرق بين الصديق الكاذب والامين ، وتختار سلوك احدى السبيلين ، فاما ذكر حسن ، وإما مذمة وشين

واعلم يا أخي أنك اذا ظفرت بصديق هذه خصاله ، وعلى النمط المذكور أحواله ، يجب عليك المحافظة على محبته ، والوثوق بصدق نيته ، وعدم الاعراض عنه في جميع الحالات ، والاستهانة باليسير من حقه لدى المهمات ، اذا عرضت له حاجة لديك بادر بقضائها ، وان حدث به حادث ورأيت محلا للصنيعة أسرع باسدائها ، وبالغ في تفقده وأكثر مراعاته ، وواسه بما تواسي به نفسك ، وأحسن موالاته تلقاه عند الرخاء باظهار محبتك وسرورك ، وواله عند الشدة بما يقتضيه صفاء ضميرك ، وأظهر ارتياحك له عند مشاهدتك إياه ، ولا تنزع عن الاحسان اليه بجميع ما يحبه ويرضاه ، ليزداد ثقة بمحبتك ، وركونا الى مودتك . ومما ينبغي عليك المحبة لمن تعلم أنه يحبه ، ويوده ويؤثر قربه ، فان ذلك يفيدك محبة من لم تعرفه ، وألفة من لم تألفه ، ويكسبك الثناء من الناس ، وحسن المعاشرة والائتناس

واعلم أنه وإن يكن من الواجب عليك مشاركتك للصديق في السراء ، فمن الاوجب نظرك اليه في الضراء ، إذ أن نظرك في الضراء اليه أعظم وقعاً لديه ، وأحسن ما تسديه اليه ، كما اذا ألمت به نكبة ، أو أصابته مصيبة ، وبادرت لموالاته بنفسك ومالك ، وسبقت الى ما في نفسه قبل أن يعرض لك بشيء من ذلك . ثم يجب عليك مشاركته في نعمة تصيبها ، أو رتبة تنالها ، ولا يدعوك ذلك الى التكبر عليه ، والاعراض عنه واظهار الجفوة لديه . وحاذر اذا رأيت نقصانا مما

عهدت به من الولاء ، أن تسرع الى انتقاض حبل وده بالجفاء ، لئلا يوجب ذلك انقلابه عنك ، ونفرته منك ، فان جفاء الصديق يوجب النفرة ، وربما أوجبت هذه العداوة والمضرة . وليس من العدل ، سرعة العذل ، والمحافظة على الولاء ، من شيم الاصفياء ، فهذه وصايا الحكماء فاحتفظ عليها ، وارجع في صداقة الصديق اليها

البحث الخامس عشر

﴿ التفرنج ﴾

وما أدراك ماهو التفرنج ، التفرنج هو داء سري في بعض الشرقيين مسرى الدم في العروق ، سيما الشبان منهم الذين استولى على عقولهم زخرف الافرنج ، فهم يكرهون الوطن والجنسية ، حباً بالافرنج ، وذلك من قصور عقولهم الفاسدة ، وآرائهم الكاسدة ، ولزعمهم أن ماوصلت اليه الافرنج من التمدن لم تصل اليه أمة من قبل ، وأن العلوم والمعارف ، والفنون والصنائع ، قد بلغت عندهم مبلغاً يعز على الشرقيين الوصول اليه ، وأن كل مايصدر عنهم فهو حسن ، لذلك تراهم (أي شبان الشرقيين) آخذين بالتفرنج ، أي التشبه بالاورباويين . وليت بالافعال الحسنة ، والاقبال على الفنون والمعارف ، بل بالخصال السيئة ، والافعال التي لا طائل تحتها سوى الجهل بحقيقة التمدن ، وحب التقليد بالاشياء الدنيئة ، كحمل العصا ، ووضع العوينات (النظارات) ولبس « الموضة » والخلاعة بالمشي ، واطراح الحياء ، ونحو ذلك من الافعال التي هي ضد آداب الشرقيين ، والتي يزعمونها من نتائج الحرية ، وهم لايدرون ما الحرية ، ولا يدركون معناها

وأشد من ذلك جهلا وغباوة ، أن أحدهم اذا كان ليس له إلمام أصلا ، بلغة من اللغات الافرنجية ، يكتفي بتعلم الكلمات الآتية « برضون » عن أذنك

« مرسي » « ممنون » (١) « بريفكس » : كلام واحد . ويظن أن كل من نطق بهذه الكلمات ، يكفي لأن يعد من الافرنج ، وأن يقال انه متمدن رقيق الطبع ، وأما اذا كان ذا إلمام بأحدى اللغات كالأفرنسية أو الانكليزية ، فانه لا يكاد ينطق بحرف واحد من لغته ، ولا يعاشر أحداً من أبناء جنسه ، وان فعل فبالتكلف ، أو للضرورة ، كعدم وجود من يحذو حذوه ، ومن يتكلم معه بلغته الجديدة

وصدف مرة أني بينا كنت جالساً عند بعض باعة الكتب في الاسكندرية ، واذا بشاب أتى وجلس عنده ، ثم جعل يتكلم بالعربية بعجمة وتحريف للالفاظ فما ظننته الا افرنسياً ، لو لم يقل لي صاحب الدكان — وكان من الظرفاء — : إن حضرة المسيو من البلد الفلاني وهو ابن فلان التاجر السوري المشهور ، وأظنك تتعجب من عجمة لسانه ، حالة كونه عربي الاصل . فقلت له : كيف لا والامر محل للعجب فقال : الاعجب من ذلك كونه لا يحسن القراءة العربية ، ويقرأ جيداً بالافرنسية ، فذهلت من ذلك وسألت الشاب ؟ أصحيح ماقاله فقال نعم ، فقلت ولم ذلك ؟ قال لعدم رغبتي بالعربية ، ولكون الغالب علي مطالعة الكتب الافرنسية ، فقلت له واين تعلمت اللغة الافرنسية ، قال في بيروت ، ثم تممتها في باريس . فقلت له : يالله العجب فهل توصلت في بيروت الى تعلم اللغة الافرنسية الا بالعربية ؟ وما أنت الا عربي الاصل والجنس فما هذه العجمة التي بلسانك ؟ وما الداعي لعدم اتقانك لغتك الاصلية ، التي هي أشرف اللغات ؟ فان كان ذلك حباً بأهل اللغة الافرنسية ، واظهاراً لكونك منهم ، ومحباً لهم ، فهذا مالا يكسبك لديهم الا المقت والازدراء ، لأن من عوائدهم الجميلة — التي لم تتعلم منها شيئاً مع حبك لهم وتشبهك بهم ، وولعك بلغتهم ، كونهم يذدرون من يتشبه بغير أبناء جنسه ، ولم يتمسك بعوائد بلاده ، ويقبل على تعلم لغة غريبة وهو لم يتقن لغته ، وهم محقون بذلك ، فان هذا الأمر يسبب كراهة الجنس ، وعدم حب الوطن ، كما

---

(١) كلمة شكر كانت كثيرة الاستعمال في عصرنا ولعل اصلها : ممنون علي . وقد استبدل بها الاكثرون كلمة : أشكركم اه مصححه

يستدل على ذلك بك لاحتقارك للغتك وتشبهك بغير أبناء جنسك ، وهذا مما يضر بالاوطان ، ويعود عليها بالخسران ، ولم أتمم حديثي معه حتى قام وانصرف مخجولا من سوء عمله ، فانظر الى هذا الغر الذي دعاه حب التفرنج للجهل بلغته ولعدم تكلمه بها أصلا ، وان تكلم فبعجمة اللسان ، كما سبقت الاشارة الى ذلك

وأعجب من ذلك انك اذا أردت نصح أحد هؤلاء المتفرنجين بأن بينت له أن ماتمسك به من العوائد الاوروباوية ليست من التمدن على شيء ، وتعلم «برضون» «ومرسي» لايكفي للتشبه بالاوروباويين والترقي الى المدنية ، بل المدنية هي ايقاظ الهمم وانصرافها نحو الأسباب التي تخول نوال التقدم بالعلوم والمعارف والفنون ، والصنائع التي تسبب ازدياد الثروة ، وعلو المنزلة ، والتقدم بالغنى والشهرة ، يقول لك وأنى لنا الوصول الى ذلك معشر الشرقيين ، ونحن لسنا من الأوروباويين؟ ، فكأنه يظن أن الاوروباوي أهبط من السماء ، وانه وصل الى ماوصل اليه ، ليس بالعادة والتدريج ، بل خلق متمدنا من الازل ،

جلست مرة مع بعض هؤلاء الشبان فأول كلام تفوه به أن جعل يطري في مدح الافرنج وزعم أن مايرى في بعض البلاد المشرقية من أسباب التمدن والترقي بالمعارف فانما سببه الاوروباويون ، ولولاهم لما انتشرت المعارف والمدارس والمعامل فيها ، فقلت له اذا كنتم تعلمون ذلك لماذا لم تحذوا حذوهم ، وتفعلوا كفعلهم ، حتى لاتحتاجوا اليهم ؟ وما الفرق الذي بيننا نحن معشر الشرقيين وبين الاوروباويين ؟ أما نحن وهم سواء ذاتيا وعرضيا ؟ أما نحن المتقدمون عليهم بالمدنية ؟ أليس التمدن الاوروباوي مأخوذاً منا ومنقولا عنا؟ فكيف نقر على أنفسنا بالعجز ، وفيهم رجال وفينا رجال؟ وعلى ماأسس الترقي بنت الاجيال ، وهل الأمة التي ملأت معارفها الأقطار ، وانتشرت مدنيتها في جميع الأمصار ، لاتستطيع الآن استرجاع ماسلب منها وأخذ عنها؟ لا بل كما استحوذت على ذلك في الأول وذهب منها يمكنها العود اليه في الآخر بالاعمال وبذل جميع الوسائل؟ ثم قلت له : وما المانع الذي يمنع الشرقيين الآن عن تأليف شركات تجارية ، وانشاء مدارس علمية ، ومجامع خيرية ، ومعامل صناعية ، وغير ذلك من الأشياء التي يترتب عليها التقدم وبها

توصل الاورباويون الى أعلى درجات التمدن ؟ فان قلت عجزمنا وعدم اقتدار، يقال كيف تعجزون عن أمر نقله الاورباويون منكم وأخذوه عنكم؟ وان قلت لا بل لما أن هذه أشياء يلزم لها أموال كثيرة وتحتاج لبذل النقود وعظم الثروة ونحن لسنا كأهل أوربا من حيث الغنى والثروة حتى نستطيع القيام بهذه الاعمال المهمة؟ يقال هذه أيضاً حجة واهية فان القليل يجلب الكثير ، والاتحاد يسهل الاعمال، وذلك اذا أريد مثلا انشاء سكة حديدية في البلاد ويقتضي لها من المصروف ثلاثة ملايين من الليرات فبالضرورة لايستطيع القيام بهذا العمل المهم شخص واحد بل اذا تألفت لأجله شركة عظيمة وقام كل شخص بجزء من ذلك المبلغ فانه يتم حينئذ ذلك العمل المهم بدون أن يحتاج في مصاريفه الى صعوبة كلية وبدون أن يشعر دافع ذلك الجزء بقلة في ماله أو نقصان لثروته، بل هو بقيامه بذلك الجزء الزهيد من النقود يكون قد نفع نفسه بما سيحدث له من الأرباح ، ونفع وطنه بما سينشأ عن السكة الحديدية من تسهيل الاشغال التي تسبب ازدياد الثروة والنفع العام . وبهذه الامور وأشباهها تقدمت أوربا بالمدنية والغنى والشهرة العظيمة . إذاً فقصورنا عن نوال التقدم ليس لداعي الفقر وعدم الاستطاعة ، بل محض كسل وتوان . ولزعم أمثالك من الشبان المتفرنجين أنه لايمكن تقدمنا بالمدنية كما تقدم الغربيون (سكان أوربا) ولأخذهم العجز مبدأ لهم في جميع أعمالهم، وتشبههم بأهل أوربا بالاشياء التي لاطائل تحتها سوى قصور العقل

فأخذ يحتج بحجج واهية لا يقبلها الا كل ذي عقل ضعيف ، فقلت له : لا يخلد في ذهنك أن تقدم الامة أو تأخرها متوقف على الدولة أو الملك ، فان الملك واحد بين أفراد رعيته ، والدولة لاتعلق لها الا بالامور السياسية التي تلزم للتأليف والاجتماع . فعلينا أن نؤسس مجامع علمية ، وعلى الدولة أن تعضد مبادئها أدبياً ، وعلينا أن نوسع نطاق تجارتنا ، وعلى الدولة أن تحافظ على حقوقنا وتمنعنا من تعدي بعضنا على بعض ، وتصون السبل والطرقات . إذاً فالافعال الحقيقة واكتساب العلوم ، وتقدم الصنائع والفنون، هي من ضروريات الأهالي المتعلقة بهم ، فان المعامل الصناعية ، والسكك الحديدية ، والمدارس العلمية ، والجمعيات

الخيرية ، والشركات التجارية التي في أوربا ما أنشأتها الملوك ولا أسستها الدولة ، بل الذي أنشأها هم الاهالي أنفسهم وهممهم العاليـة ، وعدم أخذهم العجز مبدأ لهم قد دعاهم الى هذا كله ، وسهل لهم الصعب ، وجعلهم يرقون في المدنية الى ما نراهم عليه الآن

ولما أن أتممت حديثي معه ما كان منه الا أنه سكت ولم يفه ببنت شفه فلم أدر إن كان ذلك منه إذعانا للحق أم انحرافا عن القول الصدق ؟

وبالاجمال فمن المصائب الملمة بالشرق والشرقيين تشـبه هؤلاء الجهلاء بالافرنج في الاشياء الدنيـة ، وإعراضهم عن الاشياء التي جعلت أوربا تسمو الى مراقي المدنية ، والتي عليها مدار التمـدن والتقدم ، فليتهم ينتبهون من رقدتهم ، ويثورون من غفلتهم ، فاما أن يرجعوا الى عوائدهم الاصلية ، وإما أن يحذ حذو الاورباويين بالاشياء التي تعود بالنفع على الامة والوطن ، فقـد كفى هذا الاهمال وادعاء العجز الذي هو من شيم الضعفاء ، والذي يوجب احتقار الغربيين للشرقيين

والطريق الموصل الى التقدم هو الاتحاد في جميع الاعمال
واستئصال داء التفرنج الذي أوجب استنزاف ثورة
الشرقيين ، وتسنى به للغربيين انتشار تجارتهم
في الشرق ورواج بضاعتهم وتنفيذ أغراضهم
وامتهانهم للشرقيين وأين من يعقل
ذلك ، ويتنبه لما هنالك ، فلا
حول ولا قوة إلا بالله
وبه المستعان اه

(تم)



تاريخ

السياسة الاسلامية

﴿ شرع المؤلف رحمه الله في هذا الكتاب ولم يتمه ، وكأنه رأى ﴾
﴿ أنه يحتاج الى مراجعة كتب كثيرة ، في زمن طويل ﴾
﴿ ثم شرع في تأليف كتابه (أشهر مشاهير ﴾
﴿ الاسلام) فشغله عنه ، أو ﴾
﴿ اكتفى به فيما أراد منه ﴾



تأليف

رفيق بك العظم

﴿ الطبعة الاولى ﴾

في سنة ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٥ م

مطبعة المنار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رتب الكائنات على أحسن نظام وأبدع ، وجعل الانسان من أفضـل خلقه فما أبدع ، وكرمه بأن جعله خليفة في الارض ، وجعله شعوبا وقبائل (١) وفيافيها ، فانتشر في أكناف البسيط مجتمعاً ، وافترق في قصـد السبيل مندفعاً ، فعمر واستعمر ، وزرع واستثمر ، وكثر واستكثر ، فشيد القصور وشاد الممالك ، فمنها الباقي ومنها الهالك ، وصلى الله على سيدنا محمد جامع شتات الشعوب على كلمة سواء ، ومؤسس الشريعة الاسلامية على دعائم العدل والاخاء ، الذي دانت لدينـه الامم ، وتضاءلت دون جليل عمله شوامخ القمم ، وعلى آله وأصحابه الذين انتصروا للحق فنصروا شريعتـه الغراء ، وخلفائه الذين اهتدوا بسنته فخضعت لهم الشعوب طوعا واختيارا لا رهبة ولا رياء

﴿ أما بعد ﴾ فان حالات العمران، تتحول بتحول الزمان، ووسائط المدنية ترقى بترقي الانسان ، ومنذ دحا الله الارض جعلها مضماراً تتسابق فيه الاحياء ، وتتبارى عليه الاشياء ، والانسان ابن بجدتها ، والسابق في حومتها ، كل فريق منه يباري فريقاً ، وكل جماعة تنتهج طريقاً ، فمن استمسك بعروة الجد استعلى ، ومن استمهل عزيمـة النفس ونى واسترخى ، فكانت يده في هذا الوجود هي الدنيا ، ويد السابق هي العليا ، وبعيد الهمة يأبى الادنى ، والغضاضة لا يرضاها الا الاشقى ، الذي استهان بنعمة الحياة ، وهي عند غيره أعز وأبقى

ومن ثم كانت مراتب الشعوب من السعادة والشقاء، بنسبة مرتبة كل منهم في عالم الجد والعمل والخمول والاسترخاء ، واذا أحس شعب ببطء في الحركة ، أو تراخ في القوة ، لباعث من بواعث الضـعف الطارئة أو الطبيعية ، ولم يبادر

(١) بياض في الاصل تركه المؤلف ليعود اليه

لانشاط العقل وتنشيط النفس بمعاجلة الداء بالدواء ، تناهى به الانحطاط الى ردكات الضعة ، وانحلت من أفراده أعصاب العصبية ، فضلت منهم العقول ، وقصرت عن ارتياد الحيل المدارك ، فضعف أمرهم ، وأخذ الى الوراء سيرهم ، فاستهدفوا لسهام الاغراض من قبيل آخر ، يستزيد من ضعفهم قوة ، ومن هبوطهم علوّاً ، وهذه آخر مراتب الشقاء ، ومنهى الرضا بالبلاء

لهذا كان التاريخ من أجل العلوم التي ينبغي للانسان أن يشتغل بها ، ويحلي عقد معارفه بدرر لآلئها ، لانه مرآة العصور التي تمثل للمرء في كل زمان صورة الماضي على أوضح مثال ، فيرى فيها من ماجريات الزمان ، وأحوال بني الانسان، في عصورهم الماضية، وأيامهم الخالية، مايقف بالفكر في مجال التأمل بسير الماضين ، فيستجلى منها من أنواع المواعظ وضروب العبر ما يكسب العقول إرشاداً لمحجة الصواب ، وقوة في حجة القول . وينهض بالرجال الى ارتياد شرائف الامور وجلائل الاعمال . واذا ثابر المرء على النظر والبحث في تاريخ المجتمعات الانسانية ، وما طرأ على وجودها المدني في كل عصر من الترقي والتدني والصعود والهبوط، أكسبه ذلك ملكة الادراك لمستقبل الحوادث ذهاباً مع القياس لما مضى من نظائرها ، ومكنه من الوقوف على بواطن السياسة ، وسبر كنه الوجود ، فوجد بذلك لذة لايجدها سواه، وعلم من مزايا التاريخ مالا يعلمه الاهو

وحيث إني منذ نعومة أظفاري علقت بمطالعة التاريخ ، ومتابعة البحث والاستقراء في أحوال الامم ، ولا سيما تاريخ الامة الاسلامية الذي أتى العالم بما أدهش العقول وحير الالباب ، فقد أوجد ذلك في نفسي ميلا الى وضع كتاب في تاريخ السياسة الاسلامية ، وما طرأ عليها من التقلب في أدوارها التاريخية، على نمط جديد تتوق اليه نفوس الناس ، ويرغب فيه ذوو المعارف والعلم . إلا أن قلة البضاعة وفتور العزيمة . كثيراً ما كانا يحولان دون الشروع بهذا الامر الجلل حتى استفزني رائد الفكر ، وجرأني علم إخواني من أبناء الوطنية الشرقية بالحاجة الى طروق مثل هذه المواضيع المهمة في هذا العصر، على الاقدام للأخذ بأطراف هذا البحث والشروع بهذا التصنيف ، مستخيراً الله سبحانه وتعالى في عملي هذا

بانيا له على مقصد مهم ، وغاية أهم كما ترى فيما يلي فأقول :

من المقرر أن تاريخ العمران يمتد الى عصور بعيدة قامت في غضونها ممالك شتى ودول عظيمة بسطت جناح السلطان على كثير من أقطار المعمور ، وطرأ على كل دولة من دول الارض أطوار سياسية مختلفة ، من صعود وهبوط ، وقوة وضعف ، كانت فيها مدة حياتها الاجتماعية في هذا البسيط الارضي بنسبة مالديها من الاسباب الحيوية التي تقاوم بها هجمات الزمان وتقلب الحدثان

ومن نظر في تاريخ الامم البائدة والدول الغابرة ، وما تذرعت به من الوسائل ، ووضعته من الشرائع ، حفظاً لكيانها الاجتماعي ، وضنا بسلطانها الأرضي ، من أن تعبث بهما أيدي الدمار ، وتسطو عليهما عوامل البوار ، لوجد من ذلك مالا يحيط به الوصف أو يحصيه القلم . ومع ذلك فقد أخذت كل دولة من تلك الدول نصيبها من الانقلاب ، وحظها من الابزعرار(؟) بهفوات رجالها ، وضعف النفوس السامية من أهلها ، وتغلب الشهوات عليها ، إلا أن منهن من أدركها العجز العاجل ، فزوى إسمها ، وانزوى في طي الخفاء رسمها . ومنهن من ثبتت في ميدان النضال ، عدداً عديداً من الاجيال ، فقاومت الكوارث بقوة ادخرتها في خبايا الايام من بقايا المجد القديم ، فصانت بها حياتها السياسية حيناً من الدهر . إما أن تظهر بعده بمظهر جديد ، يستحثها عليه العلم بقيمة تلك الحياة الطيبة ، فيطول لها البقاء ، وتستظهر على الشدائد ، وإما أن يدركها ماأدرك سواها من العجز ، فيلحقها بالغابرين ، ويجعلها حكاية في الماضين ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا

ولما كانت الدول الاسلامية من هذا الوجود الذي يطرأ عليه الفساد تارة والحياة أخرى ، وهي على ضخامة مجدها وجليل قوتها كانت هدفا لتلك الفواعل الزمانية ، وعرضة للطوارىء السياسية . فقد يعجب الانسان لأول وهلة من ظهور بعضها بمظهر لايخال من رآه أن للزمان عليه سلطانا ، وللحوادث اليه وصولا ، مالم يتتبع دقائق السياسة ، ويستقصي أسباب الانقلاب في الدول الاسلامية ، فيقف حينئذ مندهشا من أعمال الانسان وتصاريف الزمان . ولا جرم فان قيام دولة

الاسلام في الارض ، وما تأتى عنه من الانقلاب السريع في العالم في صفة السياسة والحكم والترقي العظيم في المدنية، والعلم في معظم أجزاء المعمورة

ثم ما اعتورها بعد ذلك من الانقسام ، وزعزع فيها أركان النظام، لمن حوادث التاريخ المهمة التي ينبغي على كل من عنده ذرة من الشعور من الملة الاسلامية تتبع عللها، واستقصاء أسبابها ، توصلا للوقوف على الأدواء التي اعتورت جسم المجتمع الاسلامي ، فأودت بدوله العظيمة ، ومزقت شمل ممالكه الواسعة ، لاسيما ما تخلل تاريخ هذه الامة من البواعث والاسباب لما يسمونه المسئلة الشرقية، التي تذرع بها دول النصرانية الى التغلب على كثير من الممالك الاسلامية ، ليعلم أن تلك البواعث والاسباب هي غير ما يدعيه دعاة التعصب المسيحي في الغرب الذين يزعمون أنها انما هي ابتداء اضطهاد نصارى المشرق في القرون الوسطى الهجرية — سبحانك اللهم — إن هذا الا بهتان عظيم ، فان اضطهاد النصارى في المشرق لو كان على ما يصفه يومئذ أهل المغرب لما بقى الى الآن على وجه البسيط الاسلامي فرد من المسيحيين ، بل لكان الاشاهم الاضطهاد المتتابع في القرون الكثيرة ، أو كان الظلم والاضطهاد دفعهم الى المهاجرة لبلاد الدول المسيحية في الغرب، حتى لا يبقى منهم بقية في الشرق ، لأن النفس البشرية تأبى تحمل الظلم والضيم في حال وجود مندوحة عن تحملها

وهذه من الامور المشاهدة الثابتة في هذا العصر وفي كل عصر . فان مسلمي الاندلس عند مادوخت بلادهم دولة الاسبانيول في القرن الخامس عشر المسيحي وعاملتهم من أنواع الظلم والجور بما تنبو عنه الطباع ، وتستك من ذكره الاسماع، هجروا أوطانهم والتجؤا الى ممالك المغرب الاسلامية ، لما وجدوا لهم مندوحة عن تحمل ذلك الظلم بالمهاجرة

وكذلك المسلمون في الممالك البلقانية التي لم يمض على خروجها من يد الدولة العثمانية أكثر من بضع وعشرين سنة ، فانهم لم يتحملوا ظلم الحكومات النصرانية وجورها عليهم بالخصوص، فأخذوا في المهاجرة الى البلاد الاسلامية، والاستظلال بظل حماية الدولة العلية ، ولا يمض على تلك الممالك عشرون سنة أخرى حتى

يهجرها من الظلم المسلمون ، فكيف إذاً ثبت نصارى المشرق تلك القرون الطويلة على اضطهاد حكومات الاسلام لهم ، ولم يلتجئوا الى الفرار منه الى الممالك النصرانية ، طلباً للحماية والتماساً لراحة الحياة ؟ إن هذا لأمر عجيب !!

والحقيقة أن تلك البواعث والاسباب هي غير ما يدعيه الغربيون كما ذكرنا، وهي وإن كان التاريخ ينبيء عنها ، ويمثل كل دور من أدوار الدول الاسلامية ، الا أنه على صفة صعبة المنال ، عسرة المأخذ ، وذلك لايرادها ما أتى على هذه الدول من الحوادث ، وما تخللها من الاختباط ، مختلطاً غثه بالسمين ، مبزعراً في غضون الاخبار ، عاريا عن الملاحظات السياسية ، والبيانات الشافية . ولم تفرد حوادث السياسة الاسلامية في كتاب خاص ، يبحث عن سياسة كل دولة من الدول الاسلامية ، وما طرأ عليها من التغيير وعرض لها من التدني أو الارتقاء والقوة أو الانحلال ، الا فيما ربما لايصل اليه علمنا ، ولم نقف عليه من الكتب العربية التي اكتنزها الغربيون وأرصدوها في الخزائن

إذ أن العرب لم يتركوا فنا من فنون التاريخ إلا ألفوا فيه ، وما وصل الينا من كتبهم التي نسمع بها في هذا الفن هي قطرة من بحر مما وضعوه . وهذا مابعث فيّ الرغبة في البحث والتنقيب عن أحوال الدول الاسلامية وسياستها في تدبير الملك ، والنظر في شؤون الحكومة ، منذ النشأة الاسلامية الى هذا العصر حتى توصلت بعد كثرة البحث والاستقراء ، الى أن أفرد تاريخ السياسة الاسلامية بهذا الكتاب مقتصراً فيه من الحوادث على إيراد كل ماترتب عليه عمل جليل في الدولة ، أو انقلاب في الحالة العامة ، أو مد لسلطان ، أو نفع لأوطان ، أو ما كان منشأه بدعة أو نحلة في الدين ، أو حزب في السياسة ، ونحو ذلك مما يستنتج منه كيفية سير السياسة الاسلامية ، وما اكتنفها من بواعث التقهقر ، وطرأ عليها من ضروب العبث والتقلب ، معتمداً في نقل الحوادث على أصح المصادر ، وأهم التواريخ العربية والتركية ، والمجاميع السياسية ، والسير النبوية ، على قدر ما يصل اليه جهدي ، ويؤديني الى الحصول عليه جدي ، مقسما هذا الكتاب الى أربعة أقسام

القسم الاول . وكلامنا فيه عن عصر الترقي الاسلامي
القسم الثاني . وكلامنا فيه عن عصر الوقوف
القسم الثالث . وكلامنا فيه عن عصر الانحطاط
القسم الرابع . وكلامنا فيه عن عصر النشأة الجديدة، وفيه الكلام عن تاريخ سياسة دولتنا العثمانية منذ ظهورها الى الآن، أيدالله ملكها، وأيد بروح منه ملوكها

وسنبدأ الكتاب بمقدمة فيها موجز سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما تأسست عليه شريعته الطاهرة ، من الأحكام السياسية الكافلة لمن قام بها بدوام المجد والقوة للاسلام . ثم نرتب البحث في تاريخ الاسلام على أربعة عشر قرناً أو جزءاً، ينقسم كل قرن إلى عشرة أعشار ، ويتخلل كل عشر ملاحظات تحليلية ، كما يختم كل قرن بفذلكة سياسية، تكون من قبيل النظرة الاجمالية، فيما تقدم من الحوادث في ذلك القرن . وقد أخذت على نفسي أن لا أتحرى في القول عن تراجم الرجال وذكر الاعمال ، الا الحقائق التي يسلم بها الضمير الحر، وتقتضيها سنة الحياد ، وعدم التشيع لانسان دون آخر ، أو فريق دون فريق . وأنه كان في ذلك اقتحام مركب خشن ، وطريق صعبة بالنظر لما سأستهدف له من ملامة ذوي العقول القاصرة أو التعصب الاعمى ، اذ ما أصيب التاريخ بمثل التشيع ، وما أضر بالدول الماضية الا كثرة إطراء مؤرخي كل عصر بدولتهم والمبالغة في تتبع عورات سواها ، وحشو الغث في ثنيات سطور تاريخها . والداعي لمعظم المؤرخين الى اتباع هذه القاعدة إما الرغبة أو الرهبة أو مجرد العصبية، أو التشيع للجنسية ، مثال ذلك ما نراه من مبالغات مؤرخي العباسيين في التشنيع على بني أمية ، ومؤرخي الفاطميين والشيعة في بني العباس، وهكذا في كل دولة وعصر ، حتى كاد يختلط الحق بالباطل، لو لم يظهر في كل عصر أفراد غلبت عليهم طهارة الضمير والذمة وسلامة الاعتقاد وقادهم مزيد الادراك والتعقل الى التنبيه على مثل هذه الامور واجتناب ما ينشأ عنها من المحذور ، كالعلامة ابن خلدون وغيره من أئمة الاسلام، والعلماء الاعلام ، جزاهم الله خير الجزاء ، ووفقنا وجميع المسلمين الى انتهاج مناهج الصواب ، وتنكب مسالك الخطأ المعاب (؟) آمين

مقدمة

﴿ وفيها تمهيد في أصول الدين الاسلامي ، وموجز سيرة النبي محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ﴾

إن الكلام على الدول الاسلامية والحكومات فيها لما كان يبدأ منذ أول خليفة في الاسلام ، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه . فقد رأيت أن أستفتح التاريخ من العشر الثاني للهجرة ، لكن بسبب ارتباط السياسة بالدين في الشريعة الاسلامية ارتباطاً أعد من المجد وهيأ من ثمرات حسن النظام للامة الاسلامية مالا يعلم مقداره الا من تتبع أحوال الاسلام في قرون مجده الاولى ، فقد حتم علي ذلك استفتاح الكلام في هذه المقدمة بتمهيد في أصول الشريعة الاسلامية ، وما جاء فيها من جلائل الحكم والسياسة التي تأسست على كل قاعدة منها دولة إسلامية ، بسطت جناحي السلطة على الشرق والغرب — ويتلوه موجز سيرة صاحب الشريعة الاسلامية صلى الله عليه وسلم ، مع أن في تدين خمس البشر بدينه الطاهر ، وامتداد سلطان أمته في أعظم أجزاء الارض ، وانتشار شريعته في غالب أقطار المسكونة ، غنية عن ايراد موجز سيرته عليه الصلاة والسلام . ولكن قصد التيمن باسمه الشريف وما بين شريعته الطاهرة ، وقيام دولة الاسلام من العلاقة يحتمان علينا استهلال الكتاب بهذا التمهيد الموجز فنقول :

من نظر في تاريخ العرب قبل الاسلام وبحث في شؤون القبائل والشعوب البالغة نحواً من عشرة ملايين من البشر التي كانت منبثة في أرجاء جزيرة العرب بأقسامها ، وما كانت عليه يومئذ من البداوة والهمجية وافتراق الكلمة وتعدد العصبيات والقبائل — ثم تأمل فيما صاروا اليه بعد الاسلام من اتحاد الكلمة وعظيم المجد والقوة حتى مدوا سلطانهم على أشرف بقاع المعمور وأعظمها — يعلم

مقدار النعمة التي أعدها الله لهذه الامة العربية بظهور خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم فيها . إذ جمع أولئك الشعوب المتفرقة والقبائل المتشتتة على كلمة واحدة وهي الاسلام . فأظهروا من ضروب الاستعداد الكامن في نفوسهم كمون النار في الزناد ما كان أعظم دليل على فضل ذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وفضل شريعته الطاهرة التي جاءت من بدائع الحكم والاحكام بما جعل الاسلام في أقل من قرن منتشراً في أنحاء الارض ، سائداً على مئات الملايين من البشر ، رافعاً رايته على صروح أعاظم ملوك الارض ، حتى ما كنت ترى يومئذ الا عدلا سائداً ، وعلماً نامياً ، ومدنية زاهرة ، وشعوبا تقبل على التدين بهذا الدين ، وملوكا تخطب مودة أوليائه ، وأمما تلتمس الراحة ورغد العيش في ظل لوائه ، ومدناً تشاد ، ومواتاً تحيي ، ومسالك تمهد ، ومدارس تعمر — وبالجملة نظاما ينمو بين البشر على دعائم أسستها الشريعة الاسلامية الغراء . وقواعد رفعها ذلك النبي الكريم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم . فانتظمت بها للشعوب حالتا الدنيا والدين ، ومهدت سبل الخير والسعادة للمسلمين

ولولا ما أتى على الاسلام في بعض قرونه من الانقلاب في السياسة ، ومنشأه فتن تأصلت في النفوس ، فمزقت الاحشاء ، وفرقت الاعضاء ، فاختلطت بسببها الشهوات النفسية بالامور الدينية ، فتخللت جسم السلطة العامة ، فتسامحت بكثير من السياسة الاسلامية ، وعبثت بأهم القواعد الدينية . فأفسدت عليها النيات ، وافترقت بسببها الجماعات ، وكان من ذلك ما كان مما ستتضح حلقات سلسلته في هذا التاريخ بأجلى بيان ، لكن الاسلام الى الآن ما زال أهله في ارتقاء ، ودوله في قوة ونماء ، بعلة ارتباط السياسة العمومية بالشريعة الاسلامية ارتباطاً لا يترك للتدني على الامة الاسلامية سلطاناً ، ولا يدع للفساد في حكومتم أثراً

إذ من بحث في أصول الدين الاسلامي وشريعته الغراء علم جلائل فضل الشارع فيما شرع لاستصلاح الخلق ، وردهم الى الطريق المنجية في الدنيا والآخرة — ومن أراد الوقوف على تفصيل ذلك فعليه بكتب الاصول والفروع في الشريعة الاسلامية . إذ لا يسعنا أن نأتي في هذا الموجز بما ملأ المجلدات الضخام

من قوانين الاسلام وأحكام الشريعة . وإنما نأتي هنا بملخص إجمالي في تقسيم علوم الشريعة الاسلامية ، وقواعد كلية يتعين بها بيان فضيلة هذه الشريعة في استصلاح الخلق بالكتاب الالهي العادل الذي ملأ أكناف الارض عدلا ، مذ كان أولو الشأن في الاسلام مستمسكين بعروته الوثقى ، مستضيئين بنوره الساطع ، لايحيدون عن سننه ، ولا ينتهجون غير سبيله ، حتى استفتحوا به ممالك الارض شرقا وغربا ، واستخضعوا الشعوب لسلطانه فوجا فوجا . فمن أهم تلك القواعد التي تبين معنى ما اشتملت عليه رسالة الرسل عامة ، ومحمد عليه الصلاة والسلام خاصة، في استصلاح الخلق،وردهم الى الحق،قوله تعالى في سورة الحديد (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وقد أفاض الامام الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ، وبنى تفسيره لها على مسائل وعدة وجوه

وإجمال ما جاء في الوجه الاول منها : إن الكتاب هو الذي يتوسل به الى فعل ما ينبغي من الأفعال النفسانية ، لأن به يتميز الحق من الباطل ، والحجة من الشبهة . والميزان هو الذي يتوسل به الي فعل ما ينبغي من الافعال البدنية . فان معظم التكاليف الشاقة في الاعمال هو ما يرجع الى معاملة الخلق والميزان هو الذي يتميز به العدل عن الظلم ، والزائد عن الناقص — وأما الحديد ففيه بأس شديد ، وهو زاجر للخلق عما لاينبغي

والحاصل ان الكتاب إشارة الى القوة النظرية ، والميزان الى القوة العملية، والحديد إشارة الى دفع مالا ينبغي . ولما كانت أشرف الاقسام رعاية المصالح الروحانية ، ثم رعاية المصالح الجسمانية ، ثم الزجر عما لاينبغي ، لاجرم روعي هذا الترتيب في هذه الآية

وقال في الوجه السادس : إن الدين إما هو الاصول وإما الفروع ، وبعبارة أخرى : إما المعارف وإما الأعمال ، فالاصول من الكتاب ، وأما الفروع فالمقصود الافعال التي فيها عدلهم ومصلحتهم ، وذلك بالميزان فانه إشارة الى رعاية العدل . والحديد لتأديب من ترك ذينك الطريقين

وقال في الوجه السابع: الكتاب إشارة الى ما ذكر الله في كتابه من الاحكام المقتضية العدل والانصاف. والميزان إشارة الى حمل الناس على تلك الأحكام المبنية على العدل والانصاف، وهو شأن الملوك. والحديد إشارة الى أنهم لو تمردوا أي الناس لوجب أن يحملوا عليهما بالسيف — وهذا يدل على أن مرتبة العلماء، وهم أرباب الكتاب مقدمة على مرتبة الملوك الذين هم أرباب السيف. ووجوه المناسبات كثيرة، وفيما ذكرناه دليل على الباقي اه

ثم أتى في المسئلة الثالثة على ذكر منافع الحديد في المصالح البشرية مما لاحاجة لسرده في هذا الباب *) وانما قصدنا بايراد مجمل تفسير الآية الكريمة بيان ماجاء في هذه الآية التي هي من أهم القواعد الاسلامية من وجوب مراعاة العدل في كل شيء، وابتناء أساس الشريعة الاسلامية عليه بدليل أنها معنى ما اشتملت عليه رسالة الرسل عامة، ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام خاصة: إذ أن شريعته عليه الصلاة والسلام مبنية على العدل في سائر الاعمال. ولما كانت أهم مراتب العدل ثلاث. العدل في الاحكام الالهية فيما يرجع الى رد الحقوق وإقامة الحدود، والعدل في المعاملات بين الناس بعضهم مع بعض كاجتناب الغش والخيانة والمداهنة وغير ذلك، والعدل في التساوي بالحقوق التي يشترك بها الناس كبيرهم والصغير. فقد جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية من التنبيه على وجوب العمل بهذه المراتب مالا يسع المقام استقصاءه كما نبه أيضاً على العدل في سائر الاعمال كما ذكرنا كالعدل بمعنى القصد في المعيشة (١) والعدل بين

* » لعل الرازي أخذ من كلام للغزالي هو أسد وأوضح من كلامه خلاصته ان الذي يزع الناس عن الظلم والشر و يحملهم على القيام بالقسط الا العمل بالكتاب الالهي بمقتضى الايمان وهو الوازع النفسي وأما الحكومة التي تقيم ميزان العدل بين الناس ومن شذ عن هداية الكتاب والخضوع للعدل من البغاة وقطاع الطرق ومهددي الامن والعدل فليس له قوة الحديد تنكل به وتكفى الناس شره

وكتبه مصححه

«١» في قوله تعالى في سورة الاسراء - لاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط - الآية

النساء (١) والعدل في الكرم (٢) والعدل في الشجاعة (٣) وغير ذلك من أنواع الفضائل التي لاتحصى

وها نحن نورد ذلك بطريق الاجمال ما جاء من التنبيه على مراتب العدل الثلاث المنوه عنها من قبل ، فأولاها قوله تعالى (اعدلوا هو أقرب للتقوى) وقوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) وقوله تعالى (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة — وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لعدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة »

وثانيها قوله تعالى (وزنوا بالقسطاس المستقيم) وقوله تعالى (ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون * واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) الى غير ذلك من الآيات الكريمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ليس منا من غش »

وأما الثالثة فقوله تعالى (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقوله عليه الصلاة والسلام « لافضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى »

ثم لكيلا تحدث هذه المرتبة الثالثة خللا في أصول الوصلة العادلة بين الراعي والرعية التي من مقتضاها امتياز الوازع عن سائر الناس باقامة حدود الشرع ووجود نوع رهبة منه في نفوس الخلق ، فقد أوجب الله تعالى الطاعة له على الناس بحيث لا تكون فيما يؤدي الى الخروج عما أمر به الشارع ونهى عنه . وذلك بقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) ولا يخفى أن قرن الطاعة لأولي الأمر بالطاعة لله وللرسول دليل على مافي ذلك من المصلحة للرعية ، لأنا ندرك بالبديهة أن الطاعة لله وللرسول محض نفع راجع لأنفسنا فيما أمرا به ونهيا عنه من فعل الخير وترك الشر . لهذا قال الله تعالى (وما

«١» في قوله تعالى في صورة النساء ـ فان خفتم ان لاتعدلوا فواحدة ـ الآية

«٢» في قوله تعالى في سورة الفرقان ـ والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما

«٣» في قوله تعالى في سورة البقرة ـ ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة ـ

آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وكذا ولي الأمر فانه لما كان مرتبطاً بالشريعة فيما يأمر به ، والشريعة لا تأمر الا بعدل ، فقد وجبت له الطاعة من حيث وجبت لله وللرسول لاسيما وقد أمر الحاكم بالعدل فى قوله فتأمل

هذا ويدخل في هذه المرتبة الثالثة أي مرتبة العدل بالتساوي الاعم في الحقوق المشتركة ، العدل بالتساوي الأخص ، وهو الاخاء العمومي بين سائر المسلمين ، وذلك في قوله تعالى (إنما المؤمنون أخوة) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) ولا يخفى ما في هذا العدل من التساوي الأعم ، ثم التساوي الاخص من دواعي الألفة وبواعث التعاون في المجتمعات على جلب المنافع ودفع المضار

وبالاجمال فهذه قاعدة كلية من قواعد الشريعة الاسلامية . فانظر ماذا تفرع عنها من موجبات الخير المبني على المصلحة للأمة الاسلامية ، وعليه تقاس كل قاعدة من قواعد هذه الشريعة الغراء ، وانما اكتفينا ببيان هذه القاعدة ، وما تفرع عنها من مراتب العدل لما لها من المدخل المهم في سائر الاسباب التي قامت على دعامتها الشريعة الاسلامية ، وتشيد بسببها نظام الاجتماع والتضافر في دول الاسلام على أساس الخير والعدل الداعي الى ترقي المجتمعات الاسلامية في كل عصر

واعلم أن فيما أفادنا الشارع من العلوم على وجه الاطلاق منافع للمجتمع الاسلامي لاتقدر ، وفوائد لا يعلم أثرها في الاسلام الا مطلع على التاريخ ، متضلع في علوم الشريعة . ومن سبر تلك العلوم بمسبار الحكمة والعدل ، ونظر اليها بالنظر الصحيح علم أن ماسما بالدول الاسلامية في صدر الاسلام الى أوج الرفعة ووصل بها الى أقصى غايات الحضارة إنما هي الشريعة الاسلامية وعلومها التي مهدت طرق السعادة للبشر ، وسهلت سبل الارتقاء لأولئك الشعوب فسلكوها غير متلكئين ، وبلغوا غاية الطلب منها غير مترددين ، ونريد بتلك العلوم علم المصالح وعلم الشرائع . ويكفي في بيانها في هذا الموجز أن نأتي بملخص إجمالي في تحديدها ، ننقله اليك من كتاب حجة الله البالغة للعلامة الدهلوي مع غاية التلخيص ، تقريباً للفهم ، وتسهيلا على المتناول قال رحمه الله تعالى :

بحث في علمي المصالح والشرائع

إعلم أن الشارع أفادنا من العلم نوعين متمايزين بأحكامهما، متباينين في منازلهما، فأحد النوعين علم المصالح والمفاسد، أعني ما بينه من تهذيب النفس باكتساب الاخلاق النافعة في الدنيا أو في الآخرة، وإزالة أضدادها. ومن تدبير المنزل وآداب المعاش، وسياسة المدينة، غير مقدر لذلك بمقادير معينة، ولا ضابط مبهمه بحدودة مضبوطة، ولا مميز لمشكله بأمارات معلومة، بل رغب في المحامد وزهد في الرذائل، تاركا كلامه الى ما يفهم منه أهل اللغة، مديراً للطلب أو المنع على أنفس المصالح، لا على مظان منصوبة لها، وأمارات معرفة إياها، كما مدح الكيس والشجاعة، وأمر بالرفق والتودد والقصد في المعيشة، ولم يبين أن الكيس مثلا ماحده الذي يدور عليه الطلب، وما مظنته التي يؤاخذ الناس بها، وكل مصلحة حثنا الشرع عليها، وكل مفسدة ردعنا عنها. فان ذلك لايخلو من الرجوع الى أحد أصول ثلاثة

(أحدها) تهذيب النفس بالخصال الاربع النافعة في المعاد أو سائر الخصال النافعة في الدنيا

(وثانيها) إعلاء كلمة الحق وتمكين الشرائع والسعي في إشاعتها

(وثالثها) انتظام أمر الناس وإصلاح ارتفاقاتهم وتهذيب رسومهم

ثم أفاض في بيان معنى رجوع تلك المصالح والمفاسد الى هذه الاصول الثلاثة بما لاحاجة لسرده في هذا الباب دفعاً للتطويل ثم قال:

والنوع الثاني علم الشرائع والحدود والفرائض أعني مابين الشرع من المقادير فنصب للمصالح مظان وأمارات مضبوطة، وأدار الحكم عليها، وكلف الناس بها، وضبط أنواع البر بتعيين الاركان والشروط والآداب، وجعل من كل نوع حداً يطلب منهم لا محالة، وحداً يندبون اليه من غير إيجاب، واختار من كل بر عدداً يوجب عليهم وآخر يندبون اليه، فصار التكليف متوجهاً الى أنفس تلك المظان، وصارت الاحكام دائرة على أنفس تلك الامارات. ومرجع هذا النوع الى قوانين السياسة الملية. ثم أفاض في بيان الرجوع الى النص في هذا النوع،

وجواز القياس فيه أو عدمه بما لا يسع المقام ايراده ، وانما اقتصرنا في النقل على هذا القدر من بيان العلم الذي أفادنا إياه الشارع بوجه إجمالي توصلا لايضاح جلائل ما انطوت عليه الشريعة الاسلامية من استجماع أسباب السعادة والخير الآجل والعاجل للأمة الاسلامية – وفضلا عما تقدم فان ضرورة وجود الأحكام بازاء الحوادث التي لا تتناهى في هذا المجتمع . ولما أراد الشارع تمام الخير والتيسير لهذه الأمة بقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) فقد وسع عليهم باستنباط الاحكام من أصول الشريعة ، وتطبيقها على الحوادث التي تحدث للبشر بمقتضى سنة الترقي والانتقال ، وذلك بتجويز الاجتهاد في المسائل التي لايكون بازائها نص صريح على شروط مقررة عند أهل العلم . وقد ذكر في شرح المنار من كتب الاصول ، وفي الملل والنحل للشهرستاني : أن جواز الاجتهاد مأخوذ من قوله تعالى (فاعتبروا ياأولي الابصار) ومن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أرسل معاذاً الى اليمن « بماذا تحكم ؟ » قال : بكتاب الله قال : « فان لم تجد » ؟ قال : بسنة رسول الله قال « فان لم تجد » ؟ قال : أجتهد رأيي ، فقال عليه السلام « الحمد لله الذي وفق رسول رسوله بما يرضى به رسوله »

وهذا بحث جليل الفائدة ، طويل الشرح ، لاحاجة بنا للخوض فيه ، وانما نبهنا عليه هنا تتمة للفائدة ، وبياناً لما اشتملت عليه الشريعة الاسلامية من المزايا العظيمة في ترقي الامة الاسلامية ، وانتظام حالتيها المعاشية والمعادية . فان أنوار الحضارة والمدنيـة ، ومظاهر المجد والقوة التي ملأت أقطار العالم الاسلامي من أيام زهوه وإبان ظهوره ، لم تكن الا من فضـل هذه الشريعـة الطاهرة لا من عنديات القوم ، وقد علمت حالتهم قبل الاسلام . فالعرب منهم عرفت حالهم أيام الجاهلية .

والعجم لو كان لديهم حسن نظام لكان أولى لهم أن يصلوا هذه الدرجة أيام استفحال دولتهم وامتداد صولتهم قبل الاسلام

والروم كان قد أخنى عليهم الزمان وتلاشت مدنيتهم ، فانطوى اسمها ، ولم يكن يومئذ الا رسمها

وقولنا إنه من فضل الشريعة الاسلامية ، فذلك لما تأسست عليه من دواعي الرغبة في العلوم ، والحث عليها ، والتعاون على المصلحة العامة الاسلامية على طريق يكون فيها حفظها ، ويعلو به كعبها . فان مقاصد الشرع الاسلامي جميعها متوجهة الى منافع الانسان ، وحفظ المدنية والعمران ، بتدبير سياسة الدولة ، وإقامة شعائر الحق ، وتهذيب الأخلاق ، وتثقيف العقول ، والتماس الخير والمنفعة من وجوه العمل بما أمر به الشرع ونهى عنه

وهذا ما دعا بني العباس بعد أن استقر سلطانهم في الارض الى الاقبال على استخراج العلوم من كتب الفرس واليونان،والانتفاع بها في تسهيل أسباب العمران، بعدأن تمكن سلطان المسلمين في الارض ، وانتهت غايتهم من الفتوح الذي فتحه الخلفاء الراشدون والملوك الأمويون ، فمهدوا به سبيل الراحة والاشتغال بتدبير سياسة الدولة ، وتشييد دعائم العمران لبني العباس في الشرق وبني أمية في الغرب ، فظهر الاسلام في عصر هاتين الدولتين بمظهر بلغ الغاية من القوة والمجد ، حتى عرض لهما بعد إنهاك القوى العقلية ، والاستغراق في الشهوات ، والاخلاد الى مضاجع الراحة والفتور ، والاعراض عن مكارم الشريعة الاسلامية ما يعرض بطبيعته لهذه الاسباب في الدول . فاغتنم الاعاجم فرصة هذا الخمود وذلك الوهن، فابتزوا سلطان بني العباس في الشرق ، وحولوا مجرى السياسة الاجتماعية الى ما يشبه اللصوصية والفوضى ، حتى كان منهم في عصر واحد نحواً من عشرين دولة في قطعة صغيرة من فسيح البسيط الاسلامي تبتدىء من بغداد وتنتهي عند حدود الهند ، فكانت هذه الدول التي شيدها ملوك الطوائف على دعائم الغصب والقسوة من النقم التي أذن الله بسببها للعمران الاسلامي بالخراب ، إذ لم يكن لها دأب الا الغارة بعضها على بعض لتوسيع السلطة بسفك دماء المسلمين، والعيث في البلدان، وتخريب العمران، حتى مضت على تلك الممالك قرون وهي أشبه بمعترك تسفك فيه الدماء على غير طائل سوى

ما يتمناه اللص عادة من سلب يسد به نهمته ، أو بلغة يسكن بها ثائر شهوته البهيمية ، مع أن أولئك الملوك سامحهم الله قد كان لهم في بسيط الهند والصين شرقا ، والخزر وكرجستان والروس شمالا ، مايغنيهم عن تزاحم المناكب في أرض أضيق على شهواتهم من سم الخياط ، ولكن ضلت منهم العقول فلا هادي لها ، وسدت بفساد الرأي دونهم المسالك ، فقضت على دولهم بالدمار والتدمير ، وأنهت أمرهم بسرعة الاضمحلال والمحو والزوال ، كما ستراه مفصلا في هذا التاريخ ، وهذا أقل جزاء الظالمين

وكذلك أصاب ملك دولة الامويين في المغرب ما أصاب العباسيين في المشرق من التجزئة والانقسام ، فحال حالهم ، وانتهت بالزوال دولتهم ، وفي كل ذلك من العبر مايقضي بتنبيه الشعور والاحساس ، (وتلك الايام نداولها بين الناس) انتهى ماقصدت إيراده في هذا التمهيد وهذا موجز سيرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام

موجز السيرة النبوية

نسبه الشريف

هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

وينتهي نسبه الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام . وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن هاشم

مولده

ولد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل الموافق ١٠ نيسان سنة ٦٥٩ ب . م وكان مولده في مكة وتوفي أبوه عبدالله وأمه حامل به ، وتوفيت والدته وعمره ست سنين ، وأول مرضع أرضعته

ثويبة مولاة أبي لهب ثم دفعوه الى حليمة السعدية فارضعته سنتين وردته الى أمه وجده عبد المطلب وهو ابن خمس سنين ، وتوفى جده عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين وكان كافله فكفله بعده عمه أبو طالب بوصية من عبد المطلب اليه ، لما كان يرى من بره به وشفقته وحنوه عليه ، وكان لمولده صلى الله عليه وسلم آيات كثيرة مستفيضة في كتب السير والأخبار صحيحة الاسناد لم نرد سردها هنا خوف التطويل . وكان لجده عبد المطلب السقاية والرفادة وهما من وظائف الكعبة. وكان معظما من قومه شريفا فيهم مهابا مبهم الا أنهم كانوا يحسدونه على أمور ، منها اكتشافه بئر اسماعيل عليه السلام وهي بئر زمزم (وقد كانت مردومة من قبل) واقبال العرب على السقاية منها دون غيرها من الآبار ، وكان كمون هذا الحسد في نفوس قومه من جملة البواعث على مقاومتهم لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام وتثبيطهم الناس عنه كما سترى فيما يلي

نشأته

نشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجر عمه أبي طالب وكان من أعظم الناس حنواً عليه ، وحبا له ، حتى انه خرج مرة الى الشام فلزمه رسول الله صلى عليه وسلم فرق له وأخذه معه ، وكان له من العمر يومئذ تسع سنين . وكان عليه الصلاة والسلام منذ صغره محباً للجد ، بعيداً عن السفاسف ، مزدريا لعبادة قريش للأصنام ، تلوح عليه دلائل النبوة ، وتظهر من ملامحه آيات الكمال الذي خصه الله تعالى بها ، ليقوم باعباء الرسالة التي برزت أشعتها من الحجاز ، فامتدت الى اليمن والعراق وفارس والهند والصين وجزائر المحيط شرقا وجنوبا ، والشام وآسيا الصغرى وأوربا ومصر وأفريقيا شمالا وغربا (١) وكان عليه الصلاة والسلام

(١) ان دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تقف عند هذا الحد بل لكونها عامة فقد تجاوزت هذه القارات الى اميركا وهي منتشرة هناك كما لا يخفى الآن والظاهر انها اى الدعوة دخلت اميركا قبل اكتشاف الاوربيين لها بازمنة طويلة بواسطة العرب فقد اخبرني ثقة انه بينما كان جالسا يوما مع جماعة من الافاضل

لايأتى شيئا من شعائر الجاهلية ، ولا يقبل عادةمن عوائدهم القبيحة . وقال صلى الله عليه وسلم « ماهممت بشيء مما كان الجاهليـة يعملونه غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبينه » وكان صلى الله عليه وسلم يتجر مع عمه أبي طالب وتزوج بخديجة بنت خويلد وهو ابن خمس وعشرين سنة . وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الحديث والامانة وكرم الاخلاق ، أرسلت اليه ليخرج فى مالها الى الشام تاجراً و تعطيه أفضل ماكانت تعطي غيره مع غلامها ميسرة ، فاجابها وخرج . فلما عادالى مكة ربحت خديجة ربحاً كثيراً . ولما أراد الله ما أراد من كرامتها أرسلت اليه فعرضت عليه نفسها للزواج . فقال صلى الله عليه وسلم لاعمامه وخرج ومعه حمزة بن عبدالمطلب وأبو طالب وغيرهما من عمومته حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها اليه فتزوجها فولدت له أولاده كلهم ـ الا ابراهيم ـ زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم ـ وبه كان يكنى ـ وعبدالله والطاهر والطيب فهلكوا فى الجاهليـة وأما بناته فكلهن أدركن الاسلام فأسلمن وهاجرن معه

﴿ ابتداء رسالته ونزول الوحي ﴾

بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم لعشرين سنة مضت من ملك كسرى ابرويز هرمز بن أنو شروان وأنزل عليه الوحي كما فى رواية ابن عباس وله من العمر أربعون سنة وذلك لثماني عشرة ليلة خلت من رمضان وقيل لتسع عشرة

عند الدكتور فانديك الشهير في بيرت جاءه البريد ففتحه وأخذ يتصفح الكتب فاظهر من واحد منهم اندهاشا عظيما ثم ابرز للجماعة رسما فوتوغرافياورده ضمن ذلك الكتاب وقال لهم انظروا هذه العجيبة التي هى من عجائب اسلافكم العرب المسلمين الذين سبقوا الافرنج باجيال الى اكتشاف قارة اميركا العظيمة فنظروا واذا به رسم محراب وعليه آيات قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي القديم فاخبرهم ان هذا المحراب اكتشف في احدى الخرائب في اميركا « ولم يعين لهم الجهة او نسيها الراوي » قال وإن صاحبا لي احب اخباري بذلك فارسل لي هذا الرسم والكتاب مفصلا فيه كيفية الاكتشاف. فاندهش الجماعة من هذا الامر غاية الاندهاش

ليلة خلت منه . وكان صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي يعاين آثاراً من آثار من يريد الله اكرامه بفضله . وعن عائشة رضي الله تعالى عنها ان أول مابديء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجع لاهله فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق ، فاتاه جبريل وهو فى الغار ، فقال : يامحمد أنت رسول الله، فجثي لركبتيه ثم رجع ترجف بوادره ، فدخل على خديجة فقال: زملوني زملوني ثم ذهب عنه الروع ، ثم أتاه ثانياً ، وكان أول مانزل به عليه من القرآن (ياأيها المدثر قم فانذر) وفى رواية أن أول مانزل من القرآن (اقرأ باسم ربك) وكان أول شيء فرض الله من شرائع الاسلام عليه بعد الاقرار بالتوحيد ، والبراءة من الاوثان، الصلاة . وقد اختلف فى أول من أسلم مع الاتفاق فى أن خديجة أول خلق الله اسلاما فقال قوم أول ذكر اسلاما على بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه وقال قوم اولهم اسلاما ابو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وللشيعة فى سابقة علي رضي الله عنه أسانيد بنوا عليها مطالبهم فى جملة مابنوا في أمر الخلافة التي كان الخلاف عليها أول خلاف وقع فى الاسلام ، وبعد ان كانت المسئلة مسئلة سياسية يراد بها الانتصار لعلي فى تولي الخلافة ، والنظر فى شؤون الأمة، جعلها الشيعة مع التمادي والتدريج نحلة دينية ، فرقوا بسببها كلمة الاسلام ، وبنوا عليها من الاوهام ماستراه مفصلا ان شاء الله

وبالجملة فالمتفق عليه أن أول الناس اسلاما خديجة. ثم أبو بكر وعلي ابن طالب وزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلال بن حمامة مولى أبي بكر ثم عمر بن عنبسة السلمي وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية ثم أسلم بعد ذلك قوم من قريش ممن اختارهم الله لصحبته من سائر قومهم ، وكان أبو بكر محببا سهلا ، وكانت رجالات قريش تألفه فاسلم على يديه من بني أمية عثمان بن عفان ، ومن عشيرة بني عمرو بن كعب طلحة بن عبيد الله ، ومن بني زهرة سعد بن أبي وقاص ، وغيرهم كثيرون

﴿ اظهار دعوته ﴾

ثم إن الله تعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما يؤمر وكان قبل ذلك في السنين الثلاث مستتراً بدعوته لا يظهرها الا لمن يثق به ، فكان أصحابه اذا أرادوا الصلاة ذهبوا الى الشعاب فاستخفوا فبينما سعد بن أبي وقاص وعمار وابن مسعود وخباب وسعيد بن زيد يصلون فى شعب طلع عليهم نفر من المشركين ، منهم أبو سفيان بن حرب ، والاخنس بن شريق وغيرهما ، فسبوهم وعابوهم حتى قاتلوهم ، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحي جمل فشجه ، فكان أول دم أريق في الاسلام. ولما نزلت (وأنذر عشيرتك الاقربين) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد على الصفا ، فهتف ياصباحاه فاجتمعوا اليه فقال ، يابني فلان ، يابني فلان ، يابني عبد المطلب يابني عبد مناف فاجتمعوا اليه فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح الجبل ، أكنتم مصدقي قالوا نعم ، ماجربنا عليك كذبا قال . فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب : تبا لك ماجمعتنا الا لهذا ثم قام، فنزلت (تبت يدا أبي لهب) السورة وقيل لما أنزل الله وأنذر عشيرتك الاقربين ، اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعا ، فجلس في بيته كالمريض ، فأتته عماته يعدنه فقال : مااشتكيت شيئا ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الاقربين ، فقلن له فادعهم ولا تدع أبا لهب ، فانه غير مجيبك ، فدعاهم صلى الله عليه وسلم فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلا ، فبادره أبو لهب وقال ، هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصبأة ، واعلم انه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وأن أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك ، وان أقمت على ماأنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب ، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم في ذلك المجلس ثم دعاهم ثانية ، وقال الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له . ثم قال إن الرائد لايكذب أهله ، والله الذي

لا إله الا هو إني رسول الله اليكم خاصة والى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وانها للجنة أبدا أو النار ابداً ، وكان عمه ابو طالب ممن ينصره ، ويود نشر دعوته ، وكان بالجمع فقال ، ماأحب الينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وانما أنا أحدهم غير اني اسرعهم الى ماتحب ، فامض لما أمرت به ، فوالله لا أزال احوطك وامنعك ، غير ان نفسي لاتطاوعني على فراق دين عبد المطلب فقال ابو لهب ، هذه والله السوء ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم فقال أبو طالب والله لنمنعه مابقينا

ومن ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدع بما أمر ، ويدعو الناس الى الاسلام ، وعمه أبوطالب يمنعه ويقوم دونه ، ولتظاهر قريش بعداوته وإيذائه قصة طويلة ليس هذا موضع ذكرها ، والكلام عليها مبسوط في السير فليراجع — وما زال عليه الصلاة والسلام قائما بهـذه الدعوة حتى كثر أصحابه وأصبح منهم في منعة تقيـه شر قريش وأحلافها . فأخـذ يدعو العرب كافة الى الاسلام في المواسم ، ويتحداهم بالمعجزات ، ويأتيهم بآيات النبوة البينات . وفي غضون ذلك ينزل عليه القرآن بشرائع الاسلام نجوما أعجزت العرب بلاغتها ، وخلبت منهم العقول فصاحتها . فساء ذلك قريشاً ، وخشوا على سلطتهم الدينية ، بما أنهم سكان الحرم وفيهم السدانة ، وعندهم البيت المقصود من أن تزول عنهم بزوال عبادة الاوثان ، وانتشار شريعة الاسلام ، فجدوا في مناصبة النبي صلى الله عليه وسلم العداوة ، ووقفوا له ولأصحابه في كل مرصد وواد ، وهو صلى الله عليه وسلم صابر على أذاهم ، موقن بانتصاره عليهم لما أنه على الحق ، وهم على الباطل ، ولما رآه من أن العرب انمـا كان يحول بينهم وبين الاسلام قريش وأحلافها ، ومتى تمكن من قريش أقبلت العرب على التـدين بدينه الطاهر ، لما تأكد عندهم من صدق نبوته ، وما رأوه من كمال الخير في شريعته

وبعد أن يئس من استجلاب قريش بالتي هي أحسن ، واشتدت عليه نكايتهم ، وعظم على أصحابه اذاهم ، أمر بالهجرة الى مدينـة يثرب ، فهاجر

وأصحابه اليها . ومن ثم ظهرت دعوته عليه الصلاة والسلام بمظهر أهم وأعم كما سترى

﴿ هجرته ﴾

قد رأيت فيما سبق من تفسير قوله قوله تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب) الآية أن الشرائع بمعناها المضاف الى القصد الحقيقي من وضعها للبشر قوة تدعو الى فعل ما ينبغي وترك مالا ينبغي ، وإن القصد منها أن يقوم الناس بالقسط أي العدل في جميع الأعمال البدنية والنفسانية

وهذا عين الحكمة في استصلاح الخلق ، وردهم الى الطريق المنجي ، تارة بالزجر وتارة بالترغيب — وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لما كان مبنى رسالته على هذا القصد ، فقد دعا قومه كما سبقت الاشارة اليه بالحكمة والموعظة الحسنة تلك السنين الطوال كما أمره ربه بقوله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) الآية . ولما لم تنجع فيهم الموعظة ، واشتدوا في إيصال الأذية اليه والعناد له ، عزم على الهجرة الى المدينة ، والامتناع بالأنصار ليأخذ بالزجر على أيدي قريش الذين كانوا مناصبيه العداوة والحرب ، والحائلين بينه وبين سائر الناس ، وكان خرج في الموسم على عادته ليدعو الناس الى الاسلام، فلقى رهطاً من الخزرج عند العقبة ، وفيهم سعد بن معاذ ، فأسلموا واستوثق منهم ، فعادوا الى المدينة وبثوا بين أهلها الاسلام ، ثم تواعد جماعة منهم على أن يأتوه في الموسم القابل مستخفين ، فساروا الى مكة وواعدوه أواسط أيام التشريق بالعقبة ، وخرجوا في الموعد يتسللون ، وجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ لم يسلم في ظاهر الأمر ، يريد أن يستوثق له من الانصار ، فكان العباس أول من تكلم فقال : يامعشر الخزرج (١) إن محمداً منا حيث قد علمتم في عزة ومنعة ، وانه قد أبى الا الانقطاع اليكم ، فان كنتم ترون أنكم مانعوه فأنتم وذاك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه ،

(١) كان العرب يسمون الاوس والخزرج بهذا الاسم اى الخزرج تغليبا

فمن الآن فدعوه ، فانه في عز ومنعة ؟ فقال الانصار : قد سمعنا ماقلت، فتكلم يارسول الله وخذ لنفسك وربك ، فتكلم وتلا القرآن ، ورغب في الاسلام، فما منهم الا من بايعه ، وانصرفوا فبلغ قريشا ذلك ، فسقط في أيديهم، ودبروا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج هو وصاحبه أبو بكر يريد المدينة وتبعه جماعة من قريش ، فنجاه الله منهم ، وذلك بعد أن كان تتابع أصحابه الى الهجرة، ولم يتخلف في مكة معه من أصحابه سوى أبي بكر وعلي رضي الله تعالى عنهما

ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة استبشر به الانصار رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم ، ووفوا له بما وعدوا ، وقاموا بنصرته ، وشدوا أزره ، جزاهم الله عن الاسلام خير الجزاء

وكان أول ما بدأ به أن وفق بين الأوس والخزرج ، وأزال اختلافا كان بين القبيلتين حتى لم يختلفا بعدها . ومن ثم أخذت قريش تناصبه الحرب ، وتثير عليه الفتنة بين العرب لتجمع لقتاله الجموع ، فكان من تمام حكمة موازرة القوة للشريعة أن شرع الجهاد فى شريعته الغراء على وجه فيه من التخفيف ماهو مبسوط فى رسالتنا (بيان كيفية انتشار الأديان) المطبوعة حديثاً فى مصر ، وجعلت تنزل عليه آيات الجهاد تباعا على مقتضى الظروف والاحوال ، وكان من حكمها قتال مشركي العرب على الاسلام ، وقتال أهل الكتاب على الجزية أو الاسلام . وذلك بعد أن اشتد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم بايذائه وظلمه وظلم أصحابه بدليل قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير) ولنا فى هذا الباب كلام طويل فى رسالتنا المذكورة ، فليراجعه من أحب الوقوف عليه — وإجماله لايخرج عن مؤدى الآية الكريمة التي سبق تفسيرها فى هذه المقدمة ، وهي تأسيس أحكام الرسالة على استصلاح الخلق بالكتاب ليقوموا بالقسط ، وإن أبوا يرجع معهم الى الزجر ، وهذا انما يكون بتمكين الله رسوله ومن آمن به فى الارض ، ومتى تمكنوا فيها، واستتب سلطانهم عليها ، تمكنوا من الأخذ بالزجر على أيدي المخالفين ، وإرشادهم وإرجاعهم الى طريق الحق المبين ، وهذا معنى قوله تعالى (الذين إن مكناهم في الأرض

أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور) وفيما شرع فى تلك الآية أي آية الرسل ما يغني بالافادة عن الاعادة

لهذا جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يبث السرايا فى أطراف الحجاز إرهاباً لقريش ومن حالفها ، واظهاراً لقوة المسلمين ، وغزا بنفسه الشريفة غزوات كثيرة ليس هذا موضع ذكرها . وكان يحب الرفق فى الجهاد فيوصي أصحابه بأمور كثيرة (منها) أن لايجهزوا على جريح ولا يتبعوا فاراً ولا عسيفاً(١) ولا يقتلوا امرأة ولا طفلا ، ولا يمثلوا بانسان ، ولا يضروا بزرع أو نخل ، وغير ذلك من الوصايا التي محت ظلمة الفظاظة فى الحرب عند الجاهلية ، وابعدت القساوة البدوية عن نفوس الفاتحين من الصحابة ، فمهدت لهم سبيل الفتوح ، وأخضعت لهم الشعوب

وبلغ من عداوة قريش له يومئذ أن حالفوا على قتاله كثيراً من القبائل(٢) وغزوه وأصحابه فى المدينة فى السنة الخامسة من الهجرة ، فنصره الله عليهم وفرق شملهم فى وقعة الاحزاب المشهورة . ومن ثم انكسرت شوكة قريش وفترت عزائمهم ، وقصد النبي صلى الله عليه وسلم العمرة فى السنة السادسة من الهجرة فسار ومعه جماعة من المهاجرين والانصار ، ومن تبعه من الاعراب الف وخمسمائة وساق الهدي معه سبعين بدنة ليعلم الناس أنه انما جاء زائراً للبيت ، فلما بلغ عسفان لقيه بسر بن سفيان الكعبي فقال : يارسول الله هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فاجتمعوا بذي طوى يحلفون بالله لاتدخلها عليهم أبداً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياويح قريش ، قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس ، فان أصابوني كان الذي أرادوا ، وان أظهرني الله دخلوا فى الاسلام وافرين ، والله لاأزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة »

وفى قوله هذا صلى الله عليه وسلم دليل على ما سبق من قولنا : ان قريشاً

«١» لاجهاز على الجريح اتمام قتله والعسيف الاجير «٢» اي امدان عجزوا عنه بانفسهم في بدر واحد

كانوا يحولون بين الناس وبين الاسلام — ومن الناس من كان يجاري قريشاً يومئذ رهبة منهم ، ومن الناس من كان يجاريهم رغبة فيهم ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ، وأصفت له قريش وأسلموا ، وأرسل دعاته يدعون العرب الى الاسلام ، أخذت العرب تفد عليه لقبول الاسلام من كل فج حتى نزل قوله تعالى فى ذلك (اذا جاء نصر الله والفتح) الآية

هذا — ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على غير الطريق التي هم بها وسلك ذات اليمين حتى بلغ مهبط الحديبية ، فبركت به ناقته ، فنزل هناك وأتاه عروة بن مسعود الثقفي سفيراً من قبل قريش ، وبعد مفاوضات كثيرة تقرر أن تكون هدنة بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنين ، فكتبت العهدة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، وسميت عهدة الحديبية ، وهي أول عهدة كتبت في الاسلام ، ونحر النبي صلى الله عليه وسلم بدنه(١) هناك ، ثم عاد الى المدينة فكان من دخل في الاسلام بعد عهدة الحديبية الى عام الفتح — وهما سنتان — مثل من دخل فيه قبل ذلك أو أكثر كما أجمع على ذلك المؤرخون ، وفيمن أسلم من وجوه قريش يومئذ خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة .

وكان المسلمون يوم الحديبية لا يشكون في الفتح لما رأوا من قوتهم وضعف أمر قريش ، فلما كتبت العهدة دخل عليهم من ذلك أمر عظيم حتى كاد يهلك بعضهم ، ولما رأوا تتابع الناس على الاسلام بعد العهدة علموا أنه الفتح بعينه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم على علم بما يعقب المهادنة من مخالطة الناس للمسلمين ، وأن تغلب الحجة الاقناعية وقتئذ تكون أقرب لمقاصد الشريعة من تغلب القوة التي انما يرجع اليها بعد اليأس من خضوع العدو لسلطان المسلمين وبرهان الدين ، وأن غايته صلى الله عليه وسلم حقن دماء قريش ، وأخذهم اليه بعد بالموعظة والتذكير والتفرغ من ثم الى إتمام نشر دعوته بين الناس في سائر الاقطار

وقد كان ذلك كذلك ، فانه صلى الله عليه وسلم لما استقر بالمدينة ، وأمن جانب

---

(١) البدن بالضم جمع بدنة بالتحريك وهي الناقة والمراد ببدنه الهدي الذي ساقه الى الحرم وهو سبعون بدنة كما تقدم .

قريش ، وأخذت تفد عليه وجوه العرب للاسلام ، فكثر المسلمون واعتزوا ، شرع في إرسال الرسل ومعها الكتب الى ملوك الارض يدعوهم بها الى الاسلام فكتب بذلك الى قيصر ملك الروم ، وهرقل ملك الشام ، والمقوقس ملك مصر ، والنجاشي ملك الحبشة ، والحارث الغساني أمير بصرى بالشام ، وكسرى ملك الفرس ، والمنذر بن ساوى والي البحرين للفرس ، وهوذة الحنفي ملك اليمامة وغيرهم ، فمنهم من رد عليه رداً جميلا كالمقوقس ، ومنهم من أسلم كالنجاسي أسلم عن يد جعفر بن أبي طالب ، ومنذر بن ساوى أسلم وأسلم معه أهل البحرين كافة ، وأما كسرى وقيصر وغيرهم فأبوا إلا هرقل ، ففي رواية أنه أسلم سراً ، وكذا مقوقس مصر

وفي السنة الثامنة من الهجرة نكثت قريش العهد الذي بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغزاهم في مكة ونصره الله عليهم ، فكسر أصنامهم وأذل طغاتهم ، فأسلموا جميعاً ، وكان ذلك آخر العهد بعجرفتهم الجاهلية ، وأذاهم للمسلمين ، الا من كان منهم يبطن الحسد والنفاق وما هم بقليل ، فان ضرر هؤلاء اتصل بالاسلام حتى الى ما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم تخل من فتنة لهم يد بعد كما سترى في هذا التاريخ ، سيما فيما وقع من النزاع على الخلافة ، وما تلاها من حادثة قتل عثمان رضي الله تعالى عنه التي دبرها المنافقون من بني أمية وسببوها ، واتهموا بها بني هاشم ليحملوا الناس على بغض علي رضي الله تعالى عنه ونزع الخلافة منه

وفي السنة التاسعة من الهجرة بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هرقل ملك الروم ومن عنده من متنصرة العرب قد عزموا على قصده بأمر قيصر ، فتجهز هو والمسلمون وساروا الى الروم ، وكان الحر شديداً ، والبلاد مجدبة ، والناس في عسرة ، فأظهر كثير من المنافقين التأفف من هذه الغزوة ، وتباطأوا عن المسير . وقال قائل من المنافقين : لاتنفروا في الحر ، يريدون بذلك تثبيط الناس عن معونة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى (وقالوا لاتنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عالما بأولئك

المنافقين ، واقفاً على أحوالهم ، وإشعاراً للناس بعلمه بهم ، ووقوفه على بواطن أمرهم ، نزلت عليه آيات كثيرة من القرآن بتقريع أولئك المنافقين والاشارة اليهم ، وانما قبلهم صلى الله عليه وسلم وأغضى عنهم مع علمه بأحوالهم وتحذيره منهم لأسباب كثيرة لاتخفى حكمتها على البصير

ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم تجهز وأمر بالنفقة في سبيل الله ، وأنفق أهل الغنى ، وأنفق أبو بكر رضي الله تعالى عنه جميع مابقي عنده من ماله ، وأنفق عثمان رضي الله تعالى عنه نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم منها ، قيل : كانت ثلثمائة بعير وألف دينار ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ولحقه كثير من المتخلفين ، وكان ممن تخلف في الطريق إذ وقف به بعيره أبو ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه ، فتركه ولحقه ماشياً ، فنظر الناس فقالوا : يارسول الله هذا رجل على الطريق وحده فقال : « كن أبا ذر » فلما تأمله الناس قالوا : هو أبو ذر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ، ويشهده عصابة من المؤمنين » فلما نفى عثمان أبا ذر رضي الله تعالى عنهما أيام خلافته الى الربذة أصابه بها أجله ، ولم يكن معه الا امرأته وغلامه فأوصاهما أن يغسلاه ويكفناه ثم يضعاه على الطريق ، فأول ركب يمر بهما يستعينان به على دفنه ، ففعلا ذلك فاجتاز بهما عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق فأعلمته امرأة أبي ذر بموته فبكى ابن مسعود وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك ، ثم واروه

ولنفي أبي ذر رضي الله تعالى عنه قصة ينبغي ايرادها لما فيها من العبر ، وذلك أن الشريعة الاسلامية قد فرضت العدل في سائر الأعمال كما قدمنا ، فمن ذلك أن ما كان يغنمه المسلمون ويفيئه الله عليهم كان يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسه ليوضع في بيت المال ، ويستعان به على قوة المسلمين ومصالحهم ويواسي به الفقير والبائس، ومن لاقدرة له على الغزاة أو التعيش من المسلمين(١)

«١» لقوله تعالى في سورة الانفال ـ واعلموا ان ماغنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى والمساكين وابن السبيل ـ ومن اراد التفصيل فعليه بأبواب قسمة الغنائم من كتب الحديث

والاربع أخماس الاخرى توزع على الجيش سهاما بالعدل ، فكان المسلمون كلهم سواء في التمتع بما يفيئه الله على المسلمين لايميز أحدهم على الآخر ، ومضت على ذلك مدة الخلفاء الراشدين حتى اذا كان معاوية رضي الله تعالى عنه واليا على الشام من قبل عثمان رضي الله تعالى عنه ، وكان أبو ذر مقيما فيها منذ نفاه اليها عثمان رضي الله عنه ، ورأى يومئذ من العرب فساد النحائز ، وتغير الفطرة البدوية بالاقبال على طريق البذخ في المعيشة ، وترك القصد فيها ، واكتناز الاموال في بيت المال ، والتقتير على المسلمين ، وكان ورعا تقيا ، شديد الحرص على الشريعة ، محبا لمواساة المسلمين ، وإقامة شعائر العدل بينهم ، ساءه ذلك ، وأخذ يبين للناس ما صارت اليه الحالة من خرق حرمة العدل وحب الأثرة ، وقابل معاوية رضي الله تعالى عنه بما ساء من الكلام ، وحذره عاقبة الامر فخافه معاوية على نفسه لئلا يفتتن بمقالته هذه الناس ، ويقلبوا للأمويين ظهر المجن ، فشكاه الى الخليفة عثمان رضي الله تعالى عنه ، وذكر له ما يقوله أبو ذر ويدعو الناس اليه من مقالته ، فأمره عثمان بنفيه الى الربذة فنفاه ، وقيل : بل أمره باشخاصه اليه فأشخصه الى عثمان في المدينة ، فسأله عما يقوله بحقه معاوية ، فلم يتردد وأنكر على عثمان رضي الله تعالى عنه مثل ما أنكر على معاوية ، فنفاه الى الربذة ، وكان من أمره ما كان — مع أن ما فعله أبو ذر لم يكن من مقالته أو شيء من عنده ، بل هو ما أمرت به الشريعة الاسلامية . وانما دعاه الى قول ما قال عدم مبالاته في قول الحق . وقد نقل عنه الامام الغزالي في الاحياء أنه قال : أوصاني خليلي عليه السلام بصلة الرحم وان أدبرت ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرّاً — ولما رأى أن استغراق العرب في الشام بملاذ الدنيا كاد ينسيهم قاعدة العدل في المعيشة ، ويأخذ بهم الى طرق الرفاه والبذخ ، وحب الأثرة الذي يفسد عليهم الامر ، أراد تنبيههم الى أصل الوارد في الشريعة ، وتقويم ما اعوج من أمرهم ، فتابعه على ذلك حزب كبير يومئذ من أهل الشام حتى كاد يتفاقم الأمر على معاوية رضي الله تعالى عنه ، فلم ير وسيلة لدفعه الا باتهامه بأنه يقول مقالة جديدة في الاسلام ، ولو صح ماقاله عنه معاوية رضي الله تعالى عنه لكان أبوذر

رضي الله تعالى عنه مؤاخذاً بذلك ، ويعذر معاوية بنفيه . ولكن شتان بين تهمة معاوية له وبين ما كان يريده أبو ذر من إقامة شعائر الاسلام (١) القاضية في أصل الوضع بالعدل في سائر الأعمال إلا أن أبا ذر تطرف يومئذ في القول واشتط في طلبه في عهد تغير فيه الحال عن عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا جرم أن لمعاوية فيما صنع بأبي ذر رضي الله تعالى عنهما رأيا واجتهاداً لا يخلوان من حكمة ، والا لما كان عثمان رضي الله تعالى عنه تابعه على رأيه بأبي ذر . إذ أن القوم كانوا قريبي عهد برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وناصري شريعته ، ورافعي راية الاسلام ، فلا يتصور تجاوزهم حدود الشرع ، ولعلها من قبيل أن الشكوى ليست على قدر البلوى

ومعناه أن الشعب كلما كان متمتعاً بنعمة الراحة والحرية ، يرى الجزئيات من هفوات الحكام كليات ، فيشكو منها طلباً لما هو أرقى من حالته . وشاهدنا على ذلك أوربا الآن ، فان أهلها مع ما هم عليه من التمتع براحة الحرية والعدل مازالت تقوم فيهم الجمعيات كالاشتراكيين ومن نحا منحاهم ، وينادون بالشكوى طلباً للأرقى ، إلا أنه شتان بين مباديهم التي تأسست على القوة والمغالاة المطلقة عن كل قيد . ومبادىء الاسلام التي تأسست على الكتاب والسنة والاعتدال في كل شيء

هذا ولنعد الى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه ما زال سائراً بالجيش حتى بلغ تبوك فأتى يوحنا بن روبة فصالحه على الجزية ، وصالحه غيره من أهل تلك النواحي عليها كذلك . ثم لما لم ير للروم أثراً قفل صلى الله عليه وسلم راجعاً الى المدينة ، وهناك أخذت تفد عليه وفود العرب للاسلام ، وكان كلما أسلمت قبيلة بعث معها من المسلمين من يعلمها شعائر الاسلام ، وبعث كذلك عمالا من أصحابه على الصدقات . وأخذ الاسلام يظهر بمظهر القوة والاعتزاز ،

«١» كان عند أبي ذر مغالاة بالاقتصاد في امر المعيشة نشأت عن ميله الشديد الى اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم واستبقاء العرب على حالة لا تشوبها زخارف الدنيا كما ترى ذلك مفصلا في سياق قصته هذه فى خلافة عثمان رضي الله عنه وانما المناسبة دعتنا لا يراد ما اوردناه من قصته فى هذا الموضع الآن

وشرائعه تنزل تباعا على مقتضى الظروف والأحوال ، حتى استكملت شريعته الطاهرة أسباب السعادة الدنيوية والاخروية للبشر ، وتأسست على قواعد قام فيما بعد على كل قاعدة منها مملكة في الاسلام ، وتشيدت عليها صروح المدنية الاسلامية في منصرم الايام . وكانت آخر آية نزلت من القرآن على قول بعضهم (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا)

حجة الوداع

في سنة عشر من الهجرة حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وخطب فيها خطبته الشهيرة التي بين فيها للناس بيانا شافيا ، وذكرهم تذكيراً وافياً ، لعلمه صلى الله عليه وسلم بقرب الاجل ، وانه أدى الامانة ونصح الامة، وشرع لهم من الشرع ماينجح أمورهم ، ويسهل سبل السعادة لهم ، وأهمية تلك الخطبة تدعونا لايرادها في هذا الباب ، نقلا عن تاريخ ابن خلدون . قال خرج النبي صلى الله عليه وسلم الى حجة الوداع في خمس ليال بقين من ذي القعدة ، ومعه من أشراف الناس ، ومائة من الابل عريا ، ودخل مكة يوم الاحد لاربع خلون من ذي الحجة ولقيه علي بن أبي طالب بصدقات نجران فحج معه ، وعلم صلى الله عليه وسلم الناس بمناسكهم ، واسترحمهم وخطب الناس بعرفة خطبته التي بين فيها مابين . حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس اسمعوا قولي فاني لاأدري لعلي لاألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وحرمة شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وان كل ربا فهو موضوع، ولكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون . قضى الله انه لاربا . ان ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله ، وان أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان مسترضعا في بني ليث فقتله بنو هذيل، فهو أول ما ابدأ من دم الجاهلية

« ايها الناس . إن الشيطان قد يئس أن يعبد بارضكم هذه أبداً ، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم (انما النسيء زيادة في الكفر) الى — فيحلوا ماحرم الله — ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض ، وان عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد الذي بين جمادى وشعبان

أما بعد أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لايوطئن فرشكم أحداتكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فانهن عندكم عوان لايملكن لانفسهن شيئاً، وانكم انما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي فاني قد بلغت قولي وتركت فيكم ماان استعصمتم به فلن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولي واعلموا أن كل مسلم أخو المسلم وأن المسلمين اخوة فلا يحل لأمرىء من مال أخيه الا ماأعطاه اياه عن طيب نفس. فلا تظلموا أنفسكم. ألا هل بلغت؟ فذكر انهم قالوا اللهم نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أشهد. وكانت هذه الحجة تسمى حجة البلاغ وحجة الوداع اه

فانظر يارعاك الله الى هذه الوصية ، كم حوت من بدائع الاحكام والحكم واعتبر بشريعة استوصت بالمرأة ، وابانت عن مساواتها بالحقوق مع الرجل ، منذ ثلاثةعشر قرنا ،والغربيون الآن يقولون إن المرأة في الشرق عموما ،والاسلام خصوصا ، منحطة بالحقوق عن الرجل مهانة منه . ولما استوصى الاسلام بالمرأة علم الله بما كان عليه حالها من الدناءة والاستعباد في الغرب ، وانما عرف الغربيون حقوق المرأة في هذه القرون المتأخرة ، فلله مايفعل التعصب والغرض ، فانه يعمي ويصم ، وناهيك بما جاء في القرآن الكريم ، من الأمر بحسن معاملة النساء وصيانة حقوقهن . فمن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة (ولهن مثل الذي عليهن

بالمعروف) وقوله في سورة النساء (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) الآيات

وأنى لنا استقصاء حسنات هذه الشريعة في هذا الموجز ، اذ في كل كلمة منها سبب يستمسك به لارتقاء معارج المدنية وتسنم ذروة الحضارة وترتيب نظام المجتمع الاسلامي ، ولكن ما الحيلة في جانب تغلب الحظوظ النفسية التى سببت فساد الاخلاق وارتباك النظام في بعض القرون الاسلامية، فاورث بنا الى ما نحن عليه الآن من التقهقر لازدرائنا العلم والفضائل ، وتركنا للجد في إقامة شعائر السنة المحمدية ، التي وصل بها أسلافنا الى أعلا ذرى الحضارة والتمدن، باستجماعهم لسائر اسباب القوة المادية والادبية التي أرشدتهم الى استجماعها الشريعة الاسلامية ، ولله في خلقه شؤون

أخلاقه ونبذة من سننه

كان النبي محمد عليه الصلاة والسلام شجاعا صبوراً وقورا حليما بارا بالمسلمين شفوقا عليهم ، محبا لاصحابه ، مواسياً لهم ، حسن العشرة ، عظيم الهيبة مع التواضع الذي كان عليه . وقد بلغ من تواضعه ماروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها انها قالت : كان النبي اذا كان في بيته في مهنة أهله ـ أي في خدمتهم ـ وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعلف ناضحه ، ويقم البيت أي يكنسه ، ويعقل البعير ويأكل مع الخادم ، ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق

وقد صنف العلماء كتبا في شمائله ومكارم أخلاقه ، فماذا نستقصي منها وقد قال عليه الصلاة والسلام « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » وكفى بانه شرع لنا من الشرع ، وسن لنا من السنن ، مايشهد بجليل قدره ، وعظيم فضله على أمته . فانه لم يترك فعلا حسنا الا حثنا عليه ، ولم يدع خلقا جميلا الا أرشدنا اليه ، وسبقنا له لنقتدي به ، فقد أمرنا باعتدال المعيشة ، والقصد في سائر الأعمال ، وإكرام الضيف ، وصلة الرحم ، ومواساة الفقير ، والحلم في حال الغضب ، والنصح في المعاملة ، ومواساة الجار، وعدم إيذاء الخلق ، والاحسان الى الناس ،

وحسن معاملة الذمي ومعاشرته ورعايته ، والجد في الأمور ، والسعي في طلب الرزق ، والاجتهاد في طلب العلم ، والابتعاد عن دنيات الامور ، واجتناب مواقع الشبهات ، والتعاون على المصالح الدنيوية والدينية ، والاخذ بالاسباب ، وعدم إهمال العمل كما في حديث التأبير المشهور ، وكما في حديث « إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » ولا يخفى أن من لوازم العمل العلم بأنواعه ، لهذا قال عليه الصلاة والسلام « اطلبوا العلم ولو بالصين » هذا وأمرنا بحفظ حقوق النساء ، والرفق بالمماليك وإنزالهم منزلة الاخوان بقوله عليه الصلاة والسلام « اخوانكم — يعني المماليك — جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم مايغلبهم ، فان كلفتموهم فاعينوهم » (١) الى غير ذلك من محاسن الافعال التى استقصتها المجلدات الضخام من كتب الصحيح ، وسنن الترمذي وابن ماجه وغيرها من كتب السنة الصحيحة ، وإحياء علوم الدين للامام الغزالي هذا فضلا عما جاء في شريعته الطاهرة من الاحكام الباهرة في السياسة والحقوق ، والعقوبة والقصاص ، وتقييد الحكام بالشريعة في توزيع الضرائب وجباية الأموال ، والنظر في مصالح المسلمين وسياسة المدينة وتدبير الملك ، مما هو مبسوط في كتب الاصول والفروع ، بسطا لايدع في النفس حاجة ، وليس في طوق البشر الوصول اليه والزيادة عليه ، الا فيما يستنبط منه ويؤخذ عنه ، فجزى الله هذا النبي الكريم عن أمته خير الجزاء ، وأرشد أمته الى الاخذ بأسباب النهوض من عثرات الافكار الجامدة ، وصدمات الاوهام الفاسدة ، وألهم أولياء الأمر في الاسلام انتهاج محجته البيضاء ، فقد قال عليه الصلاة والسلام (تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها)

«١» نقله ابن ماجه في السنن باسناده عن ابي ذر وكل ما قدمنا ذكره مؤيد بالحديث في كتب الصحيح فلتراجع اذ ليس هنا موضع ذكرها اهمن حاشية الاصل

وفاته

أول مابدىء المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم لليلتين بقيتا من صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة ، وتمادى به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استقر به في بيت ميمونة فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له وخرج على الناس ، فخطبهم وتحلل منهم ، وصلى على شهداء أحد ، واستغفر لهم ، ثم قال لهم « إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ماعنده فاختار ماعنده » وفهمها أبو بكر فبكى ، فقال بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا ، فقال على رسلك ياأبا بكر . ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه فرحب بهم وعيناه تدمعان ودعا لهم كثيراً وقال « أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم ، وأستخلفه عليكم ، وأودعكم اليه اني لكم نذير وبشير ، ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده ، فانه قال لي ولكم (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) وقال (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين)

فانظر ماذا كانت آخر وصيته لأصحابه ، وما فيها من أحكام الطريقة الاسلامية التي بينها الشرع للمسلمين ، والمعاني التي يعجز القلم عن استيفائها في هذا الموجز فليتدبرها العاقلون

هذا ثم سأله أصحابه مسائل بشأن غسله ودفنه ومن يدخل للصلاة عليه ؟ فأجابهم عن ذلك كله

وروى البخاري باسناده عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الوجع قال : « ائتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعدي » فقال عمر : إن رسول الله قد غلبه الوجع ، وحسبنا كتاب الله ، فكثر اللغط ، وقيل : ذهبوا يعيدون عليه ، ثم قال : « دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني اليه » ولما ثقل عليه الوجع اجتمع اليه نساؤه وبنوه وأهل بيته والعباس وعلي ، ثم حضر وقت الصلاة فقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقالت عائشة : انه رجل أسيف لايستطيع أن يقوم مقامك فمر عمر ، فامتنع وصلى أبو بكر بالناس . وهذا الحديث كان من أهم الأسباب التي مهدت لأبي بكر رضي الله

عنه الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سترى . ثم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم نصف نهار يوم الاثنين لليلتين من شهر ربيع الاول ، ودفن من الغد يوم الثلاثاء في بيت عائشة حيث قبض ، ونادى النعي في الناس بموته ، وأبو بكر غائب في أهله بالسنح ، وعمر حاضر فكان منه من حبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ودهشته من منعاه أن قام فقال: ان رجالا من المنافقين زعموا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وإنه لم يمت ، وانه ذهب الى ربه كما ذهب عيسى ، وليرجعن فيقطعن أيدي رجال وأرجلهم ، وأقبل أبو بكر حين بلغه الخبر فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبله وقال : بأبي أنت وأمي قد ذقت الموتة التي كتب الله عليك ، ولن يصيبك بعدها موتة أبداً وخرج الى عمر وهو يتكلم فقال أنصت . فأبى وأقبل على الناس يتكلم ، فجاءوا اليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فالله حي لايموت . ثم تلا .(وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟) الآية فكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية في المنزل لما أصابهم من الدهشة بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال عمر فما هو الا أن سمعت أبا بكر يتلوها ، فوقعت الى الارض ما تحملني رجلاي ، وعرفت انه قد مات ، وبينما هم كذلك اذ جاء رجل يسعى بخبر الانصار انهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لتقرير أمر الخلافة فانطلق أبو بكر وجماعة من المهاجرين اليهم وكان بعد ما كان مما ستراه مفصلا في خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه

هذا ما أردنا تلخيصه من سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم من تاريخ ابن خلدون وابن الاثير والسيرة النبوية لابن هشام وكثير من كتب السنة ولم نذكر كثيراً من باقي سيرته عليه الصلاة والسلام مثل أولاده وغزواته وأزواجه وغير ذلك مما يتعلق بسيرته اكتفاء بما تقدم ، ورغبة بالاختصار فليرجع اليه في كتب السير المطولة ، الا أشياء كانت على عهده صلى الله عليه وسلم وترتب عليها نظام السلطنة الاسلامية ، فقد أحببنا تتمة للفائدة أن نفرد لها فصلا مخصوصاً في هذه المقدمة بيانا لجليل فضله في ترقي الأمة الاسلامية فنقول

القرن الاول من القسم الاول

العشر الثاني

﴿ الخلاف على الخلافة . وخلافة أبي بكر الصديق ﴾

قد بسطنا الكلام فى المقدمة على كيفية ارتباط السياسة بالدين في الشريعة الاسلامية ، وأن موازرة القوة للدين قاعدة كلية في الشرائع حتى ترتب عليها قيام الدول في كل ملة من الملل لضرورة وجود الوازع الذي يزع الناس بالكتاب والميزان ليقوموا بالقسط

لهذا كان أول مقصد من مقاصد المسلمين وأهل السابقة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم متجهاً لوجوب نصب خليفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الامة الاسلامية على كتاب الله وسنة رسوله ، ويأخذ بالقوة على أيدي ذوي العبث بالنظام ، الا أنهم اختلفوا فيمن يولونه هذا الأمر اختلافا ليس فيه ما ينافي المصلحة الاسلامية ، بل غايته تمحيص الفكر ومحض النصيحة فيمن تجمع على تأميره كلمة الجمهور الأعظم من المسلمين، ليكون أثبت قدما في الخلافة وأشد حجة على المخالفين ، لاسيما والاسلام يومئذ غض والناس في دهشة واختباط من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، لذلك افترق الناس يومئذ في أمر الخلافة الى فريقين ، فريق قال : منا أمير ومنكم أمير وهم الأنصار ، وفريق قال : الائمة من قريش وهم المهاجرون

فأما الانصار فقد أشرنا في المقدمة الى أن الصحابة بينما كانوا مشتغلين بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتجهيزه ودفنه ، جاء مخبر فأخبرهم باجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة بقصد المفاوضة في شأن الخلافة ، فأسرع اليهم أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين ليتداركوا هذا الخطر قبل افتراق الكلمة ، ودخول الوهن على النفوس ، فأتوا الانصار وقد اجتمعوا بالسقيفة يبايعون سعد بن عبادة ، وهم

يرون أن الأمر لهم بما آووا ونصروا ، فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم وغلبوهم عليه ، وخطب فيهم يومئذ أبو بكر فقال: يامعشر الانصار انكم لاتذكرون فضلا الا وأنتم له أهـل ، وان العرب لاتعرف هذا الأمر الا لقريش ، هم أوسط العرب داراً ونسباً ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، وأخذ بيدي عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح ، فـكثر اللغط حينئذ بين الانصار وقال قائلهم: منا أمير ومنكم أمير ، فقال عمر : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بكم كما تعلمون، ولو كنتم الامراء لأوصاكم بنا . وقال أبو بكر: منا الامراء ومنكم الوزراء — ثم ان عمر لمـا رأى أن بعض الانصار ومنهم بشير بن سعد يرون رأي المهاجرين بجعـل الخلافة في قريش ، وان الامر اذا أجل النظر فيه ربمـا كانت فتنـة أدت الى مالا تحمـد عقباه ، قام الى أبي بكر وقال : ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فسبقه بشير فبايعه ، وبايعه عمر وسائر الناس ، وتخلف عن البيعة طلحة والزبير وعلي وبنو هاشم لما كانوا يتوقعونه من مصير الخلافة اليهم وعدم صرفها عنهم ، حتى كان مما قال يومئذ عقبة بن أبي لهب :

ما كنت أحسب أن الامر منصرف عن هاشم ثم منهم عن أبي الحسن

في أبيات غيره . وقد نشأ عن ذلك فيما بعد اختلاف على الخلافة بين الشيعة وغيرهم أدت الى أمور جليلة الخطر في الاسلام ، كما ستراه مفصلا في خلافة علي رضي الله تعالى عنه ، حتى غلا بعضهم في علي غلواً فاحشاً ، فأحرق علي رضي الله تعالى عنه من غلا فيه ذلك الغلو

ولما رأى بنو هاشم انحياز الناس الى الرأي الأول ، واتفاقهم على الرضى بخلافة أبي بكـر ، وكان خلافهم كما قدمنا ليس الا لمصلحة المسلمين بتمحيص الرأي على استقرار الخلافة في شخص يقوم بأمر الخلافة بما يرضي الله والرسول والناس ، وكان أبو بكر محل الثقة في ذلك أقبلوا على مبايعته (١)

(١) هذا آخر مافي مسودة المؤلف من هذا الفصل وقد ترك بعده بياضا لاتمام الموضوع ولكنه فصله بعد ذلك في الجزء الاول من اشهر مشاهير الاسلام

﴿ ذكر شيء مما كان على عهده (ص) او نصت عليه شريعته وترتب عليه نظام السلطنة الاسلامية ﴾

إعلم أن ما ظهرت آثاره في الاسلام من ترتيب الدول ، وتنظيم شؤون الحكومة ، واتخاذ شعائر الارتقاء ، انما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما لم يكن في عهده فمنصوص عليه في شريعته الطاهرة ، وسنته الباهرة . وذلك كالامامة والوزارة والولاية وإمارة الجيش والقضاء والخطابة والكتابة والسفارة والترجمة والحسبة والمعاهدات والاعطيات — أي مرتبات الجند — والحجابة والحراسة وإمارة الحج والرسائل والاقطاع والديوان والزمام وكتابة الجيش والعقود والفرائض أي قسمة المواريث ، وغير ذلك من آثار الفضل في ترتيب الحكومات الاسلامية مما كان على عهده صلى الله عليه وسلم ، واقتفى أثره به الخلفاء الراشدون . ثم أخذ يتوسع به من بعدهم من الخلفاء والسلاطين ، ويقررونه على أوجه مضبوطة وقيود وتراتيب لا تخرج عن صفة ما سبق الا بنوع الترتيب أو بما فيه الاستزادة من أبهة الملك وسطوة السلطان . ولكن لما بلغت دول الاسلام أقصى غايات الرفاه ، واختلطت على الخلفاء والسلاطين الامور باختلاط العناصر الداخلة في الاسلام ، أخذت تتحول تلك الأنظمة والتراتيب الى أعجمية تارة ، وهمجية أخرى ، حتى اختل بسبب ذلك نظام الملك . واستحال حال الدول في بعض العصور الى مايشبه ضلال الساري في ليلة مظلمة ، يود سلوك الطريق المنجية فلا يجدها ، والعاقبة للمتقين

وها نحن (أولاء) نورد لك طرفا من تلك الوظائف والتراتيب بوجه إجمالي ، معززاً بما يؤيده من الكتاب والسنة . ونبدأ من ذلك بالامامة ، لأنها المنصب النبوي المهم فنقول :

الامامة

الامامة هي رئاسة عامة في الدين والدنيا ، تنتهي الى صاحبها خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ثقل عليه المرض وقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » وصلى أبو بكر رضي الله تعالى عنه بالناس نيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذها الصحابة دليلا على استنابة أبي بكر في الخلافة العامة ، فأقاموه خليفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم استمر الحكم في الخلافة هكذا ، حتى اذا استغرق الخلفاء بالترف ، واستكانوا وراء الحجب ، واستثقلوا الظهور للناس والاختلاط بعامتهم ، استنابوا عنهم بالصلاة أولي الكفاءة من أئمة الدين ، واكتفوا بمباشرة أمور السياسة . وقد ثبت أن نصب الامام واجب على الامة بالشرع وجوبا كفائيا ، أي هو فرض كفاية اذا قام به البعض — وهم أهل الحل والعقد — سقط عن الباقين

وقد اختلف العلماء في ذلك ، فمنهم من قال : تنعقد البيعة للامام بمن حضرها من أهل الحل والعقد

ومنهم من قال: لا تنعقد الا برضا عامة الناس — ولهم بهذا الصدد أبحاث طويلة ليس هذا موضع ذكرها ، فليرجع اليها في كتب العقائد (وكتاب الاحكام السلطانية للماوردي)

ومما لا اختلاف فيه وجوب الطاعة للامام لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) فان طاعة الامام العادل واجبة ليتمكن من الأخذ بمقتضى العدل في تنفيذ الأحكام ، وتوزيع الضرائب ، وفصل الخصومات ، وإقامة الحدود ، وتجهيز الجيوش ، وسد الثغور ، وقهر المتغلبة ، وبالجملة سائر مايعود على المجتمع الاسلامي بالخير والمصلحة

قالوا : ومتى استقرت الخلافة العامة لمن هو لها أهل فلا بد من استنابته في بعض الوظائف الموكولة اليه أناساً ذوي كفاءة وعلم ودين ، كالوزارة والامارة

والجباية والقضاء ، وغير ذلك من الوظائف التي لا يمكن مباشرة جميعها بنفسه ، والاستنابة فيها أصح في التدبير ، وأدفع للخلل ، وأجمع للنظام . وأهم الوظائف التي يستنيب فيها هي الوزارة

الوزارة

إعلم أن الوزارة مرتبة جليلة من مراتب الدولة التي ينتظم بها الملك ، وتشاد عليها دعائم الدولة ، لهذا اشترط العلماء في الوزارة ما اشترطوه في الخلافة من الأحكام الجامعة لأوصاف العدل ، كالأهلية والكفاءة والعلم والصحة والعقل

وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا أراد الله بالامير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإن أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يذكره ، واذ ذكر لم يعنه » وقالوا : إن الوزارة على ضربين ، وزارة تفويض (للحكومات المعتدلة) ووزارة تنفيذ (للحكومات المطلقة)

فأما وزارة التفويض فهي : أن يستوزر الامام من يفوض اليه تدبير الامور برأيه وإمضاءها على اجتهاده . وهذه بمثابة مايسمونه الآن الوزارة المسئولة في الحكومات المعتدلة ، لأن للوزير فيها ـ متى استكملت فيه الشروط المعتبرة في وزارة التفويض ـ أن يحكم بنفسه ، وأن يقلد الحكام ، وأن ينظر في المظالم أو يستنيب فيها ، وأن يتولى الجهاد بنفسه ، وأن يقلد من يتولاه ، وأن يباشر الامور التي دبرها أو يستنيب فيها (١)

وبالجملة فقد قالوا في هذه الوزارة : إن كل ماصح عن الامام صح عن الوزير الا ثلاثة أشياء (أحدها) ولاية العهد (والثاني) أن للامام أن يستعفي الامة من الامامة ، وليس ذلك للوزير (والثالث) أن للامام أن يعزل من قلده الوزير ،

---

(١) هذا الحكم في الوزارة جار الآن عند دولتنا العثمانية فان الخليفة أيده الله يعين الوزير الاول الملقب بالصدر وهذا يستنيب في الوظائف الوزارية كالحربية والداخلية والمالية وغيرهم من شاء وهذه القاعدة ايضا في جميع الوزارات عند الحكومة الاوربية الآن

وليس للوزير أن يعزل من قلده الامام . وما سوى هذه الثلاثة فحكم التفويض اليه يقتضي جواز فعله على شرط أن يطالع الامام بما أمضاه من تدبير وأنفذه من ولاية لئلا يستبد بالأمر دون الامام . وللامام أن يتصفح مايعرضه عليه الوزير ليقر منه ماوافق الصواب ويستدرك ماخالفه ، الا الحكم في حق فانه ينفذ على وجهه ، أو في مال وضع في حقه فانه ليس للامام استرجاعه

ووجه جواز هذه الوزارة في الاسلام مأخوذ من قوله تعالى في القرآن حكاية عن موسى (واجعل لي وزيراً من أهلي : هرون أخي ، اشدد به أزري وأشركه في أمري) فاذا صح مثل هذه الوزارة في النبوة فانها في الخلافة أولى

وأما وزارة التنفيذ فان النظر فيها مقصور على رأي الامام وتدبيره بحيث يكون الوزير كالواسطة بين الامام والرعية ، ينقل اليه ماوقع ، ويؤدي عنه ماأمر ، ويمضي عنه ماحكم ، وينفذ ماذكر ، وهذه الوزارة بمثابة مايسمونه الآن الوزارة المقيدة في الحكومات المطلقة ، ومعنى تقييدها رجوعها في كل عمل الى رأي السلطان وأمره فيما يراه . ويشترط في هذه الوزارة أوصاف الامانة والصدق والفطنة كي لايكذب فيما يبلغ ، ولا يخون فيما يؤدي ، ولا يدلس عليه ، ولا يبعد الصواب عنه ، وينسب التساهل في أمور الناس اليه ،

وقد رأيت كيف أن موسى الكليم عليه السلام طلب أن يجعل الله له وزيراً من أهله وهو أخوه هرون . وأما نبينا محمد عليه الصلاة والسلام . فقد أشار الى فضل الوزارة وما فيها من الموازرة بقوله عليه الصلاة والسلام «وزيراي من أهل السماء جبريل ومكائيل ، ووزيراي من أهل الارض أبو بكر وعمر» (١) أي أن الملائكة توازره بالوحي من السماء ، وأبو بكر وعمر يوازرانه في الارض

وأما بعد النبي صلى الله عليه وسلم . فقد كان أبو بكر يرجع في المشورة الى عمر وعلي وأكابر الصحابة رضوان الله عليهم . ولما كانت الحكومة الاسلامية في صدر الاسلام أشبه بالحكومة الديموقراطية حذا حذو ابي بكر — في الرجوع الى استشارة أهل العلم والرأي من أكابر سائر المسلمين — الخلفاء الراشدين ، ومن أتى بعدهم

(١) خرج هذا الحديث ابو بكر العربي اه من حاشية الاصل

من الخلفاء الامويين ، دون اتخاذ وزير مخصوص يسمى بهذا الاسم ، أو يعطى شارة الوزارة ، حتى قيام الدولة العباسية . وكان أول خليفة منهم السفاح فاتخذ له وزيراً أباسلمةحفص بن سليمان، فكان أول من لقب بالوزير في دولة الاسلام. ومن ثم أصبحت الوزارة من الرتب الخاصة التي تجري عليها القوانين،وتدون لها الدواوين ، على أشكال شتى كانت ترقي بترقي الدول الاسلامية وتتدنى بتدنيها

القضاء

إن ولاية القضاء خطة سامية ، تتلو الوزارة فى الاهمية ، ولها في الشريعة الاسلامية شروط وأحكام ، أفردت لها أبواب مخصوصة في كتب الفقه،لامجال لايرادها في هذا المختصر . وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه،وقلد القضاء لعمر بن الخطاب وعلي بن ابى طالب ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهم . وقد مر في هذه المقدمة ذكر الحديث الوارد بتقليد معاذ القضاء ، ولم يرد في شريعة من الشرائع ماورد في الشريعة الاسلامية من البيان ، بشأن القضاء وشروطه ، وآدابه وأحكامه وحدوده ، لهذا كان الخلفاء الراشدون يجلسون للقضاء بانفسهم ويستنيبون أحياناً من عرف بالعلم والنزاهة ، وتحققت فيه الاهلية والكفاءة ، وكذا من جاء بعدهم من الخلفاء الأمويين ، وبعض الخلفاء العباسيين .

ولما كانت المنازعات في صدر الاسلام ، انما تنشأ عن أمور مشتبهة ، يترافع فيها الخصمان الى القضاء ليوضح لها الحكم ، وتتعين فيها جهة الحق. فقد اقتصر خلفاء السلف على فصل المنازعات ، والتشاجر بين الناس بالحكم والقضاء ، لالتزام الناس جهة الحق ، وانقيادهم اليه ، ولما تجاهر الناس بالظلم ، وتغالبت النفوس، وتغلبت الأهواء ، واحتيج في رد الحق وتنفيذ الأحكام الى القوة الاجرائية ، تفرعت عن القضاء ولاية المظالم ، فكان الخلفاء من بني أمية ، منهم من جلس لرد المظالم بنفسه ، كعمر بن عبد العزيز ، ومنهم من أفرد وقتا مخصوصا للنظر في رقاع المتظلمين ، ومنهم عبد الملك بن مروان ، وهو أول من أفرد يوماً للنظر في الظلامات ، وتصفح قصص المتظلمين ، فما احتاج فيه الى حل مشكل أو حكم

منفذ رده الى قاضيه أبي ادريس الازدي ، فكان هذا المباشر ، وعبد الملك لآمر ، ثم مع التمادي والتدريج ، احتاج الخلفاء الى جعل ولاية المظالم ولاية خاصة تتفرع عن ولاية القضاء (١) فكانوا يختارون لها ذوي الهيبة وأهل السياسة ، لتنفذ بواسطتهم قوانين العدل ، وتستقيم طرق التناصف ، وكان آخر من جلس بنفسه لرد المظالم من الخلفاء العباسيين المأمون . وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر في المظالم في الشرب الذي تنازعه الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه ورجل من الانصار وحضره صلى الله عليه وسلم بنفسه

الولاية وامارة الحرب واللواء والجيش

قد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الامارة كثيرين ، منهم عتاب ابن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ، استعمله على مكة أميراً سنة ثماني من الهجرة وولاه إمارة الموسم والحج بالمسلمين . وذكر الزمخشري في الكشاف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال «انطلق فقد استعملتك على أهل بيت الله» فكان شديداً على المريب ، لينا على المؤمن . ومنهم باذان استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن ، وكان أميراً عليها من قبل ملوك الفرس . وذكر المؤرخون أن باذان أول أمير أسلم من العجم ، وأول أمير في الاسلام على اليمن

مطلب امارة الجيش

وأما إمارة الجيش فقد استعمل لها النبي صلى الله عليه وسلم كثيرين أيضا في سراياه التي كان يبعث بها لقتال المشركين ، وأولها في السنة الأولى من الهجرة سرية عبد الله بن جحش فقد ذكر المؤرخون وأرباب السير : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبا عبيدة بن الجراح أن يتجهز للغزو فلما أراد المسير بكى صبابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث مكانه عبد الله بن جحش ،

«١» وهي تشبه الآن مامورية الضابطة القضائية اه من حاشية الاصل

وآخرها جيش أسامة الذي أعده رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسير إلى الشام وعليه مولاه أسامة بن زيد وتوفي صلى الله عليه وسلم قبل مسير الجيش، فسيره بعده ابو بكر رضي الله تعالى عنه

مطلب اللواء

وأما اللواء فقد قال أرباب السير : إن أول راية عقدت في الاسلام عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن قصي في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الانصار أحد . وممن حمل راية النبي عليه الصلاة والسلام ليقاتل بها أبو بكر وعمر وعلي، وحمل رايته عليه الصلاة والسلام عام الفتح الزبير بن العوام . وذكر أهل السير في أخبار غزوة بدر الكبرى انه كان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب، والأخرى - وهي راية الانصار - كانت مع سعد بن معاذ. وكانت راية النبي صلى الله عليه وسلم الخصوصية سوداء تسمى العقاب . وكان يحملها بعد النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد . فلم يحضر بها حربا الا وكان الظافر فيها

مطلب تقسيم الجيش

وأما الجيش فقد كان على عهده صلى الله عليه وسلم يقسم إلى خمسة أقسام المقدمة ، والمجنبتان اليمنى واليسرى ، والقلب والساقة . وكان لكل قسم رئيس يسمى صاحبا، كصاحب المقدمة ، وصاحب الساقة الخ . فقد تولى الساقة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة أبو عبيدة بن الجراح ، ويوم حنين خالد ابن الوليد ، وتولى بقية الاقسام غيرهم من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وكان في وقت المصاف يقدم على الفرسان رئيساً ، وعلى الرماة وعلى المشاة رئيساً فمن ذلك مارواه البخاري أن عبدالله بن جبير كان في غزوة أحد المقدم على الرماة

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « انضح الخيل عنا بالنبل (١) لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا . فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك »

﴿ مطلب الحرس ﴾

كان يتولى جيشه عليه الصلاة والسلام في الليل بعض الحرس . فمن ذلك ماروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قفل من غزوة بلغه ان رجلا من لمشركين أصيبت امرأته فحلف ليتبعن أثر الجيش ليهريق دما من المسلمين فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا فقال « من يكلؤنا ليلتنا » فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الانصار ، وهما عمار بن ياسر وعباد بن بشر

﴿ مطلب حرسه الخصوصي (ص) ﴾

وكان له صلى الله عليه وسلم حرس خصوصي يحرسونه اذا نام أو كان في الغزو وكان من حرسه سعد بن ابي وقاص وسعد بن معاذ وذكوان بن عبدالله وهذان حرساه يوم بدر على باب العريش الذي بني له يومئذ ، ويوم أحد حرسه محمد ابن مسلمة الانصاري . ويوم الخندق حرسه الزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعباد بن بشر ، وحرسه غيرهم من الصحابة . فلما نزل قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) ترك الحرس

﴿ مطلب العرفاء ﴾

وكان عند العرب عرفاء للأجناد ، وهم دون الرؤساء ، بهم يتعرفون أحوال الجيش ، واستمر ذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت ذلك من حديث طويل رواه البخاري . وذلك في قصة وفد هوازن حين جاؤه مسلمين وقد كان للجيش في عهده صلى الله عليه وسلم عيون تأتي بأخبار العدو ،

---

(١) هذا اللفظ عزاه شراح البخاري الى ابن اسحق ، والوصية في رواية البخاري للرماة كلهم وأولها « لا تبرحوا » الخ وكتبه مصححه

وطلائع تمهد له الطريق ، وحملة سلاح ، وغير ذلك من متعلقات الجيوش مما لايسع هذا الموجز بسطه ، فليراجع في كتب السير والحديث

كتابة الجيش والديوان والعطاء

قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بكتب الناس وجرى العمل بذلك في عصره صلى الله عليه وسلم فقد روى البخاري بسنده عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اكتبوا لي من يلفظ بالاسلام من الناس » فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل فقلنا نخاف ونحن ألف وخمسمائة ، فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلي وحده وهو خائف

وأما العطاء فقد وردت في ثبوته أحاديث كثيرة . فمنها ما رواه أبو داود عن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا أتاه الفيء قسمه في يومه فأعطى الآهل حظين ، وأعطى الأعزب حظا . فدعينا ، وكنت أدعى قبل عمار فدعيت فأعطاني حظين وكان لي أهل ، ثم دعا بعمي عمار بن ياسر فأعطي حظاً واحداً — فثبت مما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم أمر بكتابة الناس في الجيش ، وأنه كان يعطي العطاء ويقسم الفيء

وأن نوع الديوان كان موجوداً على عهده صلى الله عليه وسلم . وهذا لايخالف ما أطبق عليه اهل الاثر من أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أول من دون الدواوين ، ورتب الاعطيات في الاسلام ، فانما كانت كتابة الناس في عصر النبي صلى الله عليه وسلم باحصاء من تعين منهم في بعث البعوث ، ولم تكن في وقت معين ولا بمقدار معين حيث لم يكثر الناس كثرتهم أيام عمر ولا جبيت الاموال ، ولا تأكدت الحاجة الى ضبطهم — وأما عمر فقد رتب الناس في الدواوين ، وقدر لهم الاعطيات ، وأجرى عليهم الارزاق على حدود معينة ، وتراتيب مقررة ، بعد أن نصب الكتاب ، ومسح البلادوالسواد ، ونظم أصول الجباية ، لاتساع الحاجة باتساع الفتوح على الاسلام

الكتابة والرسل والسفارة والترجمة

كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنهما ، فان غابا كتب أبي بن كعب وزيد بن ثابت ، فان لم يحضر أحد من هؤلاء الاربعة كتب من حضر من الكتاب وهم معاوية ابن أبي سفيان وخالد بن سعيد بن العاص وأبان بن سعيد والعلاء الحضرمي وحنظلة بن الربيع . وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب الوحي أيضاً فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين ، فلما فتحت مكة استأمن له عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة ، فأمنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن اسلامه

وأما كتاب الرسائل والاقطاع فزيد بن ثابت وأبي وعبد الله بن الارقم الزهري، وهذا كان مواظباً على كتابة رسائل النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك

وأما العهود والمصالحات فكان يكتبها له صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه

الرسل والسفارة

كان النبي صلى الله عليه وسلم يرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام، فمن أرسله دحية الكلبي أرسله الى قيصر وكتب له كتابا يدعوه فيه الى الاسلام كما رواه البخاري . وأرسل حذافة السهمي الى كسرى ملك فارس ، وغيرهما لغير هؤلاء الملوك أيضاً . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا الى ملك الحبشة ليبعث من عنده في بلده من المسلمين

وأما تراجمة النبي صلى الله عليه وسلم فقد ذكر أرباب السير : أن زيد بن ثابت الانصاري رضي الله تعالى عنه كان يكتب للملوك ويجيب بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن . وذكر ابن هشام في البهجة نحواً منه

وكانت ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب بالسريانية ، فأمر زيد

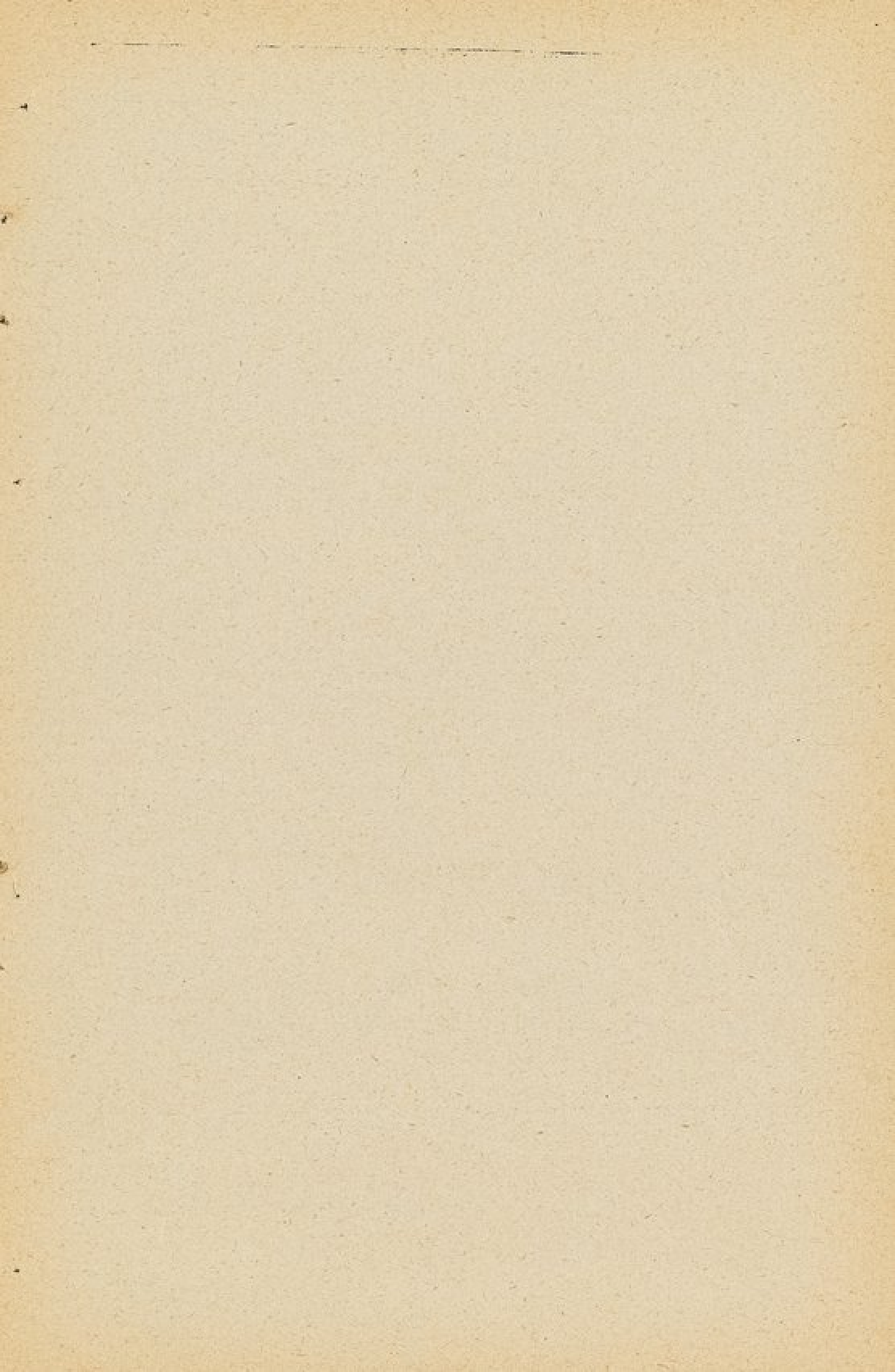
ابن ثابت بتعلمها فتعلمها في بضعة عشر يوما — وخرج الترمذي عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم كتاب يهود فاني والله ما آمن يهود على كتاب قال: فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له قال : فلما تعلمت كان اذا كتب الى يهود كتبت اليهم ، واذا كتبوا اليه قرأت له كتابهم

وفي هذا دليل على وجوب تعلم اللغات اذا كان في تعلمها فائدة للمسلمين

هذا ما أردنا ايراده في هذا الفصل ملخصاً من (كتاب الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز) للعلامة المرحوم رفاعة بك المصري ، وكتاب الاحكام السلطانية للماوردي . وقد رغبنا حب الاختصار في هذا الموجز بالاكتفاء بما تقدم وترك ذكر أشياء كثيرة كانت على عهده صلى الله عليه وسلم كالحجابة والخطابة والمحاسبة والجباية والحسبة التي هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من وسائل الترقي فى الاسلام ، فليرجع اليها فى كتب السير والحديث

وقد استرسل القلم فى هذه المقدمة الى أشياء ماجره للكلام عليها الا المناسبات . فرجاؤنا من ذوي الفضل والانتقاد أن يقابلوا عثرات القلم بالاغضاء، وهفوات اللسان بالمغفرة ، وأن يرشدوني الى مواقع الخطأ بالنقل ، أو عدم الاصابة بالفكر . والله نسأل تمام التوفيق فيما وعدنا به من بسط الكلام على تاريخ سياسة الدول الاسلامية الذي يبدأ من خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه حيث شيدت الخلافة على دعائم الحرية والعدل . وأخذت من ثم تظهر ثمرات ماترك عليه أمته نبينا محمد عليه الصلاة والسلام مما استغلظ به أمر الاسلام ، وانتشر بسببه العلم الصحيح في الارض ، ورفعت أعلام القوة والتمدن في أقطار المسكون — وها أنا أشرع ببيان ذلك على وجه فيه عبرة ، بل عبر لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، مستمداً من الله سبحانه وتعالى العناية والتسديد ، وهو الهادي الرشيد اه

﴿ تمت المقدمة ولم يكتب المؤلف غيرها من مباحث الكتاب ﴾
﴿ إذ استبدل به تاريخه اشهر مشاهير الاسلام ﴾
﴿ رحمه الله وجزاه خيرا ﴾



الجامعة العثمانية

والعصبية التركية

أو

التأليف بين الترك والعرب



تأليف رفيق بك العظم

هذا آخر ما كتبه هذا الوطني العثماني الكبير فيما نعلم، ولعله لم يتمه لاستيلاء اليأس عليه من إنصاف الترك للعرب لما رأى من استفحال عصبيتهم التورانية

﴿ الطبعة الاولى سنة ١٣٤٤ ﴾

مطبعة المنار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كانت الامة العثمانية قبل إعلان الدستور العثماني في مستوى واحد من حيث الظلم الذي كان ينالها من الحكومة المطلقة ، لافرق بين مسلميها ومسيحيها وتركيها وعربيها . ومن شأن الحكومات المطلقة تساوي رعيتها في الظلم والتظلم ، كما أنه من شأن الحكومات الدستورية تساوي أمتها بالعدل . فالامة العثمانيـة كانت سواء بالشكوى . أفما كان ينبغي أن تكون بعد الدستور سواء بالشكر ؟

إن الاستبداد من طبيعته تخدير القوى الجامعة ، وتقطيع وشائج الصلة بين أبناء الوطن الواحد ، كي تهن الامة عن مناهضـة السلطة المطلقة ، وتذل لعباد الشهوات من زعماء هذه السلطة ، كما أن سلطة الأمة من طبيعتها تنبيـه القوى الجامعة ، وربط أواصر الاخوة الوطنيـة ، وبث روح العزة في النفوس لتساق الى مستوى التكافل العام القائم على أساس الحرية والإخاء والمساواة

تحققت طبيعة الاستبداد في الامة العثمانية على عهد الحكومة المطلقة ، فهل تحققت طبيعة سلطة الامة على عهد الحكومة الدستورية ؟

أعني هل استبدل الضعف والتقاطع ، والتخاذل والتفرق ، والذل والخنوع لسلطة الفرد ، بالقوة(١) والاتحاد والعزة ، وتحقيق سلطة الامة ، والتكافل العام على توطيد دعائم الحكومة الدستورية ، أي حكومة العدل والحرية والاخاء

اذا تحققت طبيعـة سلطة الامة بهـذا المعنى الصحيح ، لمـاذا إذاً تقرع

«١» التعبير الصحيح في استبدل وبدل ان تدخل الباء على المبدل منه سواء تقدم في الذكر اوتاخر. فيقال هنا: هل استبدلت القوة بالضعف الخ اوهل استبدل بالضعف القوة . وكتبه مصححه

أسماعنا كل يوم كلمات السوء والشقاق، وصوت الفرقة والانشقاق، كالترك والعرب والروم والبلغار والأرنؤط والكرد والأرمن، وما يتبعها من صوت المنادين بكلمات اتحاد العناصر، واتفاق العناصر، ومصالحة العناصر — وهذا كله مناقض لروح الدستور الكافل من طبيعته بمحو الحدود الجنسية، لامن حيث خصائصها الذاتية، بل من حيث مرامي الأقوام الاجتماعية، وما من أمة سارت فيها روح الديمقراطية الصحيحة الا كانت أجزاؤها أشد تماسكا، ورابطتها العامة أشد إحكاما، فلماذا إذاً هذا الاضطراب في حبل الجامعة العثمانية؟ وما سببه ومصدره، وهل من حد ينتهي اليه؟

هذا ما يهم كل عثماني معرفته، ولا حرج من تناول الاقلام لأطراف البحث في هذه المسائل بحق وإخلاص، عساها اذا انكشفت الاسباب للعقلاء، وظهرت لهم الحقيقة خالصة من شائبة التزلف والرياء، أن يتلافوا أسباب الشقاق، ويتكاتفوا على إحلال الحقيقة محلها من الاعتبار، فلا تأخذهم في اتباعها هوادة، لأن الامر جلل، وهذه الريح الهابة في آفاق البلاد العثمانية، ريح التدابر والشقاق والشحناء، إذا انقلبت لاسمح الله الى عاصفة لاتبقي ولا تذر. وعواطف الجماعات اذا تكونت ونمت تتغلب على أناة وحكمة ذوي العقول، بل ربما أخذتها في تيارها أخذاً، وساقتها معها سوقا

والفرد كما قال العلامة كوستاف لبون: « يعمل بعقله لكن الجماعات تعمل بمشاعرها » وقال: « إن غلو مشاعر الجماعات يظهر غالباً في الشر » وهذه حقيقة لاينبغي أن يمترى فيها عاقلان، لأن التاريخ أيدها فى كل زمان، وشر الجماعات الايتلاف حين وقوعه، بل قبل وقوعه كالاوباء التي صار أحسن علاج لها هو الوقاية منها لامداواتها بعد وقوعها

اسباب القلق والاضطراب

فى الجامعة العثمانية

أما أسباب الاضطراب في حبل الجامعة ومصدر ما ذكر كله فينتهي الى أمرين (أولهما) الشعوب العثمانية نفسها (والثاني) مسلك الاتحاديين بعد إعلان الدستور، واليك البيان:

إن سوء الادارة في الدور الماضي وعدم مجاراة الحكومة للأحوال الطبيعية التي كانت تسوق الامة العثمانية الى طلب الكمال والترقي سوقا، هو منشأ كثير من المصائب. فبينما كانت الامة تطلب السير الى الامام، وتراغم الحكومة مراغمة عليه، كانت الحكومة تسير الى الوراء، فأصبح الفارق بين الامة والحكومة عظيما، تفككت به عرى الصلة القانونية بين الاهالي والحكومة، فتولدت عن بعض الشعوب العثمانية في آسيا الصغرى وتركية أوربا فكرة الانفصال عن الحكومة بتاتاً، لتسير مع من سبقها من الشعوب المجانسة لها في سبيل الرقي الطبيعي والكمال، وغالت بعض تلك الشعوب في تحقيق هذه الرغبة مغالاة تجاوزت حد الانصاف، فاستفزت الدول الاوربية لمناوأة الدولة العثمانية باسم الانسانية والتمدن تارة، واسم الدين أخرى، حتى كاد اليأس من حياة هذه الدولة يخالط نفوس كل العثمانيين، خصوصاً بعد معاهدة ريفال الشهيرة التي تمت بين الروسيا والنمسا، وفيها القضاء الاخير على سيادة الدولة العثمانية في أوربا

يضاف الى هذا أن السلطان عبد الحميد المخلوع كان دائم الوجل، محاطاً بالوسائس من قومه الاتراك الذين يعلم مقدار توجسهم الخيفة على سيادة تمتعوا بها نحو سبعة قرون، وكاد بسوء إدارته وحرصه على الحكم المطلق يمزقها تمزيقاً، فاضطر الى الاستكثار من البطانة من غير الترك. فهذا وذاك ولد في نفوس الاتراك سوء الظن في العناصر الاخرى، كما كانت تلك العناصر تسيء ظنها بالترك باعتبار أنهم الفئة الحاكمة، الا أنهم والحق يقال: لم ينصفوهم فى ذلك،

لأنهم أي الترك لم يكونوا أقل استياء من إدارة الحكومة الماضية من بقية العناصر العثمانية ، بدليل أن مدحت وسعاوي ونامق كمال وأضرابهم، انما ذهبوا شهداء الحرية ، وكانت أجسادهم الطاهرة أول دفينة من دفائن الحرية واراها السلطان السابق عن الانظار ليتيسر له المضي في طريق الاستبداد الذي اختطه لنفسه من أول يوم صار اليه فيه ملك آل عثمان

ومعلوم ما كانت تقوم به الجمعيات السرية فى مقدونيا وأرمينيا من الاعمال الدموية الفظيعة التي صبغت أديم الارض بالدماء توصلا لأغراضها السياسية التي قصاراها التخلص من سلطة الاتراك بحيث لم تترك ذرة من الثقة فى نفوس هؤلاء بولاء الشعوب العثمانيـة ، فنمت هواجسهم مع الزمان نمواً دخل تحته البريء والسقيم ، وأصبحت الريب والظنون تحوم حول الاتراك بالشعوب العثمانية الاخرى الموالية لها لأدنى الاسباب ، حتى كاد سوء الظن المتبادل يحل عرى الألفة العامة بتاتاً ، ويودي بحياة هذه الدولة لو طال عهد الادارة الماضية ولو قليلا ، كل هذا من نتائج الاستبداد وسوء الادارة ، وهيهات أن يجنى من الشوك العنب ، والاستبداد لاينتج الا الخراب والشر

﴿ ما أسباب سوء الظن بالعرب ؟ ﴾

علمنا مما تقدم أن القلق الذي كان مستولياً على الاتراك ، وفقد الثقة من النفوس ، كان مصدره استبداد الادارة التركية الماضيـة ، وغلو بعض الشعوب العثمانية فى النفور منها ، وسعيهم الى التخلص من سلطة الدولة العثمانية سعياً مقروناً بالبغضاء ، ملوثاً بالدماء، مما لم يزل خياله مرئياً ، وصداه يقرع الآذان الى اليوم لسوء الحظ ، فلا حاجة للافاضة فيه ، وبيان ما كانت تعمله الجمعيات السرية ، والعصابات الثورية، لتقليص ظل الدولة العثمانية من مقدونيا ، ولكن لم نعلم ما مصدر القلق وسوء الظن المتبادل بين الترك والعرب . إذ لم يعهد لهؤلاء عمل يرمي الى ماترمي اليه الجمعيات السرية للشعوب الاخرى حتى ينظر

اليهم بالنظر الشزر الذي ينظر به الى تلك الشعوب ، بل كانوا شركاء مع الاتراك فى السراء والضراء ، صابرين على الاذى والظلم ، الا ما كان يظهر أحياناً من أهل اليمن لاسباب سنذكرها بعد

ربما يعجب القارىء اذا علم أن الذي ولد سوء الظن بالعرب فى نفوس الترك هم الاتراك أنفسهم، وتحرير الخبر أن شبان الاتراك الذين لجأوا الى مصر على عهد مجيء مراد بك الداغستاني اليها سنة ١٣١٤ هـ دبروا مع بعض المقامات العالية مكيدة لارهابه، عساه يعيد القانون الاساسي ويرضى بالحكومة الدستورية، وتلك المكيدة هي ايجاد خلافة عربية بالوهم ، وتصويرها للسلطان فى صورة الحقيقة، فلم تنجح معهم هذه المكيدة ، ولم تزده الا وساوس فوق وساوسه ، وكان من أثر هذه الارجوفة وشيوعها بين الناس ، أن جعلها ذوو الاغراض وسيلة للاستفادة من وساوس السلطان عبد الحميد ، وجعل تكررها على الاسماع أثراً سيئاً في نفوس الاتراك ، بل وفي نفوس الذين خلقوها أنفسهم ، إذ صار مثلها ومثلهم كمثل أشعب الذي ضايقه الاولاد مرة في الشارع ، ففكر في حيلة يدفعهم بها عنه فقال لهم : إن فلاناً يوزع الآن نقوداً على الصبيان فهلموا اليه ، فتركوه واندفعوا ركضاً الى بيت فلان فقال بعد ذهابهم في نفسه : ما يدريني لعل هذا الامر صحيح ، واندفع وراء الصبيان راكضاً ليأخذ نصيبه على زعمه

وربما عذر البعيدون عن مصر التي كانت مستقر هذه الاراجيف ومصدرها من ذلك المين على قلقهم منها وتصديقهم لها . ولكن ما عذر المقيمين فيها من الاتراك ، خصوصاً أولئك الذين كانوا هم سبب وجودها ، ولو كان لاخواننا وقوف على أغراض الشرع ، وإحاطة بقيود الخلافة وشروطها وحقيقتها، لما حفلوا بأمثال هذه الوساوس ، لأن الخلافة ليست ثوبا يباع ويشرى ، ولا هي احتكار لقوم دون آخرين . وحسب العاقل أن يمر بنظره على تاريخ الصدر الاول من الاسلام ، فيعلم ما هي الخلافة وما شروطها وحقيقتها ؟ ويتحقق أن ليس من دولة اسلامية اليوم أحق بها من آل عثمان، هذا اذا صح وجوبها بالعقل والشرع، وسترى الكلام عليها في غير هذا المحل

مسلك الاتحاديين بعد الدستور

قلت: ان لاضطراب حبل الجامعة العثمانية الى اليوم سببين (أولهما) الشعوب العثمانية نفسها (وثانيهما) مسلك الاتحاديين بعد الدستور ، وقد أجملت الكلام على السبب الاول إجمالا ، وانه كان مصدر قلق الاتراك من تلك الشعوب ، وهاأنا ذا أتكلم عن السبب الثاني :

إن الريب والشكوك التي كانت تخالج أفئدة الاتراك في نيات بعض الشعوب العثمانية للأسباب التي مر ذكرها . قد جسمت للاتحاديين صورة الخطر على سيادة الدولة خصوصاً في مقدونيا تجسيما ، فاوجسوا خيفة منه ، وتعجلوا القيام على السلطان المخلوع تخلصاً منه ، وانقاذاً للسلطة من يديه ليحلوا محله ، ويتلافوا بوادر الخطر التي كانت تظهر في مظهر مخيف أزعج كل العثمانيين المخلصين لدولتهم، وجامعتهم، لا الاتراك وحدهم . وقد وفقهم الله لنيل هذه الأمنية على أهون سبيل ، رحمة بهذه الدولة وانقاذاً لها من ذلك الخطر السريع . فاستردوا القانون الاساسي الذي استلبته السلطة الاستبدادية ، وأعلنوا مبادئه السامية التي تسقط سلطة الافراد ، وتقيم مقامها سلطة الأمة ، وتجعل العثمانيين كافة أمام الحق والقانون سواء

ان يوم ١٠ تموز (٢٣ يوليو) الذى نودي فيه بالحكومة الدستورية ومحو السلطة الاستبدادية فى المملكة العثمانية ، كان يوما سعيداً على هذه الامة، لم يشهد مثله العثمانيون على ماأظن الا اليوم الذى افتتح فيه السلطان محمد مدينة القسطنطينية . ولقد هبت فيه الأمة العثمانية كمن نشط من عقال ، وبلغ السرور مبلغا من أفئدة الناس ، تناول سائر الطبقات والشعوب على اختلاف المشارب والملل ، واتجهت عواطف الامة العثمانية كلها ، بل وعواطف الامم كافة الى جمعية الاتحاد اتجاها لم يعهد له مثيل في تاريخ الانقلابات العامة، حتى لقد كنت لاألقى صديقا لي من العثمانيين الذين عرفوا بالميل الى الحرية ، سواء في مصر لما اعلن القانون الاساسي ، أو في سورية عقب سفري اليها، الا وغلبت على كلانا عواطف السرور فانفجرت أعيننا بالدموع استبشاراً بمستقبل الدولة السعيد، وسروراً

بالحرية التي هي منتهى رغبة النفوس الحية ، وتقديراً لعمل جمعية الاتحاد المجيد

ليس من الهين على أية جماعة اكتساب مثل هذه القوة ، قوة عطف الشعب كله عليها وتأييده لها فضلا عن عطف الشعوب المتمدنة الأخرى ، وعطف حكوماتها الذي ظهر نحو العثمانيين عقب اعلان الدستور

ماذا بدا بعد هذا العطف الشديد والسرور العام ، وارتياح القلوب عامة لصنيع جمعية الاتحاد ، واتفاق الشعوب العثمانية كلها على الاتفاق والوفاق ، ليسيروا في طريق حياتهم الجديدة ، حياة الحرية والاخاء والمساواة ؟ ماذا بدا بعد هذا حتى انقلب هذا كله الى انشقاق وافتراق ، وتنافر وشحناء ، وجلبة واستياء ؟ وكيف لم تحسن الجمعية الاستفادة والانتفاع من تلك القوة ، قوة عطف الشعوب عليها وتساندهم في سبيل تأييد الحكومة الدستورية الجديدة ، تأييداً لمبادىء الحرية التي نادى بها الاتحاديون يوم اعلانهم للدستور

« انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى » فالامة العثمانية صارت كلها كتلة واحدة مع الاتحاديين لما أظهر هؤلاء انهم معها ، ولما انفردوا عنها افترقت عنهم بل عادت الى الانقسام على نفسها بأشد مما كانت عليه في عصر الاستبداد الماضي

هذه هي العلة في انا نسمع كل يوم صوت اتحاد العناصر واتفاق العناصر خارجا من صدور الاتحاديين مثيراً في النفوس الريب والشكوك في مستقبل هذه الامة الدستوري وحياتها الديمقراطية ، اذ الدستور كما قلنا في صدر هذا البيان من طبيعته ربط أواصر الاخوة العامة بين الأمة لانه عبارة عن نزع السلطة من الافراد ، ووضعها بين يدي الجماعات ، وأية جامعة تجمع بين عناصر الامة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء ، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات (أقوى) من حكم الأمة نفسها لنفسها ، وأية رابطة تربط العناصر العثمانية أعظم من هذه الرابطة . فاذا كانت أحكام الدستور مطبقة اليوم عند الحكومة الجديدة تطبيقا صحيحاً على مبادىء الحرية والمساواة ، وسلطة الامة هي الحاكمة على الضمائر المحتفة بطبيعتها لمعنى التعاون والاخاء ، فما هي الحاجة لدعوة

العناصر كل يوم الى الاتحاد والوئام والصلح والسلام

الحقيقة التي لاريب فيها أن الاتحاديين قد انفصلوا عن الأمة انفصالا لايرضاه لهم صديق للحرية، فاصبحوا في شق والامة في شق آخر ، منذ تظاهروا بالنعرة الجنسية ، وأعلنوا ماكانوا يضمرونه من الاستمساك بمبدأ سيادة التركي على العناصر العثمانية كلها، فنبهوا بذلك العصب الحساس من الشعوب العثمانية الذي كانت انامته نفحات « حرية، اخوة ، مساواة » في مبدأ إعلان الدستور فانفضت القلوب من حولهم ، وعادت روح الجنسية وروح التدابر والشقاق ترفرفان على أفاق البلاد العثمانية من تخوم أوربا الى شطوط البحر الاحمر،فعمدوا إلى المناداة باتحاد العناصر واتفاق العناصر . وكيف يكون الاتحاد وهم لا يريدونه؟

هذا الخطأ مع ماأضيف اليه من الاغلاط التي صدرت عن حزبهم وأخصها استعمال سياسة العنف والشدة مع الشعوب العثمانية الأخرى كان السبب الثاني لاضطراب حبل الجامعة العثمانية ، اذ استشعر هؤلاء الشعوب بتبدل مسلك الاتحاديين تبدلا غير منتظر من حزب يعد حامي الحرية ، ومقرر سلطة القانون وهادم أركان الاستبداد ، وأخذ سوء الظن ، من ثم يعود الى النفوس والثقة المتبادلة تضعف وتزول

بدأ ذلك منذ جعلت الحكومة قاعدة استصلاح الشعوب العثمانية بالقوة وأخذت تقترض النقود من أوربا وتنفقها على الجيش لتضرب به وجوه الاقوام العثمانيين . وأخصهم المسلمين من الارناؤط والعرب والكرد وهم ألصق الشعوب بهذه الدولة ، وأشدهم استمساكا بها واخلاصا لها . وما عهدفي تاريخ من تواريخ الأمم والحكومات استصلاح الشعوب بغير طرق الاصلاح القانونية ، ونواميسه المدنية ، وأهمها نشر العلم وتعميم المعارف ووضع قواعد العدل ، وتوسيد أمور الحكومة للأكفاء ، وانماء موارد الثروة العمومية بالانفاق على الامور النافعة ، كتعميم الرى والسكك الحديدية وإقامة القناطر والجسور ، وتجفيف المستنقعات ، والبحث عن المعادن ، وحماية التجارة وتنشيط أهلها باستعمال وسائل الامن والترغيب ، وغير ذلك من ضروب الاصلاح التي هي مناط ترقي الشعوب وسعادتها

ومجدها، وعلة التفافها حول حكومتها وتفانيها في سبيل الذب عنها

أما هذا الضرب من الاصلاح وهو استخذاء الأمة بقوة السيف وجعل المملكة ميدانا تسفك فيه الدماء ، فلم يعرف في تاريخ الاصلاح عند الامم الراقية والحكومات الدستورية ، وانما هو ميراث ورثناه من الدور البائد والحكومة الحميدية الماضية، العود اليه يضر ولا ينفع ، بل هو خطأ يسيء بنا ظنون الأمم المتمدنة ، وقد ساءت ظنونهم بالفعل ، فقبض الماليون أيديهم بالمال عن الدولة وانكمشت عن إسعاف طلب الحكومة العثمانية للمال أغنى الدول كفرانسا وانكلترا الا بشرط المراقبة على مالية الدولة كما أصبح معروفا للناس وما يتيسر أخذه اليوم لا يتيسر أخذه في الغد مادام الانفاق محصوراً في سبيل تأييد سطوة عنصر واحد على بقية العناصر العثمانية لا في سبيل المنافع العامة التي يشترك بها العثمانيون كافة على السواء

هذا الغلط الكبير في سياسة حزب الاتحاديين انتقده كل الاحزاب المكونة لمجلس الأمة حتى من الاتراك أنفسهم وانتقده حتى جماعة من الحزب نفسه ، ممن ينظرون الى المستقبل بنظر العاقل الحكيم (١) لكن هذا الانتقاد كله لم

---

(١) من أركان الجمعية وأعضاء الحزب الكبار الذين انتقدوا خطة الحزب كثيرون ومنهم الدكتور رضا توفيق المعروف بالفيلسوف فقد استدعي في هذا الشهر (كانون ثاني) الى سلانيك بعد الضوضاء التي قامت على الوزارة من حزب المعارضة لاجل المفاوضة معه من قبل الجمعية ونشرت جريدة البروجرية دي سلانيك حديثا له مع أحد محررها عربته جريدة الاهرام الصادرة في ٣ شباط « فبراير » من هذه السنة جاء فيه بعد كلام طويل قول الدكتور راي للجمعية. اما كلامي انا فكان بسيطا واضحا وهو ان حزب المعارضة دل دائما على الاعتدال والذين خرجوا عن الاعتدال هم خصوم المعارضة أو بالأحرى هم اعضاء حزب الاتحاد والترقي. الى ان قال « انا على اتفاق مع الجمعية في ان البلاد في حاجة الى حكومة قوية مهيبة ولكني اخالفهم في استخدام القوة لتظهر الحكومة امام الشعب بمظهر القدرة والسلطان واذا كان وجودي في المجلس قد قضى عليّ بأن احمل على طلعت بك الممثل الاكبر للجمعية في الوزارة وصديقي و رفيقي منذ الساعة الاولى في جمعية الاتحاد والترقي فذلك لاعتقادي و يقيني بأن الواجب عليّ ان افعل ما فعلت ولو سكتُّ كغيري لكان ذلك جريمة لوطني » وقال « واني شاكر على حضراتهم ان الدستور

يجد نفعا ولم يؤثر في سياسة الحزب ويلوي بعقلائه عن ذلك السبيل الذي يشبه الدائرة فلا يفيد المضي فيه إلا التعب ثم العود الى حيث بدأ السالك فيه

مما يشكو العرب (١)

علمنا مما سبق كيف عادت روح الجنسية إلى اليقظة بعد أن نامت مدة في أوائل إعلان الدستور . وأن مسلك الاتحاديين هو الذي نبه هذه الروح الضارة بما بدا منهم من الاغلاط التي يعرفها من وقف على منافسات الاحزاب في مجلس الامة في السنة الماضية وهذه السنة فلا لزوم لأعادة البحث فيها . وربما كان للاتحاديين بعض العذر في سوء ظنهم ببعض الشعوب العثمانية التي كانت في العهد الماضي تلعب بالسيف والنار ، وتهدد جمعياتها السياسية كيان الدولة العثمانية بالدمار . وأن تستعمل باذائهم الشدة لو رأت منهم بعد الدستور نزعة من النزعات السياسية الاولى التي ترمي إلى الخروج عن الطاعة ومفارقة الجماعة ، ولكن ماعذرهم في سوء ظنهم بالشعوب التي لم تبدر منهم بادرة خطأ أو عدوان نحو الدولة ، ولم يخطر لهم على بال الاتيان بما ينافي حقوق الاخوة وروح التعاون على بقاء هذه الدولة عزيزة باقية الى ماشاء الله

هل عذرهم في ذلك أنهم أبادوا الجمعيات المقدونية، ومحوا من صحيفة الوجود آمال الشعوب الاخرى السياسية، وأمنوا جانب الحكومات البلقانية ، ووطدوا

لايكون الا كلمة باطلة اذا لم تحترم الاحزاب ولم تحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية وحرية القول والكتابة والخطابة والاقلاع عن التورط بالحسية والاستغراق بالقوة العسكرية

فاذا اتفقنا على ذلك تحسنت الحالة و بما انا الآن في طور الانتقال يمكننا ان نصلح بالسرعة كل خطا ارتكبناه ونعيد السرور والحماسة اللذين تولدا في قلب كل عثماني بعد اعلان الدستور انتهى كلامه وفيه عبرة لضعفاء العقول الذين لا يعرفون من خبايا الحزب ذرة مما يعرفه الدكتور رضا توفيق واخوانه من اعضاء الجمعية ثم هم يدافعون عنه اى عن الحزب تور يطاله في المضي في خطته التي تهدد المملكة كلها بالخطر السريع والعياذ بالله

(١) معنى هذا العنوان : بعض ما يشكون . والظاهر ان المراد الاستفهام واذاً يجب ان تكتب: مم يشكو العرب ؟ وكتبه مصححه

مركزهم السياسي بازاء الدول الأوربية ، ولم يبق أمامهم من عدو يخاف منه على الدولة الا إخوانهم في السراء والضراء ، وأعوانهم على الذود عن حياض هذه الدولة: العرب والارناؤط والكرد وغيرهم من الشعوب الموالية لهم الصادقة في مؤاخاتهم التي تضم أكثرهم واياهم حماسة الدين ان لم تضمهم لحمة النسب والجنس

اللهم انك تشهد ويشهد العالم أجمع ، أن كل ضعف يصيب قوما من أولئك الاقوام الموالين في السر والعلن لهذه الدولة ، هو ضعف للأتراك أنفسهم وضعف لدولتهم وخذلان للأمة العثمانية جميعا ، وأن انهاك قوى العثمانيين بانقسامهم على أنفسهم باسم العصبية والجنسية ، وقتال بعضهم بعضاً ، انما هو انهاك لقوى الدولة ودفع لها الى التردي في مكان من الاضمحلال سحيق

ان رومة أيها الاخوان لما كانت حكومة ديمقراطية كل شعوبها أمام الحق والقانون سواء وكلهم يعدون أبناء رومة الامناء ، بلغت مكانة من القوة والسيادة والمجد لم تبلغها أمة من قبل ، ولما صارت حكومة ارستوقراطية زعماء رومة هم السادة ، وبقية الناس في نظرها هم العبيد ، تردت في أسرع وقت في هاوية الدمار ، وأصبح الرومانيون بعد ذلك خبراً من الاخبار ، وبادوا عن آخرهم كأن لم يكونوا بالامس

أفلا يجب علينا أن نعتبر بالتاريخ وأن نجنب أنفسنا مواقع الخطر بالتسامح بقليل من حب السيادة والاستئثار بالسلطة ، وبترك مانهانا عنه الاسلام من العصبيات الضارة ؟ فقد محا الاسلام حدود الجنسيات منه قال الله في قرآنه الكريم (انما المؤمنون اخوة) ومنه قال : قال رسوله « ليس منا من مات على عصبية » واعلموا أن دولة آل عثمان باعتبار أنها دولة الخلافة ليست للترك وحدهم ، بل لكل المسلمين المستظلين برايتها ، القائمين بحمايتها ، وهم كما ذاقوا مرها في أيام الجور والظلم والاستبداد ، ينبغي أن يذوقوا حلوها في أيام العدالة والحرية والقانون ، ولما كان العرب هم الجزء الاعظم في المملكة . وقد رأوا من مسلك الاتحاديين معهم بعد اعلان الدستور ما اذا سكت عليه كان جرحا نغاراً في جسم الدولة يتعذر شفاؤه ، رأيت من الواجب بسط الامر على جليته لدى عقلاء الامة ، وأطباء المجتمع

العثماني ليتلافوا الخطر المحدق بنا الذي ستجره سياسة الحزب الغالب اليوم، وها أنا ذا أبين شكاوي العرب ، وما يظنون ويقولون وما يعاملون به بغير حق، مع أنهم أخلص المخلصين للدولة العثمانية وأحرص عليها حتى من الترك أنفسهم كما سترى بيانه بعد

لما أعلن الدستور وتقشعت عن سماء المملكة العثمانية غيوم الاستبداد ، وفتحت أبواب الوطن لبنيه الذين كانت تطاردهم الحكومة الماضية سافرت الى سورية ، فلم أجد مكانا وصلته الا والافراح قائمة فيه، ولم أر منبراً قائماً في جمع سواء في بيروت أو دمشق أو حمص أو حماه الا توقلته رافعاً صوتي مع أصوات الخطباء في شكر جمعية الاتحاد على خدمتها العظيمة للحرية مبشراً بمستقبل سعيد للوطن والامة والدولة ، ولم أر في سورية شاعراً أو خطيباً الا وهو ينادي باسم الاتحاد، ويدعو الى معاضدة الاحرار وتأييد الدستور بالنفس والمال ، والناس كلهم صاغون منصتون، والسرور باد على السرائر والوجوه . وقد تعدى هذا السرور الى الابكار في خدورهن فأخذن يطرزن الاعلام العثمانية، وينسجن شارات الحرية، يهدينها الى هنا وهناك، كل هذا لسقوط حكومة الافراد ، وتهدم دعائم الاستبداد ، وقيام الحرية والاخاء، مقام الحجر والتباغض والشحناء . وهكذا كانت الحال في سائر البلاد العربية، كما كانت في كل المملكة العثمانية ،حيث روح الوفاق ترفرف على آفاق البلاد ، وحيث يد الأمن والسلام والسعادة تكتب على الصدور والجباه الى الاتحاد الاتحاد ، الى الامام الامام

في إبان هذا السرور وفي مبدأ تلك النهضة الآخذة بنفوس العثمانيين الى مرتقى السعادة والوفاق والحب ، بدأ الاتحاديون باضطهاد العرب قبل كل الشعوب ، وضربوا أول معول في أساس الوحدة العثمانية الذي وضعوا بأيديهم حجر القاعدة فيه قبل بضعة أسابيع

ذلك أن العثمانيين هبوا بعد إعلان الدستور كمن أفلت من عقال وأطلق من سجن مظلم ، فما لبثوا أن رأوا نور الحرية حتى أخذوا بتأليف الجمعيات وفتح المنتديات التي تؤلف بين القلوب ، وتبث في الصدور قوة الانصراف الى التعاون،

وأول مابدأ ذلك فى الاستانة العلية نفسها ، حيث قامت بهذا العمل كل أبناء العناصر الموجودة فيها ، فألف الارناؤط جمعية وافتتحوا منتدى والشركس مثل ذلك، ثم الاكراد والروم والارمن وغيرهم والعرب كذلك،فانهم ألفوا جمعية سموها جمعية (الاخاء العربي العثماني) وافتتحوا منتدى بهذا الاسم أيضاً

فما نوهض قوم من أولئك الاقوام بهذا العمل الجليل الا العرب ، وما زالوا يناهضون ويضارون حتى حلوا هذه الجمعية وأقفلوا ذلك المنتدى وغيره قائم . فكانت هذه أول بادرة من بوادر سوء الظن صدرت من الاتحاديين فسرت الى العرب أيضاً ، وأخذ هذا الخطب يتفاقم الى اليوم

على أني انا وكل الذين كانوا يؤيدون جمعية الاتحاد والترقي من العرب لم ننظر بعين الرضا الى تعجل أبناء العناصر فى الاستانة فى تأسيس الجمعيات مهما كان نوعها بسبب أن جمعية الاتحاد والترقي كانت لم تتم مهمتها بعد على وجه ثابت القواعد ، ولذا كتبت يومئذ الى أحد مؤسسي جمعية (الاخاء العربي العثماني) وهو ابن عمي شفيق بك العظم ألومه والقائمين بها لوما شديداً على تعجلهم فى هذا الامر لاسوء ظن بهم ، بل لاني أخشى أن تشوش كثرة هذه الجمعيات على جمعية الاتحاد والترقي ، فأجابني معتذراً بانهم لم يفعلوا ذلك الاقتداء بباقي العناصر التي ألفت الجمعيات وافتتحت المنتديات ، وأن وقوفهم بازاء هذه النهضة وقفة المتفرج حطة فى شأن العنصر العربي ، وأنهم تسكينا لماعساه يحدث فى نفوس أفراد جمعية الاتحاد يضمون جمعيتهم الى جمعيتهم بلا أدنى تردد .
وأذكر اني كتبت يومئذ الى أحد أركان الجمعية فى الاستانة ، ولا أتذكر ان كان طلعت بك أو رحمي بك أو الدكتور شاكر بان لا يأخذهم أدنى شاغل من جهة تلك الجمعية ، ثم اني أخذت اصرف جل أوقاتي في الكتابة الى الجرائد وغيرها فى لزوم تأييد هذه الجمعية أي جمعية الاتحاد والترقي تأييداً لمبدأ الحرية الذي فطرت عليه.وكان لهذه الجمعية يد في وضع أساسه ينبغي أن تشكر من كل العثمانيين كما سترى ذلك مبسوطا في غير هذا المكان

وليعذرني القراء على أني لم أنشر هنا صور هذه الكتب ولاماسيذكر منها

فى مكان آخر ، لاني لم أعتد على حفظ الصور ، وحسبي اني ذكرت الاسماء . فاذا كان هناك شيء خلاف ماأقول فالمكتوب اليهم أحياء ، وسيطلعون على رسالتي هذه فيمكنهم أن يصححوا خطئي ويعترفوا بصدقي

هذا ولم تقف الشكوى عند حد مناهضة الاتحاديين لجمعية الاخاء العربي بل أخذت تزداد من أمور أخرى كثيرة كما سترى بعد ، وما كنت أحملها الا على سوء التفاهم أو سوء الظن المتبادل ، وأرى أن الاتحاديين بما اكتنفهم من الامور المزعجة الى ماقبيل وقعة (مارت) المشؤمة معذورون لا ينبغي أن يتعجل بمؤاخذتهم ، وكنت أكتب بهذا الى كل من أعهد فيه الاخلاص والتأني ، واكتب كذلك فى جرائد بيروت ومصر ، ثم بعد انتهاء حادثة مارت وعود السكون والراحة الى الافكار سافرت الى الاستانة لاقف على حقيقة ماقيل وما يقال واسعى اذا كان فى الامكان السعي الى إزالة أسباب سوء التفاهم . وكان أملي شديداً بطلعت بك المبعوث يومئذ وناظر الداخلية اليوم وبصديقي سليمان افندي البستاني مبعوث سورية أن يساعداني على ذلك ، ولكن لسوء الحظ وافق سفرهما مع وفد المبعوثين الى لوندرة فى نفس الاسبوع الذي وصلت فيه الاستانة ، وقبل أن أتمكن من الوقوف على شيء من شكاوى العرب

ولما اجتمعت ببعض أبناء العرب سمعت منهم شيئاً مما يشكون منه ، كاستدعاء أكثر ضباط العرب من صنف (أركان الحرب) من أوطانهم الى الاستانة ، وعدم قبول بعض طلبات الضباط العرب بالحاقهم ببعثة الضباط العلمية التي أرسلت الى ألمانيا لاتمام العلوم الحربية ، وكعدم إدخال أي عضو من أبناء العرب في اللجنة المركزية للجمعية ، مع أنه كان لهم ما كان لغيرهم من العمل مع اخوانهم في الجمعية ، وكالبدء بعزل الموظفين العرب على غير قاعدة مطردة مع جميع الموظفين ، وكقيام الاتحاديين بدعوة بعض أبناء العناصر العثمانية الى منتداهم في الاستانة لأجل حسن التفاهم والتأليف بين العناصر ، وعدم استدعاء أحد من أبناء العرب لمثل هذه الاجتماعات ، وما شابه ذلك من الامور التي تؤلم عواطف العرب ، وتؤثر في رابطة الوحدة العثمانية

سمعت هذا وتحققته ، ومع ذلك فما كنت أحمل شيئاً منه على غير سوء التفاهم ، الا إني كنت أرى أن التمادي في سوء التفاهم ربما أدى الى نتائج غير حسنة ، فكلمت احمد رضا بك رئيس مجلس المبعوثان في هذا الشأن ، وأكدت له حسن نية العرب وإخلاصهم ، ورجوته أن يتلافى هذا الامر بحكمته ، وكلمت غيره ممن أثق بحسن نيتهم من الاتحاديين أيضاً ، للسعي في إزالة أسباب هذا النفور بين الفريقين ، وزدت على ذلك أني كتبت مقالة أردت بها التأليف بين العنصرين ، ودفعتها الى أحد أرباب الجرائد الكبرى لنشرها فاعتذر لي بأنه هو من أحد أبناء العناصر التي تريد التفاهم مع الأتراك ، فاذا نشر مقالتي فكأنه اعترف بوجود شيء من التنافر بين العناصر ، وربما حملوا كلامه على أن يضرب عصفورين بحجر واحد

وإذ كان أزف ميعاد سفري الى مصر دفعت المقالة الى صديق لي من الاتحاديين أنفسهم ، ورجوته أن ينشرها في احدى الجرائد ، وجاءني منه بعد وصولي الى مصر كتاب يعتذر فيه أن الجرائد التي عرض المقالة عليها لم تنشرها وأصحب المقالة مع الكتاب

ولشدة حرصي على دوام الوفاق بين الترك والعرب ، وعلى وجوب محو كل أثر للشقاق ، رجوت قبل مبارحتي الاستانة أحد أصدقائي وهو (الدكتور حسين افندي حيدر) من نبغاء الشاميين ومحبي الوفاق ، أن يجمع بين بعض أركان الاتحاديين في الاستانة ، وبين بعض وجوه العرب فيها ، عساهم يتمكنوا بعد تبادل الرأي ومعرفة أسباب الشكوى من إزالة هذه الاسباب ، وإحلال الوفاق والحب والالفة محل الشقاق والتباغض في وقت نحن فيه أحوج الى الاتحاد والتعاون على رفع شأن الدولة بازاء الاعداء الذين يتربصون بها الدوائر من كل صوب

فلم يتوفق صديقي المومأ اليه الى هذه المهمة ، لا لتعذر الجمع بين الاشخاص بل لأن الاتحاديين في واد ، ومحبي هذا التأليف في واد ، كما سترى ذلك فيما يأتي تفصيله في هذه الرسالة ، مما ألجأ هذا الصديق وغيره من شبان العرب ،

ومنهم من كان من حزب الاتحاديين وأنصارهم الى الانحياز الى جانب الشاكين، وانتقاد خطة الاتحاديين، التي ترمي الى امتهان حقوق العرب، واعتبارهم لاشيء في هذه المملكة، وهم أكبر عنصر فيها. ولذا أخذت الشكوى تزداد يوما عن يوم، وكان من شكاوى العرب غير ما تقدم ذكره

(١) إقصاء عدد كبير منهم عن الوظائف التي كانوا فيها فى الاستانة، وأخصها فى نظارة الخارجية والداخلية بحكم قانون التنسيق (أي تغيير المأمورين وإبدالهم) بحيث تناول هذا التنسيق كل أولئك المأمورين من أبناء العرب قصداً، إذ وضع فى كشوفات (جداول) تنسيق المأمورين حرف (ع) أمام كل اسم مأمور عربي ليعلم جنسيتهم المنسقون فلا يبقوا على أحد منهم. وقد نشرت هذا الخبر الجرائد العربية يومئذ، ولم تكذبه الحكومة، حتى استدل العرب بسكوتها على صحته، ولو كان غير صحيح لوجب عليها تكذيبه بصفة رسمية

(٢) عدم دعوة أحد من أبناء العرب لأي اجتماع يراد به التأليف بين العناصر

(٣) عدم إدخال عربي من أعضاء الجمعية فى اللجنة المركزية فى سلانيك حتى من الضباط الذين كان لهم مشاركة مع اخوانهم فى العمل للدستور مما أوجب القول بأنها جمعية عنصرية لا جمعية اتحاد عام

(٤) عدم إدخال أي شخص عربي من أعضاء الحزب فى المذاكرات السياسية التي يجتمع من أجلها الحزب فى الاستانة. وقد انتقد هذا العمل أحد أعضاء الحزب وهو عمر منصور باشا مبعوث طرابلس الغرب فى خطبة له طويلة خطبها فى نادي الاتحاديين عقب تعيين ناظر للاوقاف غير عربي، وقد آخذ فى هذه الخطبة حزب الاتحاديين على اضطهادهم للعرب، ونشرت ملخص كلامه جريدة المقطم وأشارت الى هذه الخطبة أكثر الجرائد البيروتية فى شهر كانون الثاني (يناير) الماضي، مستهجنة معاملة الحزب لابناء العرب مثل هذه المعاملة

(٥) عدم إدخال عربي فى اللجان المركزية للجمعية، واصطباغ الجمعية بالصبغة التركية حيثما وجدت لها فروع

(٦) انتزاع نظارة الاوقاف من الناظر العربي الذي كان يليها وهو الشريف

حيدر بك ، واسناد النظارة الى تركي ، بحيث لم يبق أحد من أبناء العرب فى الهيئة السياسية العالية ، مع أن عددهم يوازي ثلث عدد سكان المملكة العثمانية

(٧) استبدال الولاة والمتصرفين بآخرين من الاتراك ، وجلهم ممن لم يسبق لهم خدمة فى الحكومة تؤهلهم لهذا المنصب ، وعدم تعيين أحد من العرب فى هذه المناصب ممن هم أكفاء لها ، ولو للولايات العربية التي هي فى حاجة الى مأمورين يحسنون التفاهم مع الاهلين — وقد تذمر أهل الولايات العربية مراراً من المأمورين الذين لايفهمون لغتهم ، خصوصاً قضاة المحاكم العدلية (الاهلية) ورغبوا أن يكون هؤلا ممن يحسنون العربية ، ولو كانوا من الاتراك أنفسهم لما يتعلق بهم من حقوق المتاقضين ، فلم تعن الحكومة بهذه الشكاوي الى اليوم

(٨) تغالي الجمعية فى سوء الظن بالعرب ووقوفها فى وجه كل جماعة يريدون تأسيس جمعية أدبية أو خيرية مما جوزه القانون ، ومحاولتها إدماج كل جمعية من هذا القبيل فى جمعيتها ، ولو كانت مؤلفة من أفراد لايعرفون ماهي السياسة ، ولا يشتغلون فى الجمعيات السياسية كما فعلت بجمعية النهضة السورية التي هي جمعية أدبية ، وببعض الجمعيات الخيرية التي تألفت منذ بضعة شهور في دمشق

(٩) عدم عناية الحكومة بنشر المعارف ، بل ووقوفها أحياناً فى وجه الوطنيين الذين يريدون تأسيس مدارس أهلية كما فعلت حكومة نابلس بالشركة التي تألفت في تلك المدينة من أجل إنشاء مدرسة منظمة في هذه السنة ، فانها لم تدع وسيلة من الوسائل لعرقلة ذلك المسعى الحميد الا اتخذتها ، حتى أوقف هذا المشروع ، وأصحابه لايزالون يكابدون المشاق لابرازه للوجود الى اليوم ، هذا مع علم الحكومة أن الطوائف الاسلامية أحوج كل الطوائف في سورية وغيرها الى العلم ودور التعليم ، لأن الطوائف الاخرى لها من جمعياتها الخيرية وجمعيات التبشير عون كبير على نشر التعليم وإنشاء المدارس . فوقوف العناصر الاسلامية عن مجاراة مواطنيها في التعليم ، ليس هو معيب فقط ، بل هو داعية اضمحلال المسلمين الذين تتكون منهم معظم قوى الدولة . فمحاوله إضعاف هذه القوة محاولة لاضعاف قوى الدولة نفسها . وهذا مالا ينكره الا ضعيف العقل والرأي

(١٠) مطاردة الحكومة للغة العربية مطاردة يعجب من صدورها عن حكومة دينها الرسمي هو الاسلام ، ولغة هذا الدين هي العربية

ولقد بلغ من تورط الحكومة بمطاردة هذه اللغة أن لاحقت أبناءها فيما وراء البحار ، فنشر سفير الدولة العثمانية في نيويورك هذه السنة منشوراً يحظر فيه على العثمانيين الموجودين في أميركا مخاطبة السفارة بغير اللغة التركية ، وهو يعلم أن الجالية السورية في تلك البلاد ربما تجاوز عددها ربع المليون ، ليس فيهم من يعرف اللغة التركية ، وبلغ من وطنيتهم أنهم مازالوا يحافظون الى اليوم على لغتهم الاصلية ، وينشرون بها فيما وراء البحار عشرات من الجرائد ، ولو فرطوا بهذه اللغة ، واتخذوا اللغة الانكليزية وغيرها من لغات الاميركيين بديلا عنها لما بقي منهم ثمة عثماني ، ولاندمجوا في الجنسية الاميركية اندماجا

على أن جريدة الهدى العربية هناك وغيرها من الجرائد احتجت احتجاجا شديداً على هذا المنشور ، وحاول جل العثمانيين أن يتجنسوا بالجنسية الاميركية لو لم تعدل السفارة عن هذا الرأي

هذا فضلا عن إهمال الحكومة لهذه اللغة في مدارسها حتى الموجودة في البلاد العربية ، ومحاولة إحلال اللغة التركية محلها . مع أن العرب لم يبق لهم جامعة غير هذه اللغة . فمس أعز شيء لديهم ، وهو هذه اللغة . انما هو مس وتنبيه لعصب الجنسية النائم لا يجوز صدوره عن حكومة تريد قيام الديمقراطية الجامعة مقام الجنسيات المفرقة ، مع اعتقادها أن الامة العربية ذات تاريخ مجيد قديم قبل الاسلام وحديث بعده ، وذات مدنية ودين ، قاما هذه اللغة فلا يمكن أن تفرط بها على أهون سبيل ، بل أنها تعد التفريط بهذه اللغة عقوقا لها ونكرانا للذات لا يصح صدورهما عن أمة فيها ذماء من الحياة

هذه شكاوى العرب التي يجهرون بها ننقلها على علاتها ، وما كان فيها غير صحيح ، فللحكومة أن تكذبه

ثم هناك شكاوى أخرى تعد أفرادية لاحاجة لبسطها ، لأنها ليست من العموميات التي تمس المصلحة العامة ، فنضرب عنها صفحاً ، لأننا لا نؤيد الاشخاص

وانما نحن نؤيد المبدأ ، ونؤيد الرابطة العامة التي تربط الترك بالعرب وبالعكس، فكل مماس بهذه الرابطة سواء كان من قبل الترك أو العرب نعده مساساً بمبدأ الديمقراطية الصحيحة ، التي لاسبيل لبقائنا بدونها أحياء بعد اليوم

ولقد كنا في ساعة النزع التي بلغتها الدولة في أواخر دور الاستبداد الماضي لانعلق آمالنا بشيء ينجينا من الموت الا الدستور الذي كنا نسعى اليه سعياً وراء السلامة من الخطر الذي كان يحيط بنا من كل مكان

العرب لايتعصبون للجنسية وانما يتعصبون للحق

﴿ وسبب هضم الترك لحقوقهم — وكون ذلك خطرا على الدولة ﴾

يظن بعض قصار النظر أن استياء العرب من إبعاد الاكفاء منهم عن الوظائف انما هو للوظائف نفسها . وقد فات هؤلاء الضعاف القلوب والرأي أن نسبة طلاب الوظائف من العرب الى مثلهم من طلابها من الاتراك كنسبة الواحد الى الالف . وأن طلاب الوظائف العالية من العرب يعدون على الانامل بينما طلابها من غيرهم لايعدون لكثرتهم

نعم يجوز أن يستاء بعض طلاب الوظائف من العرب للوظائف نفسها ، لكن استياء عامة الامة ليس كذلك ، لأنها ليست كلها طالبة وظائف ، بل هي طالبة عدل ومساواة ، والعرب أكثر الامم الشرقية استقلالا واعتماداً على النفس، يدلك عليه أنك لاتجد بلداً عامراً بالتجارة ، مفتوح الباب للمرتزقين في الشرق الاقصى عامة كالهند وجزائر ماليزيا وأفريقيا الشرقية واليابان والصين وغيرها الا وجدت فيه عربيا ، خصوصاً من سكان شطوط اليمن والعراق ومن نجد ، يرتزق بالصناعة والتجارة ، كما أنك لاتجد مكاناً ميسراً فيه الارتزاق، سواء في أوربا وأميركا وجزائرها وجزائر الفيلبين واستراليا وأفريقيا الجنوبية والغربية الا وجدت فيه عربيا من سكان سورية يرتزق فيه أيضاً

وقد بلغ عدد العرب في بعض الجهات حد الكثرة ، كحيدرأباد في الهند

مثلا ، فان جيش حكومتها النظامي من العرب ، وكجاوا وسنغافورة في جزائر ماليزيا ، فان تجارتها أكثرها بيد العرب

أما العرب السوريون فقد تجاوز عددهم في أميركا وحدها المائتي ألف نفس فضلا عن جاليتهم في الممالك الاخرى – فأمة هذا مبلغ اعتمادها على النفس لاتكون عالة على الحكومة ، ولا تشغف بحب الوظائف ، ولا يسوءها أن يكون موظفو الدولة تركا أوغير ترك ، ما دامت محترمة الجانب ، مصونة الحق ، حاصلة على الراحة التي يتمناها كل العثمانيين

وانما الذي أثار في نفوس العرب الريب والاستياء بعد إعلان الدستور هو إفراط حزب الاتحاديين في حب السلطة ، وتورطهم في النعرة الجنسية سواء بأزاء العرب أو غيرهم . وهذا التورط هو الذي ساقهم الى مناهضة العرب وإبعادهم عن وظائف الدولة ، خصوصاً عن الهيئة العالية ، وحرم على كل عربي حتى من أعضاء الحزب نفسه أن يشارك إخوانه الاتراك بالمذاكرات السياسية مما استشعر منه العرب أنهم بين أحد أمرين ، إما أن الاتراك يسيئون بهم الظن على برائتهم من كل ما يوجب سوء الظن ، وإما أنهم يريدون إحلال السلطة التركية محل سلطة الامة ، وأن الدستور انما جعله الاتحاديون وسيلة لانقلاب لايراد به الديمقراطية الصحيحة ، وانما يراد به حصر القوة في أيديهم ليتمكنوا بها من وضع أساس السيادة التركية على أساس أمتن مما كانت قائمة عليه ، ويعتبروا العرب وغيرهم مسودين والعنصر التركي سائداً ، فهم يتعمدون لذلك أن لايوجد موظف عربي في الهيئة العالية ، وأن يكون العرب محكومين والاتراك حاكمين

وأنت ترى أن كلا السببين اذا صح كاف لأن يثير استياء العرب وشكوكهم من نزع الوظائف منهم ، وليس من منصف في العالم يلومهم على استيائهم ، الا من كان في آذانهم وقر من آثار العبودية ، وعلى بصائرهم غشاوة من الذل ، فهم لايسمعون ولا يبصرون

ان العرب العثمانيين لم تشب وطنيتهم وإخلاصهم للدولة العثمانية شائبة الجنسية منذ كانت بلادهم جزءاً من مملكة آل عثمان ، فقد ألف كثير من عناصر الجمعيات

السرية السياسية ، وأقلقوا بال الدولة العلية ، وجلبوا عليها من المصائب والحروب ما هو مشهور في التاريخ ، كل ذلك تعزيزاً للجنسية ، واعتزازاً بالعصبية ، حتى فصلوا عنها جزءاً كبيراً من المملكة كما هو معروف

وأما العرب العثمانيون فلم يخطر لهم مثل هذا العمل في بال ، ولم يدر في خلدهم الانفصال عن جسم الدولة في حال من الاحوال ، بل كانوا هم والترك شركاء في تحمل المصائب أعواناً في الدفاع عن الدولة والذود عن حياضها ، وهذا مضيق شبكا وجبال البلقان وسهول بلادنا وأراضي كريد ، كل ذرة من ترابها تشهد بما أهريق فوقها من دماء أبناء العرب . وفوق هذا وذاك فقد كان أحرار العرب سائرين كتفاً لكتف مع أحرار الترك في ميدان الجهاد السياسي من أجل ايجاد حكومة دستورية في تركيا تصلح من شأن الامة ، وترفع بالدولة الى أسمى مقام

فبأي عدل وانصاف يساء بالعرب الظن ، فينحون عن مناصب الدولة ويبعدون عن المراكز السياسية ، الآن وجد منهم شخصان أو ثلاثة في الدور البائد كانوا من بطانة السلطان المخلوع وأعوانه ، مع أنه كان من الترك وغيرهم مالا يعد من أولئك الاعوان ، وكلهم متطوع في هدم أركان الدولة ، خادم لأفكار السلطان المخلوع بما هو فوق مايطلب منه

إن أولئك الاشخاص القلائل من أبناء العرب الذين كانوا من بطانة السلطان عبد الحميد لم يكونوا في نظر قومهم أرفع مقاما مما هم في نظر الدستوريين من الترك ، وكان أحرار العرب يؤاخذونهم ويزيفون أعمالهم كما كانوا يزيفون أعمال غيرهم من بطانة السوء وأنصار الاستبداد الماضي . وهذه صفحات جريدة الشورى العثمانية التي كانت تصدر في مصر باسم جمعية الشورى من سنة ١٩٠٧ وكنت أتولى تحريرها مع ابن عمي حقي بك ، تشهد أنا كنا نسوق كل رجال الدور الماضي بعصاً واحدة ، سواء كانوا من العرب أو غيرهم ، لأن الجنسية في نظرنا لايمكن أن تكون شفيعاً للظالمين ، حتى ولو كانوا أخوة وأبناء أعمام ، والحر الصادق الذي لاتهمه الا مصلحة الدولة العامة التي يشترك بها كل أبنائها لاينبغي له أن يساق بعواطف الجنسية ويدوس على المصلحة العامة والحقيقة والعدل كما يريد

أن يفعل اليوم أولئك الذين يزعمون أنهم أنصار الحرية والدستور

***

وإذاً فليس الأمر الاول هو سبب إساءة الظن بالعرب حتى تنزع منهم وظائف الدولة ، وبقي أن يكون الامر الآخر ، وهو محاولة الاتحاديين حصر السلطة في يد الاتراك ، وأن تكون معاملتهم للعرب بمثل هذا الامتهان ، مبنية على قرار سابق، يراد به تأييد مبدأ الناسيونالست لا الديمقراط ، وحصر السلطة في عنصر واحد ، ولو مهما كلف ذلك من المتاعب والاموال ، وهو ما يقوله بعضهم وتفصله تفصيلا تأبى شيمتنا الحرة بسطه في هذا المقام خوف التشويش على دولة نحرص على راحتها وبقائها أكثر من حرص الاتحاديين . وحسبنا أن القائل يؤيد صحة قوله بالواقع ، وهو محاربة حزب الاتحاديين لحزب الاحرار حتى أسقطوه ، ومحاربتهم اليوم لحزب الديمقراط (١) ولكل من يتشيع لفكرة توزيع السلطة وإحلال حكومة الامة محل حكومة الافراد أو العنصر ثم إغراقهم في القوة العسكرية كما قال الدكتور رضا توفيق بك لمحرر جريدة (بروجريه) « سالونيك» ثم صرفهم هذه القوة كل يوم الى جهة من جهات المملكة لارهاب أهلها ، وتجريدهم من السلاح لا ليتمكنوا من تقوية هيبة الحكومة الدستورية كما يزعمون بل من تقوية مركزهم ، ووضع قواعد مبدأ الناسيونالست أو الحاكمية التركية على أساس القوة والارهاب

إذا صح هذا القول وأنه هو السبب في اضطهاد العرب وإقصائهم عن مناصب الدولة ، وعدم مشاركتهم بالحقوق التي خولها لهم القانون الاساسي — اذا صح هذا فليس من عاقل قط يشك في أن أولئك المهوسين بالجنسية يسيرون بالدولة والأمة الى الانتحار — ويصح فيهم قول العلامة كوستاف لبون « إن شخصية الشخص العاقل تنعدم في الجماعات التي تعمل بمشاعرها وعواطفها دون عقولها »

« ١ » حكم في هذه البرهة في المجلس العرفي بالاستانة على عدة اشخاص من حزب الديمقراط ومحرري جرائده وعطلت نحو ثلاث جرائد من جرائده كما علم ذلك القراء مما نشرته جرائد الاستانة وغيرها

مع أن الأتراك أو بالاحرى الاتحاديين أحوج اليوم لأن يعملوا بعقولهم دون عواطفهم ، وأن يعلموا أن المهمة التي أخذوا على عهدتهم القيام بها ليست هي انقاذ عنصر من خطر ، بل إنقاذ دولة برمتها ، إنقاذ دولة لم يكن مصدر الخطر عليها الا احتكاك الجنسيات في الدور الماضي ، وتهييج أعصاب العصبيات الدينية والوطنية تهيجاً أدى الى صبغ الارض العثمانية بالدماء ، وجعل المملكة عرضة للخراب والاضمحلال ، وساق الدول المتمدنة الى الاخذ بناصر بعض العناصر العثمانية ، تعجيلا لموت الرجل الذي كانوا يسمونه الرجل المريض ، واقتسام تركته التي هي الميراث الوحيد الباقي للاسلام في الشرق . فانتقاله الى الغربيين اليوم ، وفي عصر الدستور الذي كان يرجى أن يكون مبدأ سلامة الدولة ، وقهر العدو القاعد لنا بالمرصاد . جناية كبرى يجنيها الاتحاديون ، ليس على الترك وحدهم ، بل على الترك والعرب والمسلمين كافة ، وذلك من حيث يظنون أنهم يصلحون

على أني أقول هذا وأنا في شك عظيم من صدق الرواية التي نقلها ذلك الناقل ، لأن حب الجنسية مهما بلغ من جماعة الاتحاديين لايمكن أن يصور لهم تحقيق مبدأ لم يعتمده الأتراك في القرون المظلمة التي كانت تساعدهم على مثل هذه الرغبة بل وأعظم منها ، أيام لم يكن احتكاك الاوربيين بالدولة بالغاً مبلغه اليوم ، ولم تكن الأفكار سواء في الشرق أو الغرب ، متكهربة بكهرباء الحرية مثلها في القرن العشرين

هذا من وجه ، ومن وجه آخر فانه ما من مطلع على تاريخ الامة العربية إلا ويعلم أنها لاتحكم بالعنف ، وتنفر ممن يحاول قهرها نفار الظليم ، وأمة مثلها لم يستطع أن يحكمها بالقوة أقوى الدول الفاتحة والغزاة الجبارين كالاسكندر المقدوني والرومان والفرس ، وأمة كانت منذ خمسة آلاف سنة أول واضع للشرائع المدنية على عهد حمورابي ، وهي فاتحة مصر ، ومؤسسة الدولة في مصر ، وقاهرة الامبراطورية الرومانية في تدمر ، وحافظة لغتها وعاداتها وقوميتها واستقلالها من الفرس والبزانس في العراق وأطراف الشام مدة أجيال كثيرة — كل هذا قبل الاسلام — ثم أمة تحمل بعد الاسلام دينها ولغتها وسلطانها ومدنيتها الى

جبال حملايا في آسيا شرقا ، وجبال البرنيه في أوربا غرباً . وأمة يقول عنها علماء أوربا مثل كوستاف لبون وسديو : « إن العرب أساتذة العالم » ويعرف الترك أنفسهم أنهم أي العرب أساتذتهم في دينهم وآداب لغتهم وعلومهم ، كما اعترفت بذلك جريدة « تصوير أفكار » في أحد أعدادها الصادرة في هذا الشهر . ثم هم تاركو ميراث الملك والخلافة اليهم

أمة هذا شأنها يمكن أن تكون والاتراك إخواناً ، متعاونين على الذود عن حياض السلطنة العثمانية ، والذب عن شرف الخلافة الاسلامية . ولكن لا يمكن أن تكون محكومة من الاتراك كحكم السادة بالعبيد كما يريد أولئك المتهوسون بحب السيادة ، المغالون بالجنسية ، الذين كتب كاتب منهم فى جريدة الاهرام مقالات لو اجتمع كل أعداء الاتراك وأعداء الدولة العثمانية لما كادوا هذه الدولة بمثل ما كاد لها وكتب حيث يقول فيما كتب « إن الاتراك (أي تلامذة العرب) لهم الحق أن يحكموا العرب كما يحكم الفرنساويون والانكليز (أي أساتذة العالم اليوم) أهل الجزائر والهند »

تحجر واسع في الدعوى ، وإغراق في الانانية ، يخجل الاطفال عن صدور مثلها عنهم ، وتأبى شيمة العقلاء مصادمة العرب بمثل هذا القول ، حتى لو كان في الامكان تطبيقه ، اجتناباً لجرح عواطف أمة تمثل ثلث سكان المملكة . وقد كان لهذه المقالات من سوء التأثير في أطراف البلاد العربية ، الا يزال يرن صداه في الآذان الى اليوم ، وانما هي جريدة آحاد ممن نزعت من صدورهم آثار الرحمة بقومهم وبدولتهم ، وضربوا بالاخوة الاسلامية والجامعة العثمانية عرض الحائط

لا يجوز أن تؤاخذ كل الامة التركية من أجلهم . وفي اعتقادي أن الزمان مدرسة ستعلم هؤلاء المتهوسين بالسيادة ، المغرقين في حب الجنسية ، أن منابذة العرب ، وعدم التضامن معهم تضامن الاخ مع الاخ خطأ يحل رابطة الاخوة بينهم حلا يجعل الفريقين نهباً مقسما بين الطامعين ، وربما كان الترك الى الخطر أقرب لتفرقهم بين عناصر تريد أكلهم أكلا

إننا بازاء خطر لا يتأتى دفعه عن الدولة بالترك وحدهم ، ولو كان بعضهم

لبعض ظهيراً ، كما لايتأتى للعرب وحدهم مثله أيضاً . فاذا كان أولئك المتهوسون بالجنسية لايشعرون بهذا الخطر ، فان الامة العربية وكافة العقلاء من الامة التركية يجب عليهم وجوباً أن لايسيروا فى تيار اللاشعوريين ، وأن يتداعوا بالاتحاد الصحيح الذي لا تشوبه شائبة غرض أو رياء ، لئلا يتداعى بنيان هذه الدولة باسم العصبيات الجنسية التي لو صح مبدأ القائلين بها فى الغرب ، فانه لايصح فى المملكة العثمانية التي لايزيدها تفكك أعضائها الا ضعفاً ، ولا يزيد الدول الغربية فيها الا طمعاً . بل إن أقل سبب يوجب ضعف الرابطة بين العرب والترك يكون وسيلة كبرى لتمادي التداخل الاجنبي فى هذه المملكة التي أصبحت هدفا لسهام الطامعين . ليس له جنة تقيه الا توثق الرابطة بين العناصر العثمانية، فاذا انحلت هذه الرابطة تداعت المملكة الى السقوط لاسمح الله

فالقائل بأن هذه الرابطة انما تتم بأن يكون الترك حاكمين والعرب محكومين عدوّ للعرب والترك ، عدو للاسلام ، بل عدو للدستور ، ينبغي أن نحاربه بكل قلم ولسان حتى يفيء الى الحق ، ويعلم أنه صديق لقومه جاهل ، والعدو العاقل خير منه

إن العرب يعرفون للترك فضلهم فى جمع كلمة المسلمين فى الشرق العثماني ويخلصون للدولة العثمانية إخلاصاً لاتشوبه شائبة رياء ، وجعلهم إخوانا لهم في الدين ، فينبغي أن يقابل إخلاصهم باخلاص مثله — وأن يلاحظ أن معظم قوة الدولة مستمد من آسيا ، وأن معظم آسيا العثمانية بلاد عربية . فأقل ما يجب على الحكومة الدستورية اذا أخلصت النية أن تدير هذه البلاد برجال من أهلها ينطقون بلسانهم ، ويعرفون عوائدهم وأخلاقهم ، ويحسنون التفاهم بينهم وبين حكومتهم

وقد رأينا في أحد أعداد جريدة المفيد البيروتية الصادر في ٢٨ المحرم سنة ١٣٢٩ خبراً مؤداه أن قائمقام قضاء القنيطرة التابع لولاية سورية طلب في هذه الآونة نقله الى قضاء آخر يتفاهم مع أهله ، لأنه يجهل اللغة العربية ، ولا يرى من الصواب أن يتفاهم مع الاهالي بالواسطة أي بواسطة الترجمان

وقد نشرت جريدة إقدام التركية في أحد أعدادها الصادر في شهر كانون الثاني (يناير) الجاري أيضاً محادثة بين صاحبها جودت بك وبين أحد المستشرقين

النمساويين العارفين بأحوال البلاد العربيـة عن شؤون اليمن ، جاء فيها من كلام لذلك المستشرق : أن حكم اليمن بأناس لايعرفون لغـة أهلها خطأ كبير ، وأنه شاهد بعينـه وسمع بأذنه مرة شكاية لأحد اليمانيين ذكرها للوالي بواسطة المترجم ، فعكسها المترجم عكساً أي جعل الحنظل عسلا

وهذا وأشباهه كان من جملة الأسباب التي جعلت إدارة اليمن من أصعب الامور على الدولة ، ووسعت مسافة الخلف بين الحكومة والاهلين فلم يغمدلهم سلاح مع جنود الدولة منذ أربعمائة سنة الى اليوم

ومع إدراك الحكومة الدستورية لهذا الخطأ ، ومع ما كانت تبسطه الجرائد العربية من رجاء اليمانيين لهـذه الحكومة بارسالها اليهم واليا عربيا ، وموظفين يعرفون العربية ، فانها لم تصغ الى طلبهم قط ، ولو سألتها عن أسباب هذا التعنت لقالت : إنها لاتجـد من أبناء العرب من مارس الامور الادارية ، وصار كفؤاً للوظيفة التي تسند اليه . مع أن أكثر الولاة ، بل أركان الوزارة نفسها اليوم الذين هم من غير أبناء العرب لم يسبق لهم ممارسة الامور الادارية الكبيرة ، وبعضهم خصوصاً من كان من صنف الضباط لم يمارسوا الامور الادارية قط . ومع إن الذين مارسوا الادارة من العرب كثيرون ، ومنهـم على ماعلمت ١٣ متصرفا أحيلوا بعد إعلان الدستور على المعاش ، منهم أربعة أعرفهم شخصيا ، وهم من أبناء دمشق ، ومن هؤلاء إثنان كان أحدهما محل ثقة حسين حلمي باشا لما كان والياً في اليمن ، والآخر محل ثقة المشير عبد الله باشا الذى أخلفه فيها . ومهما قيل إن الصـفات اللازمة لمأمور كبير لم تتوفر في هؤلاء وغيرهم من أبناء العرب ، وهي متوفرة في أبناء الترك ، فانه قول غير سديد ، لأنا نرى أن أكثر من أسندت اليهم هذه الوظائف الكبيرة بعـد الدستور من أبناء الترك لم يحسنوا الادارة ، ولا حاجة بنا لذكر من عرفناه منهم ، تجنباً للشخصيات

وإذاً فالتربية العامة في الدور الماضي هي المسئولة عن فقد الصفات اللازمة لمن يدير شؤون الحكومة في سائر العثمانيين . وليس من العدل تخصيص عنصر بعينه . والعثمانيون لايمكن أن يصيروا ملائكة في بضع سـنين سواء كانوا من

الترك أو العرب أو غيرهم — فأحرى بحكومة دستورية مثل حكومتنا اليوم أن تهيء النفوس مذ اليوم للخير والفضيلة ، وتؤهلها لادارة شؤون الدولة بلا استثناء اذا كان هناك حسن نية ، ولا يضيع حق بين خيرين

أما مايذهب اليه بعض المتهوسين بالجنسية، أو بعض أهل الوساوس والاوهام من أن العرب لايؤمن جانبهم لأنهم يطوون في صدورهم أملا ورجاء باحياء الدولة العربية ، وبعث الخلافة العربيـة من الرمس . فتخرص بالباطل مبني على مجرد سوء الظن، والاستقراء الناقص . ومأخوذ من الأراجيف التي يرجف بها أعداء الدولة تارة ، وأصدقاؤها الجهلاء أخرى — وقد أشرت في صدر هذه الرسالة الى مصـدر هذه الاراجيف التي لاقيمة لها في نظر العـقلاء . وها أناذا أزيد الموضوع وضوحا يعلم منـه مقدار إخلاص العرب لدولة آل عثمان ، وقيمـة ما يتخرص به المتخرصون في شأن هذه الخلافة الموهومة

﴿ أرجوفة الخلافة العربية وبطلانها ﴾

واخلاص العرب

إن العرب العثمانيين ينقسمون الى قسمين ، قسم يقطن جزيرة العرب نفسها وهم بعض سكان اليمن والحجاز وجزء من العراق ، وقسم يقطنون باقي الولايات العربيـة المعروفة — فهـذه الولايات أي من القسم الثاني ، ويضاف اليها ولاية الحجاز من جزيرة العرب أيضاً ، لم يعرف عنها منذ التحقت بالدولة العلية أو عن بعضها أنها دبرت أدنى تدبير أو تأججت فيها نار الثورة، أو ناوأت الدولة مناوأة يقصد بها أمر سياسي أو فـكرة جنسـية قط ، ما خلا بعض الجهات العريقة في البداوة أو الجهالة ، فان ما كان يحدث فيها من الفتن انما هو شغب سببه الجهل وسوء إدارة الحكومة ممـا لاتخلو منه ولاية عثمانية في كل حين، فلا كلام لنا عليها

(أما القسم الاول) وهم أهل اليمن . فالذي عرف عنهم واشتهر في تاريخهم

أنهم كانوا في عراك مستمر، وقتال دائم مع الدولة، لأسباب منها ماهو ديني، ومنها ما هو محلي ناشىء عن ظلم الحكومة كما سترى

أهل اليمن العثماني ينقسمون باعتبار المذهب الى قسمين، قسم على مذهب الامام الشافعي، وقسم على مذهب زيد بن علي، ويسمون الزيدية وهؤلاء يتشيعون لآل علي من أبناء فاطمة رضي الله عنهما، ويسوقون الامامة الى ولد زيد بن علي، وهم من معتزلة الشيعة المعتدلين الذين يقولون بصحة إمامة المفضول مع وجود الافضل

والامامة واجبة عندهم كوجوبها عند سائر المسلمين، إلا أنها متعينة في آل البيت، وهذا كما ترى اعتقاد مذهبي أو هو ديني يدعوهم الى الالتفاف دائما حول إمام من أئمتهم تصح له البيعة. والاعتقاد لايمكن انتزاعه من الصدور بوجه من الوجوه، لأنه يتعلق بالضمائر، ولأن لهذه العقيدة ارتباطاً بأمورهم الشرعية كما يعلم ذلك كل مطلع على تفاصيل مذاهب الشيعة، فلا حاجة للاستفاضة في الكلام عليها هنا

انتهى ما كتب من هذه الرسالة والحمد لله

فهرس مجموعة آثار رفيق بك العظم

مقدمة

تأبين وترجمة الفقيد

لصديقه السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار

﴿ قسم الآثار المخطوطة التي لم تنشر من قبل ﴾

كتاب السوانح الفكرية . في المباحث العلمية

كتاب تاريخ السياسة الاسلامية

موجز السيرة النبوية

نظام السلطنة الاسلامية

﴿ رسالة الجامعة العثمانية والعصبية التركية ﴾

فهرس القسم الثاني من هذه المجموعة

﴿ وهو الآثار التى سبق نشرها في المجلات ﴾

خطب

رفيق بك العظم

التاريخية





مطبعة المنار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

التدوين في الاسلام

خطبة ألقاها في نادي المدارس العليا بالقاهرة «١»

سادتي الكرام

حقاً اني حري بالفخر، حقيق بتقديم واجب الشكر، على أن تنازلتم بقبولي هذه المرة خطيباً في ناديكم الجامع لنوابغ الامة ونخبة أهل الفضل والعلم منها، واني أعترف بأن موقفي بينكم موقف صعب لايجرأ على الوقوف فيه ضعيف مثلي ليس في مرتبتكم السامية في العلم والاطلاع، فألتمس منكم لهذا الطلب المعذرة اذا تلعثم لساني، واضطرب جناني، والكريم يعذر على كل حال

ولقد اخترت موضوعا لبحثي هذه المرة أظنه لا يخلو من فائدة تاريخية مع ما أعتقد في نفسي من العجز عن إعطاء مثل هذا الموضوع أو البحث حقه من البيان والتدقيق لكن قاعدة « مالا يدرك كله لايترك كله » ربما سمحت لي بعرض معلوماتي في هذا الشأن على مسامع سادتي الحاضرين مهما كانت قيمتها هينة في نظركم ونظر التاريخ

الموضوع — هو التدوين في الاسلام أو مبدأ الكتابة وتقييد العلم في الصحف عند المسلمين

إن الذي دعاني الى اختيار هذا البحث على بعده عن أذهان كثير منا لهذا العهد هو تصدي بعض الباحثين لتطريق الوهن والتجريح الى العلوم التي وصلت الينا من أسلافنا في الصدر الاول كالحديث وآداب اللغة العربية والتاريخ

«١» نشرت هذه الخطبة في الجزء العاشر من المجلد العاشر لمجلة المنار

فقد زعموا أن المسلمين لم يدونوا هذه العلوم الا في القرنين الثاني والثالث، وان الاخبار التي تتلقى بالرواية مدة قرنين ثم تكتب بعد ذلك الامد الطويل، قلما يوثق بسلامتها من التحريف والتبديل، وذلك قياس لاخبار العرب على غيرها من أخبار الامم الاخرى التي لم تكتب صحيحة في حينها، وانما كتبت بعد مرور زمن طويل أو قصير عليها، مشوهة بآفة التبديل والتحريف، فسقط اعتبارها على ظنهم في التاريخ

وهذا الزعم بالنسبة الينا مردود من وجهين :

(الوجه الاول) : ما عرف عن العرب من إتقان الحفظ والرواية وكونهم مطبوعين على ذلك

(الوجه الثاني) : ثبوت التدوين وكتابة الاخبار في الاسلام من أوائل القرن الاول أي من عهد صاحب الرسالة وأبي بكر الصديق وثبوت عناية العرب المسلمين بالكتب أو العلوم المدونة منذ ذلك القرن

أما الوجه الاول — فبيانه : أن قوى الانسان ومشاعره خاضعة كلها لحكم الفطرة . إذ المشاهد ان الانسان اذا فقد اداة من قواه العاقلة أو مشاعره قويت فيه اداة أخرى . فضعيف الذاكرة يكون قوي التفكر بحكم الحاجة الى استحضار صور المعلومات التي تغيب عن حفظه . وفاقد البصر يكون قوي السمع والحفظ كذلك

والعرب لما كانوا أمة أمية قليلي العناية بالكتابة التي هي أداة من أدوات الحضارة استعاضوا عنها لاستبقاء أخبارهم وتداولها بقوة الحفظ فمرنوا على هذه القوة حتى صارت لكثير منهم ملكة لا يحتاج صاحبها الى تكلف عناء في حفظ مايرد على سمعه من الاخبار والاشعار، فقامت عندهم مقام الكتابة وتقييد الاخبار بالصحف . لذلك كانت أخبار العرب وأشعارهم التي وصلت الينا الى هذا اليوم انما اتصلت بالمسلمين بالرواية ثم قيدها هؤلاء بالكتب في العصر الاول ومابعده

وكلكم تعلمون أيها السادة مبلغ قوة الحفظ عند العرب بما تقرؤنه من أخبار حماد الراوية الذي كان ينشد عدة قصائد على قافية واحدة لعدة شعراء..

وكذا تقرؤن أخبار غيره التي من هذا القبيل — وقد كان عبد الله بن عباس يحفظ القصيدة الطويلة بسماعها مرة واحدة . وها أنا ذا أورد لكم خبراً من أخباره في الحفظ يستدعي إعجابكم بذلك الرجل الجليل الذي كان يستوعب ذهنه من شرائع الاسلام وأخبار العرب وغيرهم ما لا تستوعبه مكتبة من المكتبات الضخام

روى هذا الخبر صاحب الاغاني بسنده قال : بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الازرق وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمرو بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين حتى دخل وجلس فاستنشده ابن عباس فأنشده قصيدة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتى على آخرها . فأقبل عليه نافع بن الازرق فقال : الله يا ابن عباس إنا نضرب اليك أكباد الابل من أقصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل . ويأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشي فيخسر

فقال له ابن عباس : ما هكذا قال. وإنما قال :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر

فقال : ما أراك الا قد كنت قد حفظت البيت ؟ قال : أجل وإن شئت أنشدك القصيدة كلها قال : فاني أشاء . فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها

فانظروا الى هذا الذكاء العظيم الذي اختص به أولئك القوم حتى لقد بلغ من ثقتهم بقوة الحفظ والرواية أن كانوا لا يثقون بخبر مكتوب الا اذا كان معزواً بالسند والرواية — ولما أخذ العلماء بتدوين الاخبار النبوية وأخبار الصحابة ثم تاريخ الخلفاء دونوا هذه الاخبار مدعومة بالرواية . ولم يكتفوا بقيدها في الصحف مجردة عن الاسانيد خوف دخول التحريف عليها واطمئناناً للرواية المعروفة السند المستوفية لشروط الصحة على الترتيب المعروف عند المحدثين الى الآن

وفي اعتقادي أن الذي ذهب بالباحثين الى الظن بعدم تدوين الاخبار الا بعد القرن الثاني هو تقيد المؤلفين في ذلك العصر بنقل الاخبار بالرواية مع فقد ما دون قبل ذلك لفقده لحسن التنسيق والجمع وشروط الصحة عند المؤلفين ، لاسيما من جهة الترتيب والتخصيص الذي يروق أهل العصر الثاني ويناسب حالة الرقي في الحضارة كما سنتكلم عليه بعد

هذا بيان الوجه الاول — وأما الوجه الثاني وهو ثبوت التدوين وكتابة الاخبار في الاسلام في أوائل القرن الاول فالادلة عليه كثيرة وتشتتها في ثنايا الكتب وتفاريق السطور لايمنعنا أن نجتزىء منها بالقليل المقنع الذي وسعنا جمعه . ولاقدم بين يدي ذلك مقدمة قصيرة فأقول :

إذا قيل إن العرب أمة أمية فليس هذا القول على إطلاقه ، بل ربما أطلق هذا الوصف على عرب البادية إطلاقا أعم من إطلاقه على غيرهم من سكان المدن وأرباب الدول البائدة ، كسكان اليمن ومدن نجد والحجاز والعراق والجزيرة وأطراف الشام الذين عرفت لهم دول ذات حضارة ومجد ، كالتبابعة في اليمن والمناذرة في العراق ، والحوارث في أطراف الشام ، الذين منهم ملوك تدمر في شرقي سورية الذين تنسب اليهم الزباء « زنوبيا » وزوجها أذينة « أوذينوس » ومنهم ملوك غسان في جنوب سورية وتاريخهم مشهور معروف

فهؤلاء الشعوب لا يجوز أن يطلق عليهم وصف الامية بالنسبة لحالة كل عصر كانوا فيه ، وانما غموض تاريخهم وطموس آثارهم، أضاف تاريخهم الى التاريخ القديم . فكان مجهول الحقيقة ، الا قليلا مما وقف عليه الباحثون من الآثار الكتابية للحميريين في اليمن . والكتابات النبطية في شمال الحجاز . وسيكشف دءوبهم على البحث وتتبع الآثار أكثر من ذلك

وحسبكم شاهداً على أن الامية لا يجوز إطلاقها على كل العرب ما كان موجوداً من كتب أهل الحيرة الى أوائل القرن الثالث الهجري بدليل ما قاله هشام بن محمد بن السائب الكلبي في كتاب الانساب وهو : إني كنت أستخرج أخبار العرب وأنسابهم ، وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من ولي

منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة

أما عرب الحجاز فالمعروف عن الكتابة عند سكان المدن منهم قبيل البعثة انها كانت موجودة ولو مع الندرة . يدلك عليه كتابة المعلقات السبع التي كانت على الكعبة . والصحيفة التي تعاقدت فيها قريش على رد الحقوق وإنصاف المظلوم وعلقوها على الكعبة . والمعروف أنهم كانوا يكتبون العربية تارة بالخط النبطي وتارة بالخط الحيري الذي عرف بعد ذلك بالكوفي وتارة بالخط العبري . وممن عرف منهم بكتابة هذا الخط ورقة بن نوفل ابن عم خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم

ولما جاء الاسلام كان النبي عليه السلام يحض على تعلم الكتابة وتعلم اللغات الاخرى . فشاعت الكتابة بين الصحابة وأبناء الصحابة . وبها ضبط الوحي وحفظ القرآن . فكانت كلما نزلت آية كتبها الكاتبون في الحال . ومن هؤلاء الكتاب عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان وخالد بن سعيد بن العاص وأبان بن سعيد والعلاء الحضرمي وحنظلة بن الربيع وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وعبد الله بن الارقم الزهري وهؤلاء كتاب الوحي والرسائل كتبوا للنبي عليه السلام . وأما من عداهم من كتاب الصحابة فكثيرون ، منهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود ومعاذ ابن جبل وغيرهم . ومن أبناء الصحابة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص (هو صحابي) وعبد الله بن الحارث بن هشام وغيرهم

إذاً علمتم مما تقدم أن الكتابة كانت شائعة على عهد النبي عليه السلام بين المهاجرين والانصار ، وان أول ما كتب بها هو القرآن الكريم ، وكانوا يكتبونه على الرقاع والاضلاع وسعف النخل والحجارة الرقاق البيض ، ثم جمعه أبو بكر رضي الله عنه ودونه في الصحف على ما هو معروف مشهور

وأما الحديث وفيه تاريخ الصدر الاول ، وهو الذي عليه مدار بحثنا الآن فانه كان يكتب كذلك على عهد النبي عليه السلام على نحو ما كانوا يكتبون عليه القرآن . وقد رخص لهم النبي بكتابته كما أمرهم بكتابة العلم مطلقاً

فقد أخرج ابن عبد البر في جامع بيان العلم بسنده عن أنس بن مالك قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قيدوا العلم بالكتاب » وروى بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قلت يارسول الله أ كتب كل ما أسمع منك ؟ قال « نعم » . قلت : في الرضا والغضب ؟ قال « نعم فاني لا أقول في ذلك كله الا حقا »

وروى بسنده عن أبي هريرة قال : لما فتحت مكة قام رسول الله فخطب فقام رجل من اليمن يقال له أبو شاه فقال : يارسول الله أ كتبوا لي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ا كتبوا لابي شاه » يعني الخطبة — وروى ابن عبد البر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره — وأخرج عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول : لم يكن أحد من أصحاب محمد أ كثر مني حديثاً إلا عبد الله ابن عمرو بن العاص فانه كتب ولم أ كتب — وروي عن عبد الله بن عمرو قال : كنت أ كتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ونهتني قريش وقالوا : أتكتب كل شيء تسمعه ورسول الله يتكلم في الرضى والغضب ؟ فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله فأومأ بأصبعه الى فيه وقال « ا كتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه الا حق »

وأخرج الذهبي في تذكرة الحفاظ : أن أبا بكر كتب أ كثر من أربعمائة حديث — وفي تنوير الحوالك على موطأ مالك وغيره من كتب الحديث : أن عمر حاول مراراً أن يكتب السنن ثم عدل خوفا من انكباب الناس على كتب السنن مع وجود كتاب الله

وأخرج ابن عبد البر عن سعيد بن جبير أنه كان يكون مع ابن عباس فيسمع منه الحديث فيكتبه في واسطة الرحل فاذا نزل نسخه — وأخرج عن معن قال: أخرج إلي عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابا وحلف أنه بخط أبيه بيده

هذه الاخبار الصحيحة وما ماثلها تدلنا على أن الحديث كتب إن لم يكن كله فجله على عهد الرسول وأصحابه الكرام . والحديث يشتمل أ كثر تاريخ الخلفاء كما تعلمون . وكتب فن النحو الذي أملاه علي بن أبي طالب على أبي

الاسود الدؤلي . وكتب عبد الله بن عمرو بن العاص كتابا في الاحداث وكتابا فيما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعهما منه شفي بن مانع الاصبحي، فقد نقل المقريزي من رواية أبي سعيد بن يونس صاحب تاريخ مصر عن حياة ابن شريح قال : دخلت على الحسين بن شفي بن مانع وهو يقول : فعل الله بفلان فقلت : ماله ؟ فقال : عمد إلى كتابين كان شفي (يعني أباه) سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص ثم ذكر الكتابين قال : فأخذهما فرمى بهما بين الخولة والرباب: مركبين كبيرين من سفن الجسر مما يلي الفسطاط

وأما في عصر التابعين وتابعيهم فقد كانت العناية بكتابة الاخبار أكثر وأقبل الناس على اقتناء الكتب وجمع المكتبات . ومن ذلك مارواه ابن عبد البر عن هشام بن عروة عن أبيه أنه احترقت كتبه يوم الحرة وكان يقول : وددت لو أن عندي كتبي بأهلي ومالي . وكانت وقعة الحرة في سنة ثلاث وستين في خلافة يزيد بن معاوية ، وكان ابن شهاب الزهري من علماء المائة الاولى ، ومولده في سنة احدى وخمسين ووفاته بعد المائة ، إذا جلس في بيته وضع الكتب حوله فشغلته عن كل شيء كما ذكر ذلك ابن خلكان. والزهري هذا هو الذي كتب السنة في دفاتر أو كتب وزعت على الامصار بأمر عمر بن عبد العزيز

ولم يأت القرن الثاني من الهجرة حتى كثرت الكتب في فنون شتى خصوصاً فنون العربية والادب . فكان منها مكتبات لبعض الافراد ما أظنها توجد عند أحد منا الآن . فقد ذكر ابن خلكان وغيره في ترجمة أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة المولود بين سنة خمس وستين وسبعين للهجرة والمتوفى في منتصف القرن الثاني أنه كان أعلم الناس بالقرآن والادب والعربية والشعر . وكانت كتبه التي كتبت عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له الى قريب من السقف ثم إنه تنسك فأخرجها كلها فلما رجع الى علمه لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه

هؤلاء الاشخاص أيها السادة هم الذين ظفرت بأسمائهم . وكانوا ممن اقتنوا الكتب من منتصف القرن الاول إلى منتصف القرن الثاني . فما بالكم بمن لم أظفر بهم وبمن لم يأت ذكرهم في التاريخ ؟ لاجرم أنهم كثيرون جداً . وربما

لم يخل منهم مصر من الامصار الاسلامية في ذلك العصر

ماهي هذه الكتب ؟ وما هي كتب عروة التي احترقت سنة ثلاث وستين؟ أليست في علوم شتى من العلوم التي دونها العرب واشتغلوا بها ؟ وهل احترقت كتب عروة في اليوم الذي دونت فيه ؟ كلا بل كتبت هي وغيرها من الكتب في غضون القرن الاول أو على مدى هذا القرن . فاذا كان ذلك كذلك فهل يبقى مجال للريب في أن العرب دونوا علومهم في الصحف من ابتداء القرن الاول ؟ وهل يستراب في صحة هذه العلوم مع ماثبت معنا من أنها كتبت مدعومة بالرواية لتكون أبعد من سهو الكاتبين وتحريف الناسخين

لاجرم أن القوم الذين يوجد فيهم من ينصرف عن الملك الى علوم الطب والكيمياء ـ التي ندر من (كان) يشتغل بها من الامم الراقية في ذلك العصر ويؤلف في هذين العلمين ـ حريون بتدوين أخبارهم والعناية بآدابهم . فقد ذكر المؤرخون في ترجمة خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى في سنة خمس وثمانين للهجرة أنه كان من أعلم قريش بفنون العلم . وله كلام في صنعة الكيمياء والطب . وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما . وله مسائل دالة على معرفته وبراعته . وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس وله فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ما جرى له مع مريانس المذكور وصورة تعلمه منه . والرموز التي أشار اليها . وله فيها أشعار كثيرة مطولات ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسعة علمه وكانوا يعيبونه على اشتغاله بهذه العلوم وتركه حبل الملك والخلافة على الغارب حتى تمكن من سلبه منهم بنو مروان

ومن المؤلفين في ذلك العصر أي العصر الاول غير خالد بن يزيد زيادة ابن سمية الذي ألحقه معاوية فى أولاد أبي سفيان فجعل الناس يطعنون عليه فألف كتابا فى علم الانساب فى مثالب العرب وطعن فيه فى أنسابهم فكفوا عنه كما ذكر ذلك ابن النديم

ومنهم زائدة بن قدامة الثقفي أبو الصلت الكوفي قال ابن النديم : مات

سنة إحدى وستين أو ستين وله من الكتب كتاب السنن وكتاب القرآآت وكتاب الزهد وكتاب المناقب

ومنهم عبيد بن شرية الجرهمي ، وكان فى زمن معاوية وأدرك النبي ووفد على معاوية من اليمن فسأله عن الاخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وغير ذلك من المسائل فأجابه عما سأل ، وله من الكتب : كتاب الامثال ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين

ومنهم سليم بن قيس الهلالي أحد أصحاب علي بن ابي طالب . وله كتاب فى الحديث . ويوجد هذا الكتاب الى الآن فى مكتبة السيد ناصر حسين الموسوي إمام الشيعة فى مدينة لكناؤ فى الهند كما ذكر ذلك صاحب مجلة البيان الهندية فى العدد السادس من سنته الرابعة . وذكر غير ذلك عدة كتب لاصحاب علي موجودة عند الشيعة الامامية يضيق المقام عن ذكرها

وأظن أن فى هذا كله بيانا كافياً يقنع الذاهبين إلى أن المسلمين لم يدونوا الحديث والعلوم الا فى القرن الثاني للهجرة أو بعده . وان رواية الاخبار والآثار التي التزمها المسلمون فى كتبهم المكتوبة بعد القرن الثاني إنما كانت شرطاً فى صحة الاخبار التي نقلوها عمن كتب قبلهم لوثوقهم برواية الرواة الكثيرين أكثر من وثوقهم بخبر الكاتب الواحد

إذ الخبر الذي يكتب فى صحيفة ثم يترك لأيدي النساخ والمحرفين والدساسين ليس فى الصحة بمنزلة الخبر الذي يكتب ثم يتناقله الرواة قراءة ورواية بحيث يأخذه الواحد عن الآخر كما كتب بحرفه أو معناه إلى ماشاء الله

وأظنكم أيها السادة تسلمون معي أن هذه الطريقة فى النقل لاتعد ثلمة فى تاريخ الاسلام يتطرق منها اليه الوهن والتجريح بل تعد تحقيقاً للاخبار بالغا حد الامانة والتمحيص لم تسبق اليه أمة من الامم غير المسلمين

بقي هنا اعتراض ربما يرد على ما تقدم من الكلام وهو قولهم : أين هي تلك الكتب التي دونت فى القرن الاول إلى منتصف القرن الثاني مع انه لم يصل الينا منها إلا ماذكرت من الكتب الموجودة عند الامامية وهي فى الحديث وفيما

روي عن علي من بعض الخطب والاخبار ، وان أقدم ماوصل الينا في التاريخ كتاب فتوح الشام لابي إسماعيل الازدي البصري من علماء النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة . وأين هي كتب الزهري التي جمع فيها الحديث ووزعها عمر بن عبد العزيز على الامصار

فالجواب على هذا سهل وهو أن المسلمين كانوا يتلقون كتب الاخبار قراءة ورواية كما تقدم بيانه فلما استبحر العمران وترقت وسائل الحضارة واقتضى أن يترقى فن التأليف تنسيقاً وترتيباً وكتبت فى ذلك الكتب الجامعة لاصول كل فن أو فروعه ادمجت تلك الروايات او الصحف المشتملة على مسائل متفرقة فى تلك الكتب الجامعة مع محافظة المؤلفين على اسانيدها وفاء بحق الامانة وتصحيحاً للاخبار كما ترون ذلك فى كل كتب الفنون التي اشتغل بها العرب ودونت بعد القرن الثاني مدعومة بالرواية على طريقتهم السابقة البيان كالتاريخ والحديث وآداب اللغة العربية . ولما انتفت الحاجة إلى تلك الكتب القديمة قضت على اعيانها سنة بقاء الانسب بالدثور بضرورة الحال . واما ما كتب فيها فهو هو بعينه ما كتب فى الكتب الجامعة بعد ذلك العصر . فاذا دثرت تلك الصحف التي خطتها انامل العرب فى العصر الاول فان ما كان فيها لم يزل باقياً يشهد بصحة تاريخ الاسلام والسلام اه



اسباب سقوط الدولة الأموية

خطبة ألقاها الاستاذ المؤرخ رفيق بك العظم على أعضاء نادي دار العلوم في يوم الخميس ٥ ذي القعدة سنة ١٣٢٧ (١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٩) ونشرت في الجزء التاسع من مجلة دار العلوم

سادتي

وعدتكم يوم الخطبة الغراء التي خطبها فينا الاستاذ الخضري في ترجمة أبي مسلم الخراساني أن أقول كلمة ألمُّ فيها بشيء من الاسباب التي دعت الى ضعف الدولة الاموية ، وتيسر قيام الدولة العباسية ، وانتشارها في المملكة الاموية بواسطة أبي مسلم وأضرابه من رجال الدعوة ثم نجاحهم في الامر ، وقلبهم الدولة الاموية وثل عرشها ، وقيام الدولة العباسية مقامها

ولما هممت بتتبع التاريخ من أجل هذه الغاية عذرت الاستاذ الخضري لاكتفائه بايراد سيرة أبي مسلم وما كان من انتشار الدعوة العباسية ، لانه لو أراد أن يطرق هذا البحث ويتبسط في مناحيه لاحتاج الى الوقوف أمامكم ساعات وأنا بعده كذلك ، ومع هذا فلا نكون وفينا هذا البحث حقه من البيان لذا ألتمس من حضراتكم المعذرة فيما سأتلوه عليكم مختصراً في هذا الباب ولو أضعت وقتاً ما في تمهيد الكلام ببحث في الخلافة لارتباط هذا البحث بسقوط بني أمية وقيام دولة العباسيين

تمهيد

تعلمون أيها السادة أن السلف (١) اختلفوا في هل الخلافة واجبة شرعا أو عقلا؟ والذين قالوا : إنها واجبة عقلا قالوا : إنها وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، الى آخر ما قالوه

وتعلمون أن ما وجب بالعقل وجب تحكيم العقل فيه ، ولما كان تعريف الخلافة أنها حمل الكافة على الشرع ، وانما تحمل الكافة على الشرع بمن تتوفر فيه شروط اللياقة لتولي أمور الامة أياً كان من المسلمين ، فقد ترك الشارع صلى الله عليه وسلم أمر الخلافة لرأي الامة تحكم فيه ضمائرها وعقولها دون أن ينص على شخص بعينه

ومما يدلنا على أنه ليس هناك نص ديني من قبل الشارع على تخصيص الخلافة بعلي أو العباس وآلهما أو غيرهم من المسلمين (٢) ان أبا بكر لما احتج على الانصار يوم السقيفة لم يحتج عليهم بخبر عن الرسول ، بل بالكفاءة والاستحقاق ورضا الامة فيمن تختاره أميراً عليها حيث قال :

يامعشر الانصار إنكم لا تذكرون فضلا إلا وأنتم له أهل ، وإن العرب لا تعرف هذا الامر الا لقريش ، هم أوسط العرب داراً ونسباً ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين — وأخذ بيدي عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح —

«١» يريد من السلف المتقدمين مطلقا بحسب المعنى اللغوي لا المعنى الخاص في عرف علماء السنة وهم اهل الصدر الاول من علماء الصحابة والتابعين وزاد بعضهم الأئمة المجتهدين والخلاف الذي اشار اليه لم يؤثر عن احد من سلف الامة الصالح وانما هو بين علماء الكلام والاصول من اهل السنة والمعتزلة وأهل السنة لا ينكرون دلالة العقل على نصب الامام ولكن الوجوب الشرعي عندهم يكون بدليل السمع لا بدليل العقل وانما يؤثر القول بدلالة العقل على وجوب نصب الامام عن الجاحظ وأبي الحسين البصري من المعتزلة وسائرهم موافقون لأهل السنة فيها . وكتبه مصححه

«٢» اي من افراد المسلمين ، وأما جماعاتهم فقد صحت الاحاديث بان الأئمة من قريش وأجمع على ذلك اهل السنة ومنهم اهل المذاهب الاربعة المتبعة كما هو منصوص في كتب العقائد والفقه وشروح كتب السنة. وكتبه مصححه

فكثر اللغط بين الانصار حتى بادر عمر بن الخطاب وقال : ابسط يدك أبايعك فبسط يده فسبقه بشير بن سعد من الانصار ، فبايعه وبايعه سائر الناس

ولو كان هناك نص على علي لما فات أبا بكر وسائر الناس ، ولما قال الانصار منا أمير ومنكم أمير ، وهم أول من نصر رسول الله في حياته ، فلا يعدلون عما أمر به بعد وفاته ، وعلي نفسه اعترف بصحة خلافة أبي بكر ، ولم ينازعه عليها باسم الدين إذ خطب مرة فقال :

لقد أمر النبي أبابكر أن يصلي بالناس وإني شاهد ، وما أنا بغائب ، وما بي مرض، فرضينا لدنيانا مارضي به النبي لديننا

توفي أبو بكر فولى الخلافة بعهد منه عمر بن الخطاب. ثم توفي عمر فصرفتها الشورى الى عثمان . وعلي معروف المكانة من الدين والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقل فريق منهم بصرفها اليـه باسم الدين ، وكل ما قيل وكتب بعد ذلك من المغامز التي غمزت بهـا الشورى ، أو غمزت بها ولاية أبي بكر وعمر ليست بصحيحة ، وما جاء من أخبار الخلاف على الخلافة بين الصحابة لا يحمل على غير ما يقع عادة من النزاع بين المتنافسين على الامارة في كل أمة وجيـل ، لـكن صوره الامامية بعد في الصورة التي توافق مذاهبهم السياسية والدينية حتى تمكنوا من صبغه بصبغة الدين ، والقول بوجوب الامامة شرعا لعلي وآله وسوقها بعد ذلك في بنيه أو بني عمه العباس باسم الدين

علمتم أيها السادة من هذه المقدمة ان الخلافة صارت الى أبي بكر ثم الى عمر ثم الى عثمان رضي الله عنهم ، ولم يقم بين العرب من أجلها أدنى نزاع باسم الدين بل كان العقل هو الحكم(١) والمصلحة رائد جمهور العقلاء من الامة، بقطع النظر عما إذا كان علي رضي الله عنـه حتيقا بالخلافة فانه حتيق بها بلا شك ولا ريب ، وانمـا كانت هناك ظروف وأحوال اذا وصلنا خبر بعضها فانا نجهـل بعضها

(١) لومنع العقل وحده هؤلاء من النزاع لمنع من بعدهم ، وانما منعهم الشرع الذي حرم التفرق والاختلاف ولم يكن الذين اثاروا الشقاق بعد الصدر الاول كاهله في العلم والعمل بالدين

الآخر بتاتا ، وقد راعى جمهور الصحابة تلك الظروف والاحوال مماشاة لسنة الطبيعة والعقل فقدموا عليه الثلاثة الكرام ، ولو كان للدين حكم في استخلاف علي لما عدلوا عنه الى العقل ، ومكانتهم من الدين سامية ، شهد لهم بها القرآن الكريم والنبي العظيم

إذن فمن أين دخلت السياسة في الدين فجعلت الخلافة حقا شرعيا من حقوق آل البيت ؟ ومتى ظهر النزاع عليها باسم الدين ؟ وظهرت مقالة الامامية التي تلتها بدع كانت آفة المجتمع الاسلامي . ومنها مسئلة المهدوية التي عانى ويعاني المسلمون مضضها الى اليوم ؟ . . الجواب على هذا يعرفه كل مطلع على التاريخ ، وكلكم مطلع عليه . دخلت السياسة في الدين ، وظهرت مقالة الامامية لما دخل الاعاجم في الاسلام ، وظهر هذا الدين وأهله على الامم ، وذلك بعد مضي صدر من خلافة عثمان

وأول من قام بهذه الدعوة عبدالله بن سبأ(١) وإخوانه من الموالي وأبناء الملل الاخرى الذين دخلوا في الاسلام ، وابن سبأ هذا هو من الذين أحرقهم علي رضي الله عنه لغلوهم فيه

تلك البذرة الصغيرة التي بذرها ابن سبأ واخوانه من جمعية الدعوة العلوية أنبتت ذلك النبات العظيم الذي قوي فيما بعد على ما حوله فأكل دولة الامويين في المشرق أكلا بعد أن دخلها الضعف من جهات أخرى ، وهذا موضوع البحث ، وها أنا ذا متكلم فيه

الموضوع

تولى عثمان (رض) الخلافة بانتخاب أهل الشورى وعمل فيها ست سنين لاينقم المسلمون منه شيئاً ، وانما اضطرب أمره في السنين الست التالية من خلافته حيث اتسعت دائرة الفتح ، وكثر الموالي اللاجئون الى المدينة من الاطراف ، ودخل في الاسلام أو تحت سلطته أقوام لم يكن لهم ما للعرب يومئذ من العصبية والقوة والاخلاق الحربية العالية ، فخضعوا لجيوش العرب طوعا أو

---

(١) هو يهودي اظهر الاسلام لاجل احداث الفتنة فيه اهـ مصححه

كرهاً ، وكان استغراقهم في الحضارة جعل فارقا عظيما بينهم وبين العرب الذين كانوا على جانب عظيم من سلامة الفطرة والاخلاق الثابتة المستقيمة، فكان ذلك من الوسائل التي جعلت أولئك الاقوام يأتون العرب من جهة العقائد تارة والسياسة أخرى ، فألقوا بينهم أول بذرة من بذار التفريق في الدين والسياسة بواسطة الدعاة منهم، كعبدالله بن سبأ المذكور وحمدان بن سودان ، والاول لم يترك مصراً من الامصار الكبيرة كالشام ومصر والبصرة والمدينة إلا دخله لاجل بث الدعوة وزرع هذا البذار الجديد في النفوس

والارض البكر الصالحة سريعة الانبات بالضرورة ولا سيما إن العرب محبون بطبعهم للتحزب ميلا مع العصبيات التي كانت تتنازعهم من عصر الجاهلية فتقبلوا الدعوة الى نصرة علي ، وانه أحق بالخلافة ديناً بشيء من القبول، وأخذت تتمكن من نفوس بعضهم هذه المقالة الجديدة حتى أفضت الى انقسامهم الى حزبين ينتصر أحدهما لعلي والآخر لعثمان

قامت الفتنة من ثم على الوجه الذي عرفناه في التاريخ ، وانتهت بقتل عثمان (رض) وقيام علي ومعاوية يتنازعان إمارة المؤمنين ، وانقسم يومئذ هذان الحزبان الى أحزاب أخرى سياسية ودينية ، كانت الغلبة فيها للقسم الذي شايع معاوية باسم القوة والعصبية، لا باسم الدين والشريعة . لان الشريعة نفسها تحتاج في تنفيذها واستمرارها الى القوة كما تعلمون

لما تطاحن العرب من أجل النزاع على الخلافة بتلك الروح الدينية التي بثها بينهم دعاة الفتنة . ورأى فريق منهم أن عاقبة هذه الحرب الآكلة ربما أتت على العرب ودينهم وملكهم من أجل الامارة . أجمعوا رأيهم على الخروج عن جماعة المتقاتلين ، وألفوا لانفسهم حزبا سياسياً برآسة عبد الله بن وهب الراسبي غايته نسف الخلافة وطلابها من قريش نسفاً ، وأن يقام الامام من غير قريش ، على شرط أن يحكم برأيهم وعلى ما يشيرون به أو ينتهجون له من طرائق العدل والا عزل ونصب غيره ، والا فلا لزوم لامام أصلا — ومعناه أن تكون الحكومة جمهورية بالضرورة . وإليكم ما قاله عن هذا الحزب صاحب الملل والنحل

قال «إنهم جوزوا أن تكون الامارة في غير قريش وكل من ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على مامثلوا له من العدل واجتناب الجور كان إماماً ، ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه ، وإن غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله ، وهم أشد الناس قولا بالقياس ، وجوزوا أن لايكون في العالم إمام أصلا ، وان احتيج إليه فيجوز أن يكون عبدا أو حراً أو نبطيا أو قرشيا »

هذا رأيهم الذي أورده صاحب الملل والنحل ، ومنه تعلمون أن مبدأهم جمهوري بحت لاسيما في التشريع (١) يظهر لنا ذلك كل الظهور من قوله : من ينصبونه برأيهم ، وعاشر الناس على ما مثلوا له، أي على ما سنوا وشرعوا له بالضرورة . وقوله : وكانوا أشد الناس قولا بالقياس ، وكلكم يعلم ما هوالقياس بالنسبة لمن يريد التوسع في الاحكام بما يدور مع الزمان والحاجة . ولذا جاز لنا أن نسمي هذا الحزب أول حزب جمهوري في مباديه ومراميه ظهر في الاسلام . ولو لم يعجل باستعمال السلاح لتأييد مباديه وحمل الامة عليها بالقوة ، وانتظر ريثما تسأم جماعة معاوية الحرب القائمة من أجل الخلافة كما سئمها جماعة علي لكانت مباديه هي السائدة إلى ما شاء الله في الامة الاسلامية . ولانقطع النزاع على الخلافة منذ ذلك الحين (٢)

ولكن من الاسف أن ذلك الحزب لما عجل باستعمال القوة بعد مؤتمرهم الذي عقدوه في حروراء خارج الكوفة . ودعوا من أجله بالحرورية اضطر أمير المؤمنين علي لقتالهم وقاتلهم في النهروان ، وكانوا نحوعشرة آلاف فقتلهم جميعاً

«١» قوله التشريع وقوله بعده شرعو له مما يستنكره اهل السنة والخوارج الذين يتكلم عنهم فانهم هم الذين كان هجيراهم في انكار التحكيم بين علي امير المؤمنين ومعاوية « لاحكم الا لله » وانما كان يتكلم الخطيب بعرف هذا العصر لا باصطلاح الشرعي وأحكام القياس التي يقول بها علماء المذاهب الاربعة من اهل السنة تسمى في عرف هذا العصر تشريعا «٢» اذا انقطع التنازع على الخلافة فلا ينقطع التنازع على الرياسة فلاعبرة بالالفاظ . وكتبه مصححه

إلا عشرة منهم أفلتوا من القتل وتفرقوا في البلاد وأخذوا يبثون دعوتهم سرا فكان من ذلك ماذا ؟

كان من ذلك أن انقلبوا الى جمعية سرية أقرت على الفتك بعلي ومعاوية وعمرو بن العاص قائلة : فلنرح البلاد منهم -كما ذكر ذلك المؤرخون- لتبقى أمارة المؤمنين شاغرة للامة من المتنازعين عليها من قريش وتختار الامة أميراً عليها من شاءت من عامة المسلمين أو خاصتهم كما هو من مقتضى مباديهم التي مر ذكرها

انتدب لهذا الغرض ثلاثة منهم هم : عبد الرحمن بن ملجم المرادي للفتك بعلي . وعمرو بن بكر التميمي لعمرو بن العاص . والبرك بن عبد الله الصريمي لمعاوية واتعدوا لسبع عشرة من رمضان . فقتل ابن ملجم علياً . ولم يتمكن الاثنان الآخران من معاوية وعمرو كما هو معروف في التاريخ

وكانت هذه الجمعية السرية ثانية جمعية تألفت في الاسلام بعد الجمعية السبئية التي تأسست في خلافة عثمان للدعوة الى علي كما تقدم في صدر البحث ومباديهما متباينة بل متضادة كما تعلمون

بعد ذلك استصفى معاوية الخلافة لنفسه وأدالها عن آل علي باستنزال الحسن (رض) عنها وأن يترك منازعته عليها فتم له الامر بهذا وجمع كلمة العرب عليه، واستمالهم اليه، فكانت له منهم عصبية كبيرة احتمى عنها بها، وضرب ضعيفها بقويها، وقبض على زمام الخلافة بيد من حديد، وحماها بلسان من سكر، واستمال بدهائه بني هاشم والمهاجرين وأبناء المهاجرين وجلة الصحابة تارة بالترغيب وتارة بالترهيب، حتى ملك ألسنتهم وقلوبهم، فانفرط عقد الناس الاعن بني أمية، واجتمعت كلمتهم على تأييد هذه الدولة أيما تأييد

لكن هل زالت تلك الروح التي بثها دعاة الامامية من الوجود ؟ . . وهل أمكن لمعاوية ومن خلفه أن يقتلعوا ذلك الغرس الذي غرسه خصومهم بالامس؟

كلا إن تلك الروح باقية وذلك الغرس كان ينمو ليثمر ويأكل منه غارسوه من غير العرب ولو بعد قرن . وما القرن من أعمار الدول والامم الا كيوم مما تعدون

اغتصب الامويون الخلافة اغتصابا . والغاصب خائف كما يقولون . وهم اذا

تدرعوا بالقوة والعصبية . فخصومهم من بني هاشم متـدرعون بالدين والمكانة الادبية التي لهم بين المسلمين . والعواطف الدينية اذا تكونت ونمت واندفعت بأهلها تدك العروش وتزلزل قوات الدول . فاضطر الامويون بعـد معاوية الى مطاردة بني هاشم والتنكر لهم ، وفعل يزيد فعلته الشنعاء بأبناء فاطمة . فكان ذلك داعياً الى حذر بني هاشم وسكوتهم الى حين، وتستر شيعتهم وعملهم في الخفاء، الى أن قامت دولة بني مروان وآلت الخلافة الى عبد الملك . فتولاها والفتنة مستعرة في الاطراف . فالخوارج يريدون محو الخلافة . وشيعة المختار بن أبي عبيد الثقفي يطالبون بدم الحسين . وعبد الله بن الزبير ينازع الامويين على الخلافة . وعمر بن سعيد الاشدق يريدها لنفسه . فماذا يصنع خليفة يستقبل مثل هذه العواصف ؟ وبمـاذا تعيش دولة قامت في بحر من الدم ؟

لاجرم أنها تلجأ الى أقصى ماعندها من القوة . وتستعمل منتهى القسوة . والقسوة تملأ الصدور حفيظة، وتلجىء الخصم الى استعمال أساليب الختل والتحيل على أخذ الخصم على غرة منه

ذلك مادعا عبد الملك الى استعمال منتهى القسوة في إخماد هذه الفتن وألجأ أخلافه الا قليلا منهم الى انتهاج منهجه في معاملة الخارجين عليهم . واستعمال مثل الحجاج بن يوسف في الامصار النائية . واشتداد هؤلاء العمال على الناس، حتى كان ذلك من جملة الاسباب التي أوغرت على الامويين الصدور . ومهدت للدعوة الهـاشمية سبيل الانتشار في الخفاء ، وعجلت على دولة بني أمية بالدمار

بلغ من قسوة عبد الملك وإظهاره الشدة في تهديد من يناوئه أن خطب بعد قتل ابن الزبير عام خمس وسبعين خطبة قال فيها :

« أما بعد فلست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا الخليفـة المداهن (يعني معاوية) ولا الخليفة المأفون (يعني يزيد) ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعـمون من هذه الاموال . ألا وإني لاأداوي أدواء هذه الامة الا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم . تكلفوننا أعمال المهاجرين ولاتعملون مثل أعمالهم، فلن تزدادوا الا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم . هذا عمرو

ابن سعيد قرابته وموضعه موضعه قال برأسه هكذا . . . فقلنا بأسيافنا هكذا(١)ألا وإنا نحمل منكم كل شيء الاوثوبا على أمير أو نصب راية . ألا وان الجامعة (أي القيد) التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد عندي . والله لا يفعل أحد فعله الا جعلتها في عنقه ، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه » ثم نزل

نعم إن السيوطي أوهن سند هذه الخطبة بقوله في إسنادها الكديمي وهو متهم بالكذب . لكن من درس أخلاق عبد الملك بن مروان لا يستبعد عليه النطق بهذه الخطبة اللهم الا الفقرة الاخيرة فربما كانت مدسوسة عليه . ومن أجلها شكك السيوطي في صحة الخطبة . وإلا فان قساوة الطبع التي عرف بها عبد الملك لا يحتاج إثباتها إلى كثير إمعان . فان تطبعه بالقساوة أكسبه خلق الثبات والجلد حتى ما يعبأ بالمصائب اذا توالت عليه

ففي رواية لابن عساكر عن ابراهيم بن عدي قال : رأيت عبد الملك بن مروان وقد أتته أمور أربعة في ليلة فما تنكر ولا تغير : قتل عبيدالله بن زياد، وقتل حبيش بن دلجة بالحجاز ، وانتقاض ما كان بينه وبين ملك الروم . وخروج عمرو بن سعيد الى دمشق — يعني مشاقا

ولكي ينهج ابنه الوليد في الشدة منهجه ولا تأخذه هوادة في أمر الملك أو الخلافة أوصاه قبيل وفاته بوصية قال فيها :

ياوليد اتق الله فيمن أخلفك فيه — الى أن قال — وانظر الحجاج أكرمه فانه هو الذي وطأ لكم المنابر . وهو سيفك ياوليد ويدك على من ناواك . فلا تسمعن فيه قول أحد . وأنت اليه أحوج منه اليك . وادع الناس اذا مت الى البيعة فمن قال برأسه هكذا ...فقل بسيفك هكذا...

على أن الوليد مع استعماله منتهى اليقظة في ولايته لم يسلك في الشدة مسلك أبيه بل عدل عنها الى الفتح والاحسان الى الناس . وشغل المسلمين بالفتوح

«١» اسم الاشارة في مثل هذا الاستعمال يفسر باشارة فعلية اي من حرك راسه حركة تدل على الاباء والامتناع ضربنا عنقه . مصححه

والعمران . فشيد المصانع والمستشفيات والمساجد الكبيرة ، كمسجد دمشق والمسجد الاقصى . وكتب الى البلاد باصلاح الطرق . وجعل لكل أعمى قائداً ولكل زمن خادماً . وأقام الفنادق فيما بين البلدان تسهيلا على أبناء السبيل . وأمر بحفر الآبار في الحجاز الى غير ذلك من الاعمال النافعة

وبالجملة فقد كان عمرانياً محبا لرقي البلاد حتى كان الناس على عهده لا يتكلمون بغير العمران . ووجه همه الى انتقاء العمال . فولى خالد بن عبد الله القسري مكة وعمر بن عبد العزيز المدينة . وموسى بن نصير بلاد المغرب . ففتح الاندلس كما هو معروف . وكثر الفتح في زمنه ففتح قتيبة بن مسلم ما وراء النهر الى بخارى وسمرقند أي التركستان . وتجاوزها الى بلاد التبت ففتح عاصمتها كاشغر . وأوغل مسلمة بن عبد الملك من جهة أرمينية في جبال القفقاس

وهكذا انتهت مدة خلافة الوليد على أحسن حال رآها الامويون إذ استفحل ملكهم ، وعلا شأنهم وشأن دولتهم ، وأحبهم العرب ، حتى اذا ولي الخلافة سليمان بن عبد الملك أراد قتيبة بن مسلم أن يخلع طاعته لاسباب لا محل لذكرها فلم يوافقه على ذلك جند خراسان ووقع بينه وبينهم خصام أفضى الى قتله . فخسرت الدولة فاتحاً من أكبر الفاتحين في الاسلام . وسار سليمان في الناس سيرة حسنة أيضاً لم تجعل للناقمين من دولته سبيلا اليها . وختم أعماله بأحسن عمل له وهو عهده بالخلافة الى عمر بن عبد العزيز . وكلكم يعرف من هو عمر بن عبد العزيز

إلا أن سليمان غرس بيده غرس الدعوة العباسية وقد سبقني الاستاذ الخضري فذكر لكم في خطبته الماضية كيفية تسميم أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذي كان الشيعة يدعون اليه وعهده بالامر بعده الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فلا لزوم للاعادة هنا

كان الامويون شديدي الحذر من آل علي كما ذكرنا . وكان هؤلاء بعد نكبتهم في خلافة يزيد قليلي الجرأة على الظهور لشدة العمال عليهم ، ومراقبتهم لحركاتهم وسكناتهم . ولان الخلفاء من بني أمية كانوا مع شدة حذرهم منهم يراعون مكانتهم ويحسنون اليهم ، فلم ينزع أحد منهم الى الخروج عليهم لضعفهم إلا

زيد بن علي . فقد خرج في خلافة هشام فقتل في الكوفة . وقتل ابنه يحيى في خراسان . أما تسميم أبي هاشم فقد كان بأمر سليمان بن عبد الملك لانه خاف جانبه لما رأى فيه من النجابة والذكاء

وربما كان هناك سبب آخر لضعف آل علي من بني فاطمة وهو أن الذين بقوا منهم أحياء بعد نكبتهم في كربلاء كانوا أطفالا لا يصلحون لقيادة الناس فالتف الشيعة حول محمد بن علي المعروف بابن الحنفية من غير ولد فاطمة . وهكذا ساقوا الامامة في بنيه من بعده كما ساقها غيرهم الى بني فاطمة أيضاً . وانتقلت من ثم الى أبي هاشم الى بني العباس

لا جرم أن سليمان بن عبد الملك جنى على دولته بقتل أبي هاشم ، لأن آل علي كانوا لشدة ما عانوا من المراقبة والاضطهاد شديدي الحذر ، بطيئي الخطا في الوثوب على الخلافة الاموية ، والظهور لمنازعة الامويين عليها ، فتلقى العهد بها آل العباس ، وهم بعيدون عن سوء الظن والمراقبة ، لم يعانوا مشاق الدعوة ، ولم يذوقوا طعم الاضطهاد فيخافوا الوقوع فيه ، ولذا ما لبث أن عهد الى محمد بن علي بالأمر حتى نهضوا بأعباء الدعوة بجرأة عظيمة ، وكان لابراهيم بعد موت أخيه محمد ما كان مع أبي مسلم بتفويض أمر الزعامة اليه ، وقيام هذا يبث الدعوة أحسن قيام حتى استفحل أمرها وظهرت على خصومها

أحس الامويون بهذا الخطر السريع فبادروا ابراهيم الامام بالقتل ، فنهض أبو العباس السفاح بعد قتل أخيه ابراهيم وعاجل الامويين بالوثوب عليهم قبل أن يدب الفشل في أهله وشيعته ، منتهزاً فرصة وقوع الشقاق بين الاخوة وأبناء الاعمام من آل مروان ، وتلظي المملكة الاموية بنار الفتن ، وظفر بما أراد ، وقضى على دولة الامويين في المشرق ، فذهبت كأن لم تكن بالامس

على أن ظفر العباسيين على هذا الوجه وبهذه السرعة له بواعث وأسباب أخرى كاختلال نظام الدولة وغيره ، أرى أن ألم بها على قدر ما يمكنني من الاختصار

تعلمون أن الدولة تموت برجل وتحيا بآخر ، وان الرجال في الدول قليل ، والدولة الاموية لما فقدت رجالها ، فقدت جانباً عظيما من قوتها ، وأعني بأولئك

الرجال الرجال المخلصين الذين يخدمون الدولة بمنتهى الصداقة ، بقطع النظر عما ينسب الى أفراد منهم من القسوة فيتهمونهم من أجل ذلك بالظلم ، إذ الرجال يصطبغون بصبغة الدولة ، ويتشكلون بشكلها . والدولة الاموية لما كانت دولة مطلقة لزم أن يسير عمالها على سنتها

من رجال الدولة الاموية المخلصين موسى بن نصير . والحجاج بن يوسف وخالد بن عبد الله القسري . ويزيد بن المهلب . وقتيبة بن مسلم وأضرابهم . ومن خطأ الخلفاء الامويين انهم لم ينصفوا أمثال هؤلاء الرجال ، فأحرجوا من أحرجوه منهم ، حتى أخرجوه فقتلوه ، كخالد بن عبد الله وقتيبة بن مسلم ويزيد ابن المهلب ، الذين ذهبوا ضحايا سوء الظن أو سوء التفاهم . وموسى بن نصير الذي زج به في السجن في نظير فتحه الاندلس ، ومات أقبح ميتة . ففقدت الدولة بفقد هؤلاء الرجال وأمثالهم جانباً لا يقدر من قوتها ، وأخذت تنحط من ثم هيبتها . وأما الحجاج فموته في الحقيقة مبدأ أفول نجم الدولة الاموية ، لانه كان يدها التي بها تضرب ، وعينها التي بها تبصر ، فانه بعد أن أخمد لهم فتنة ابن الزبير كان والياً على الكوفة ، واليه ولاية خراسان ، وكلا المكانين عش الفتنة ومنبع الدعوة الامامية ، ومع هذا فقد ضبط البلاد ، وأرهب ببطشه المنازعين للدولة ، والنازعين الى الشغب ، وأحسن في انتقاء العمال والقواد ، فامتد ملك الامويين على عهده الى كابل من بلاد الافغان شرقا ، والتركستان الصينية شمالا ، ولو وجد بعد من يخلص من الولاة للدولة إخلاصه ، ويكون مثل حزمه وعزمه ، لطال عمر الدولة الاموية بلا ريب

ولعل نوابغ الرجال يكثرون في مبدأ نشوء الدولة ، وان كانت هذه النظرية تحتاج الى تمحيص

ومما ساعد أيضاً على اختلال نظام الدولة الاموية تباعد أطراف المملكة بما صار اليهم من الفتح الى عهد هشام بن عبد الملك اذ اتسعت دائرة ملكهم الى مالم تبلغه قبلهم غير دولة الرومان

فما بين النهرين المعروف بالجزيرة وايران وقسم من الافغان والتركستان

والتبت والقوقاس وأرمينية ، وشبه جزيرة العرب وسورية ومصر والمغرب والاندلس ، كل هذه الممالك دخلت في حوزتهم وأصبحت خاضعة لسلطانهم ، وضبط مثل هذا الملك المترامي الاطراف مع صعوبة المسالك والمواصلات لذلك العهد متعذر جدا ، ولا سيما على أمة حديثة عهد في سياسة الامم . ولذا كانت تكون الفتنة في طرف من أطراف المملكة بين الجنود والامراء المتنازعين على الولاية ، وتنتهي بقتل وال وقيام غيره ، وربما انتهت بغلبة المشاغب أو النازع ، وضم البلاد الى حوزته ، واستقلاله بالولاية عليها دونه ، وفصلها عن جسم الدولة ، والخليفة لا يعلم ذلك أو لا تصل قدرته الى إخماد نار الفتنة في تلك البلاد النائية

مثاله ما وقع في المغرب في خلافة الوليد بن يزيد سنة سبع وعشرين ومائة إذ تنازع عبد الرحمن بن حبيب من ولد عقبة بن نافع الفهري فاتح أفريقيه مع حنظلة بن صفوان والى أفريقية ، فكانت الغلبة للاول ، واستأثر بالسلطة على البلاد ، وبقيت أفريقية مستقلة عن الخلافة الاموية ، حتى قيام الدولة العباسية

ومثل هذا وقع في الاندلس وفي بعض الاطراف السحيقة ، ولا يخفى ما في هذا من الوهن والخطر على المملكة

ثم إن من الامور الثابتة في الاجتماع أن الدول الحربية الفاتحة لا تزال في أفق مجدها ما دامت على جانب الخشونة ، وما دام الراعي والرعية مترفعين عن الانغماس في الترف والاستغراق في ملاذ الحضارة — قد عرفنا هذا في كثير من الدول البائدة ، كدولة اليونان ، وخلفاء دارا والاسكندر (أي البطالسة) والرومان ، حتى لقد قال مونتسكيو في تاريخه أسباب صعود الرومان وهبوطهم : إن دخول الرومانيين الى الشام كان مبدأ ضعفهم بسبب ما كان متسلطاً على أهلها وملوكها من الرخاوة والترف

والدولة الاموية إنما هلكت في نفس تلك البيئة التي هلك بها الرومان من قبل ، وبعد أن حافظت على خشونتها الاولى الى خلافة هشام ، بدأت في خلافة الوليد بن يزيد المعروف بالتهتك تنحط عن خشونتها التي عرفت بها ، وأخذ الخلفاء من ثم يميلون الى الترف والراحة والاستغراق في الملاذ تبعاً لأحوال

البيئة التي نشأوا فيها ، وهذا بالضرورة كان من الأسباب التي عجلت على دولتهم، يضاف اليه انقسام العرب في خراسان ، التي هي منبع الدعوة العلوية والعباسية الى مضرية ويمانية ، وتنازع رؤسائهم على الولاية في إبان استفحال الدعوة

مثاله ماوقع بين الحارث بن سريج والكرماني، وبين هذا وقحطبة ، وبينهما وبين نصر بن سيار،حتى ملت نفوس العرب هذه الحال ، وسئمت ممارسة الحرب، ورأوا أنفسهم تباع ضحايا لقحطان وعدنان ، وتزهق في سبيل المتنازعين على الخلافة من قريش ، حتى قال قائلهم :

تولت قريش لذة العيش واتقت   بنا كل فج من خراسان أغبرا
فليت قريشا أصبحوا ذات ليلة   يعومون في لج من البحر أخضرا

لاجرم أن الذى بث روح الشقاق بين العرب في خراسان انما هم أهل الدعوة الهاشمية من علويين وعباسيين ، والذي أنجح قصد أبي مسلم في نشر الدعوة العباسية وقلب الدولة الاموية ، تواطؤ سكان البلاد الاصليين على قهر الامويين وفل عصبيتهم العربية . وقد عرف ابراهيم الامام منازع الفرس، وعلم أن دولته تقوم بغير العرب من الناقمين منهم ، وان العرب شديدو العصبية للامويين لاصطباغهم بالصبغة العربية الخالصة ، فكتب فيما كتب الى أبي مسلم أن لا يبقي على عربي في خراسان إن استطاع ، فجعل رجال الدعوة يضربون العرب بعضهم ببعض ، لأن قسما كبيراً منهم ممن نقم من الامويين كما تقدم في صدر الكلام قبل الدعوة ، وصار من القائمين بها العاملين على تشييد دعائمها تعبداً واعتقاداً

*
* *

هكذا أثمر الغرس الديني الذي غرسه قبل ذلك بقرن ابن سبأ وأضرابه من الموالي الناقمين من الدولة السائدة ، واستحال على العرب في المشرق استبقاء السلطة خالصة لهم من دون الامم الاخرى المحكومة منهم ، وقد جرت سنة الوجود هذا المجرى في كثير من الامم من قبل

قال مونتسيكو : اقتضت الحكمة الالهية أن يكون للممالك حدود طبيعية تمسك بأعنة الملوك عن تجاوز هذه الحدود ، وتعدي بعضهم على بعض ، ولما تجاوز هذه الحدود الرومانيون أهلكهم البرث (١) أي قدماء الفرس وبددوا شملهم ولما تجاوزها البرث أنفسهم اضطروا لأول أمرهم للرجوع الى أراضيهم

وأقول : إن العرب أصيبوا بما أصيب به الرومان والبرث ، وطبائع الاجتماع تعذر أولئك الاقوام على مافعلوه مع العرب ، وحسب العرب أن نشروا بينهم دين الاسلام ، فلا مؤاخذة ولا ملام ، ولا سيما أن الاسلام يرمي بطبيعته الى محو الحدود السياسية والجنسية بين الشعوب كما ترمي الى مثل هذا مبادي جماعات السوسيالست أو الاشتراكيين أو الاجتماعيين لهذا العهد

ورب قائل يقول : إن هذا الانقلاب أي انقلاب الدولة الأموية الى عباسية لم تكن نتيجته كلها كما يريد أولئك الاقوام المغلوبون للعرب إذ دولة الامويين عربية قرشية ، ودولة العباسيين كذلك

الجواب على هذ يأتي من وجهين (الوجه الاول) إن أمم المشرق لذلك العهد قلما كانت تقدرقيمة الحرية الكاملة لفنائها في وجود زعماء الاجتماع الشرقي أو كما قال مونتسكيو : إن أمم آسيا لم يكن ميلهم الى الحرية كميل أمم أوربا اليها اليوم (أي لعهده) ليحملهم على الخروج من الاسر والاستعباد ، وانما كان ميلهم الى تغيير الملك ، ولا صبر لهم على بقائه طويلا

وسواء صحت هذه النظرية أو لم تصح فانه يجوز لنا تطبيقها على الامم التي دخلت تحت حكم العرب لذلك العهد باعتبار أن الاسلام جمع بينهم جميعاً فلا فرق عند الفرس وغيرهم أن يكون الخليفة أو الملك عربياً أو غير عربي ما دام الملك آئلا الى غير الدولة التي نقموا منها ، وما دام مصير أكثر السلطة اليهم بعد فل حد العصبية العربية التي كانت قائمة في دولة الامويين متسلطة بقوتها على كل شيء

وقد كان ما أرادوه بقيام الدولة العباسية التي لم يكن لها من العربية الا

(١) الصواب « البرس » بالفاء الفارسية التي عربت فاء فقيل الفرس

الاسم ، وهي مصطبغة بالصبغة الأعجمية مشتبكة مع العناصر الاخرى بالنسب والصهر ، مشاركة لهم بمصالح الدولة كما تعلمون

هذا الوجه الاول (وأما الوجه الثاني) فانتظار النتيجة الطبيعية لمثل هذا الانقلاب ، ولو في المستقبل البعيد ، وتلك النتيجة هي أن اصطباغ الدولة أو الامة السائدة بصبغة أهل البلاد ، يحيلها مع الزمن الى عنصر هذه الصبغة ، والعكس وبالعكس (١) إذ من الشعوب من اصطبغوا بصبغة العرب بعد الفتح ، فاندمجوا فيهم ، ومن الشعوب من اصطبغ العرب بصبغتهم ، فاندمج هؤلاء فيهم ، وهذا ما وقع لسكان آسيا الوسطى بعد قيام الدولة العباسية ثم سقوطها ، وقيام غيرها من الحكومات الوطنية على أنقاضها . وهكذا رأينا دولة الفرس ، وغيرها من الدول الاسلامية ديناً ، المختلفة جنساً ، قد عادت الى أصلها ، وهي قائمة الى الآن ، وستبقى قائمة عزيزة الجانب ، منيعة الجناب ، الى الأبد ان شاء الله (٢)

وهكذا نرى الخلافة الاسلامية التي سالت من أجلها أو باسمها تلك الدماء الغزيرة ، صارت الى غير العرب اليوم ، وفي دولة هي أعز دول الاسلام مكاناً ، وأجدرها بحفظ بيضة الخلافة ، ولم يمنع الدين أن تكون اليها الخلافة ، كما لم يمنع أن تكون فيمن يقع عليه اختيار الامة ورضاها في عهد الصحابة الكرام ، ولو من غير بني هاشم ، والتاريخ يعيد نفسه

هذا ما أمكنني ايراده من أسباب انحطاط الدولة الاموية ثم انقراضها ، تلوته عليكم أيها السادة بوجه الاختصار ، لأن الاستقصاء والتتبع ، وبسط كل الاسباب والنتائج لاتقوم به خطبة ، لانه تاريخ دولة بأكملها

أما ما يقوله بعض المؤرخين من ظلم الدولة الاموية ، ويعزو اليه دمارها

---

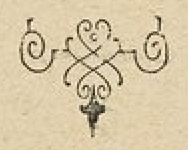
(١) الحقيقة ان الجمعيات السرية التي وضعت اساس الانتقاض على العرب وسلب الملك منهم كانت مجوسية تقصد اعادة ملك الفرس ودينهم المجوسي اليهم وافساد دين العرب والقضاء على ملكهم «٢» رحم الله الخطيب ورحم الخلافة العثمانية التي يؤيدها بهذا الكلام فقد اسقطها الترك أنفسهم دون العرب الذين عاداهم الترك عدة قرون خوفا منهم عليها . وقد نشرت الحكومة التركية كتابا بلغتها مهدت به السبيل لاسقاط الخلافة اقيمت فيه الادلة الشرعية على ان خلافتهم كانت باطلة

فمبالغ فيه ، وما كان منه صحيحاً فهو في نظري ثانوي بالنسبة للأسباب التي ذكرتها ، وتكاد تكون نتائجها طبيعية ، وليس من دولة في الارض قائمة بالعدل المحض ، حتى الدول المقيدة ، ناهيك بالمطلقة

ومن قال : ان دولة الامويين كانت ظالمة ، وان ظلمها هو الذي جر عليها الدمار فجاهل بأحوال الاجتماع أو متعصب لدولة أخرى ، ولو طولب بالدليل على أن الدول التي قامت دولة الامويين على أنقاضها كالفرس والروم والغوط ، وغيرهم كانت أعدل منها لما استطاع اليه سبيلا

والحقيقة ان الخلفاء الامويين كانوا أشداء على خصومهم دون سائر الناس ، وكانوا في منزلة من العناية بالرعية والاهتمام بالعدل بين الناس فوق منزلة كثير من الحكومات المطلقة . وحسبك ان أشدهم قسوة وهو عبد الملك بن مروان استهل وصيته لابنه الوليد حين الاحتضار بقوله : ياوليد اتق الله فيمن أخلفك فيهم . والشواهد على مثل هذا كثيرة لايسعها المقام ، وحسب تلك الدولة ، فضلا فتوحها العظيمة التي سودت دين العرب ولسانهم على أحسن أجزاء المعمور الى اليوم (وتلك الايام نداولها بين الناس)

وبعد فاني لست في مقام الجرح أو التعديل ، وانما أنا باحث في التاريخ أقول ما تبادر الى فهمي ، وما بلغ اليه علمي ، من غير أن أقصد التحيز الى فئة دون أخرى أو شخص دون آخر ، وكل ما بسطته لديكم لم أرد به غير الوجهة التاريخية ، فأرجوكم الصفح عما اذا زل لساني بخطأ سمعتموه إذ الانسان محل الخطأ والنسيان ، والسلام عليكم



قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام

خطبه ألقاها الاستاذ المؤرخ رفيق بك العظم على طلبة مدرسة القضاء الشرعي في يوم الثلاثاء ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٢٧ الموافق ٤ يناير سنة ١٩١٠ ونشرت في الجزء العاشر من مجلة دار العلوم

أيها السادة

كلمتي اليوم في قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام ، وحيثما قلت قضاء الجماعة ، فانما أريد مدلوله العام أي القضاء والافتاء ، والتشريع أو التفريع

تعلمون أن كفالة العدل الذي هو مناط الراحة والسعادة في كل مجتمع إنما هو القانون أو الشريعة التي تصان بها الحقوق وترد المظالم ، ويعاقب المجرمون المجترئون على انتهاك حرمة الراحة والأمن في الهيئة الاجتماعية . وهذه القوانين إما أن تكون وضعية أو شرعية ، وقد عرفها ابن خلدون بقوله :

« إذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسية عقلية ، واذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسية دينية »

وتعلمون أن الفقه الاسلامي ، وأريد به قسم المعاملات لا العبادات ، هو قانون المسلمين الشرعي ، ومناط الاحكام التي يفصل بها في المنازعات والخصومات التي تقع بين الناس

أقول القانون الشرعي تجوزاً ، إذ أن أحكام الشريعة الاسلامية وقانونها الجامع ، انما هو الكتاب والسنة ، وهما الأصل — أما الفقه فانما يسمونه شرعا باعتبار أن مأخذه الكتاب والسنة وعمل الصحابة والاجماع ثم القياس ، فاذا انطبق عليه تعريف ابن خلدون ، فانما ينطبق عليه من هذه الجهة ، أي ان تلك

القوانين لها أصل في الشرع لا انها هي بعينها المفروضة من الله

وبما أن أساس التفريع أو التشريع عند الفقهاء هذه الاصول الخمسة ، فقد سموا الاحكام الفقهية شرعا ، وخالفهم في ذلك كثير من أئمة العلم والمحدثين فقالوا : كل حكم لا يستند الى دليل أو لا يعرف دليله من الكتاب أو السنة فليس بشرع

وليس من غرضي في هذا البحث الحكم بين الفريقين ، وانما الغرض منه تقديم مقدمة تساعدنا على الانتقال الى النظر ، نظراً صحيحاً في سير القضاء وتاريخه ، وكيف كان القضاء والافتاء في الاسلام ؟ وما هو ضمان العدالة فيهما ؟ وما منزلة قضاء الفرد وقضاء الجماعة من الصواب والخطأ ؟ ونستطرد من ثم الى ماتخلل التشريع والقضاء من الشؤون التي لا يخلو بيانها من فائدة ، وإن كنت لا أستطيع من البيان غير جهد المقل

علمنا أن أساس الشرع وأصله في الاسلام هما الكتاب والسنة بمعنى أن الاحكام الدينية أي العبادات ، والقوانين الدنيوية أو السياسية كما يسميها ابن خلدون ، وهي أحكام المعاملات والعقوبات التي وردت في الاصلين المذكورين ، قد قررها الشارع الاعظم صلى الله عليه وسلم فصارت شرعا ، وهذا الشرع لا يدخل تحت مدلول قضاء الجماعة ، المراد به جعل قوة التشريع لا في يد واحد ، بل جماعة الا من حيث لزوم فهمه على وجوهه التي أرادها الشارع أي أن تفهم الحكم من هذا الأصل ، وتقريره هو الذي يلزم أن يناط بالجماعة دون الفرد تفاديا من الخطأ والاثم

وتعلمون بالضرورة أن الاحكام التي شرعها لنا الشارع كانت تشرع تدريجاً ، فكلما عرضت له حادثة أو سئل عن حكم شرع له شرعا ، حتى كان من ذلك في الكتاب والسنة نحو ستمائة وخمسين حكماً أو يزيد اعتبرها أئمة الفقه بعد ذلك أساساً للتشريع ، فوضعوا لنا كتب الفقه التي كانت في الممالك الاسلامية ، ولم تزل في بعضها مدار الاحكام الشرعية في المعاملات والعقوبات ، وما يتبعها من قضاء المظالم والحسبة ، وسياسة الرعية ، وغير ذلك الى اليوم

ويبدأ تدوين الاحكام الفقهية من أواخر العصر الاول أو أوائل الثاني

فالتشريع إذن له في الاسلام تاريخان ، تاريخ تقرير أصول الشريعة ، والعمل بهذه الاصول ، وتاريخ التفريع أو الفقه والعمل به . يتخلل ذلك أيضاً تاريخان تاريخ حفظ الشريعة في الصدور ، وتاريخ قيدها في الزفاتر والسطور

ولبيان ذلك وبيان كيف كان يقضي الصحابة والتابعون أقول :

علمنا أن أساس الاحكام ومدارها ، ومعول القضاء في الصدر الاول كان على الكتاب والسنة ، أما الكتاب الكريم فقد كتب متفرقا في عهد النبوة ، وجمع في خلافة أبي بكر كما هو معروف مشهور . وأما السنة السنية فقد بقيت محفوظة في الصدور الى أواخر عهد التابعين أو كتب منها في غضون هذه المدة شيء يسير

فكان القضاء في عهد الخلفاء الراشدين ملازما للافتاء بالضرورة ، لأن القضاء كان الى الخليفة وهو لا يحفظ الاحكام التي وردت عن الشارع كلها ، بل كان كثير من الصحابة يحفظ كل واحد منهم شيئاً منها ، فاستفتاؤهم في معرفة الحكم ضروري ، واليكم ما روي عن قضاء أبي بكر وعمر

أخرج البغوي عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله ، فان وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به ، وان لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله في ذلك الأمر سنة قضى به ، فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله قضى في ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر من رسول الله فيه قضاء فيقول أبو بكر : الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا ، فان أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فان أجمع رأيهم على أمر قضى به . وكان عمر يفعل ذلك ، فان أعياه أن يجد في القرآن والسنة نظر هل كان لابي بكر فيه قضاء فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به والا دعا رءوس المسلمين فاذا اجتمعوا على أمر قضى به

هذه رواية البغوي عن قضاء أبي بكر وعمر ، ومنها يتضح أن القضاء في عهدهما قضاء الجماعة ، وعليه يقاس قضاء من بعدهما من الخلفاء الراشدين في الدور الأول لتاريخ القضاء في الاسلام أي الى العهد الذى بدأ فيه التدوين ،

والعمل بالفروع بدليل أنه كان في كل مصر من الامصار الاسلامية نفر من الصحابة ثم التابعين ، يسمون الفقهاء ، لفظهم الأحكام وتفقههم في الدين ، وكانوا يستشارون في النوازل عند القضاء فيها ، لأنهم حفاظ الشريعة ، والراوون للأخبار الصحيحة ، فلا مندوحة عن الرجوع اليهم في القضاء

ومن الفقهاء الكبار في الصحابة علي بن ابي طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وزيد ابن ثابت ، وابو سعيد الخدري ، وانس بن مالك ، ومعاذ بن جبل ، ومن في طبقتهم ممن يحفظ عن رسول الله قليلا أو كثيراً

وقال ابن القيم : إن عدد من حفظت عنهم الفتوى من الصحابة مائة ونيف وثلاثون نفساً ما بين رجل وامرأة ، وكان أكثر هؤلاء موزعين في الامصار بالضرورة وهم شورى القضاء حيثما وجد منهم جماعة يستشارون كما أثبت ذلك التاريخ

وتلي هؤلاء طبقة أخرى من أصحابهم ، وهم التابعون صارت اليهم الفتوى فى الامصار ، فكان فى المدينة سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وخارجة بن زيد ، الى غير هؤلاء . وتليهم طبقة أخرى منهم محمد ابن شهاب الزهري المشهور وأضرابه ، وطبقة أخرى فيهم الامام مالك بن انس صاحب المذهب في المدينة ، وكان من المفتين فى مكة عطاء بن ابي رباح ، وطاوس بن كيسان ، ومجاهد بن جبر وغيرهم . وتليهم طبقة ثم طبقة الى قيام الامام محمد بن إدريس الشافعي صاحب المذهب فى مكة

وكان من المفتين فى البصرة عمرو بن سلمة الجرمي ، وابو مريم الحنفي ، والحسن البصري وغيرهم ، وتليهم طبقة فطبقة ، وعلى هذا تقاس بقية الأمصار كالكوفة ومصر والشام وغيرها ، وكلها كان فيها العدد الجم من التابعين وتابعي التابعين يستشارون في الاحكام ويتناقلون الشريعة حفظاً فى الصدور الى أن دونت فى السطور

إذا اضفنا الى هذا ان رسول الله شرع لهم الاجتهاد عند عدم وجود النص

وان ابا بكر وعمر كانا لا يجتهدان فى مسئلة الا اذا جمعا رؤوس الناس وخيارهم لاستشارتهم، وحكمنا أن بقية الخلفاء الراشدين كانوا كذلك ، وقسنا على ورعهم ورع من بعدهم من التابعين وتابعيهم واتباعهم سنن من قبلهم خوفا من تبعة التفرد بالرأى ، واعتصامهم بالشورى مع اهل العلم والحديث بدليل ما رواه عن قضاء الجماعة في عصرهم ابن عبد البر في جامع بيان العلم عن المسيب ابن ابي رافع الاسدى المتوفي سنة ١٠٥ قال : كان اذا جاء الشيء من القضاء ليس في الكتاب ولا السنة سمي صواً في الامراء ، فيرفع اليهم، فجمع له اهل العلم فما اجتمع عليه رأيهم فهو الحق

اذا اضفنا الى هذا كله ماسبق بيانه نتج لنا منه ان القضاء في العصر الاول كان قائما بالشورى او هو قضاء الجماعة الذى هو كفالة الحقوق ، وتحري العدل والحق وهو خير من قضاء الفرد ، وابقى لسعادة الامة ، واضمن لبقاء الدول بلا ريب

ليس المراد بقضاء الجماعة هو قضاء هيئة مؤلفة من اكثر من واحد فقط كما قد يتبادر الى الذهن ، بل هي بالمعنى المشترك ايضاً جعل قوة التشريع القضائي مصونة عن رأي الافراد وتفردهم بالتشريع ، منوطة بالجماعة ، تثبتاً من الحكم واطمئناناً للدليل ، واعتماداً على ماهو الاصلح عند الجماعة اذا تعذر وجود النص

إن مراعاة الاصلح قاعدة من اهم قواعد الشرع الاسلامي التي يدفع بها الحرج ، وتدرأ المفاسد عن المجتمع ، حتى لقد كان كبار الصحابة يراعون قاعدة الاصلح عند الضرورة مع وجود النص كما يأتي بيانه بعد . ويتنازعون على المسئلة الواحدة يجيء بها النص من عدة روايات ، أو يحتاج الى التفهم الدقيق تثبتاً من الحكم ، ورغبة بمحض الخير للأمة ، والعدل بين المتقاضين ، وبذلا للجهد في بيان الحقيقة للمستفتين . وقد قال ابن القيم : تنازع الصحابة في كثير من الاحكام ، ولكن لم يتنازعوا في مسئلة واحدة من مسائل الاسماء والصفات والافعال . أي المسائل التي تتعلق بالايمان

قلنا إن المراد بقضاء الجماعة جعل قوة التشريع القضائي في حياز جماعة لا فرد ، لأن ذلك أسلم ، وأبعد عن الخطأ ، وأضمن للعدل . وسببه ان الاحكام التي يرجع فيها الى الرأي والاجتهاد أو القياس عند تعذر وجود النص أو عند

لزوم ترجيح رواية من الروايات تحتاج الى شروط قلما تتوفر في الفرد الواحد وان توفرت له فربما لايتيسر له تحري المصلحة وتطبيق الحكم عليها من كل وجه بحيث لا يخالفه فيه غيره ممن هو في طبقته من أهل العلم

اعتبروا ذلك في أئمة المذاهب المجتهدين ، فانه مع بذل كل واحد منهم في تقرير فروع المذهب وأصوله منتهى الجهد في تحري صحيح الآثار والأخبار ، وتتبع أصول الشريعة . فقد اختلفوا في كثير من المسائل ، واختلف أتباعهم بعد ذلك اختلافهم ايضاً ، فكان من ذلك انقسام القضاء الاسلامي على نفسه حتى وجد في بعض العصور اربعة قضاة لأربعة مذاهب في مصر واحد من الامصار الاسلامية ، هذا فضلا عن اختلاف فقهاء كل مذهب ايضاً في المسئلة الواحدة حتى اصيب الافتاء بما اصيب به القضاء من التشتت والانقسام ، واضطرب امر العدالة ايما اضطراب ، مع ان الاصل لهذه المذاهب واحد ، وهو الدين الاسلامي المبين

لهذه العلة الخطرة كان الصحابة الكرام لايستنكفون عند الاستفتاء من احدهم ان يحيل بعضهم على بعض ، او يستشير بعضهم بعضاً في تقرير الحكم — كما ثبت ذلك في كتب السنة — خوف الوقوع في خطأ يجر الى مظلمة أو اثم ، ولاسيما فيما يحتاج فيه الى العمل بالاجتهاد والرأي . وقد رأينا فيما سبق روايته عن أبي بكر أنه كان لايقضي بقضاء يحتاج الى الاجتهاد مالم يستشر خاصة المسلمين

قلت فيما سبق ان الشارع الاعظم صلى الله عليه وسلم شرع لنا مراعاة المصلحة ، ولو مع وجود النص ، واقتدى به الصحابة الكرام في العمل بهذه القاعدة ، وبياناً لهذا أقول :

لما كانت الشرائع مبنية على درء المفاسد وجلب المصالح ، والشريعة الاسلامية أحرى الشرائع برعاية هذين الأمرين . فقد سن الشارع ايقاف العمل بالنص مراعاة للمصلحة ، ولكن عند الضرورة القصوى ، وثبوت المصلحة ، ولزومها على وجه لايقبل الشك في أن المصلحة التي تترتب على العدول عن النص أكبر من المصلحة التي تترتب على العمل به ، واستن بسنته صحابته والخلفاء

الراشدون من بعده، فكان ذلك شرعاً أيضاً فيه تيسير عظيم على المسلمين، واليكم الدليل في حديث لأبي داود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن تقطع الأيدي في الغزو . وأنتم تعلمون أن القطع حد من حدود الله لم يستثن النص القرآني منه الغزاة ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن إقامته في حال مخصوصة خشية أن ينشأ عنه مضرة ، وهي لحاق صاحبه بالعدو ، وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم عدة أخبار أخرى من هذا القبيل لا محل لذكرها هنا ، وهي مبسوطة في كتب الحديث

وقد استن الصحابة بسنته ، وأوقفوا الحدود في أحوال مخصوصة ، تدعو اليها الضرورة

جاء في كثير من كتب الاخبار : ان عمر كتب الى الناس : ألا لا يجلدن أمير جيش ، ولا سرية ، ولا رجل من المسلمين حداً وهو غاز حتى يقطع الدرب لئلا تلحقه حمية الكفار

وروى ابن القيم في أعلام الموقعين عن حاطب بن أبي بلتعة : أن غلمة لأبيه سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، فأتى بهم عمر فأقروا فأرسل الى عبدالرحمن ابن حاطب فجاء فقال له : إن غلمان حاطب سرقوا ناقة رجل من مزينة وأقروا على أنفسهم ، فقال عمر : يا كثير بن الصلت اذهب فاقطع أيديهم ، فلما ولى بهم ردهم عمر ثم قال : أما والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى ان أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له لقطعت أيديهم ، وأيم الله ان لم أفعل لأغرمنك غرامة توجعك ، ثم قال : يا مزني بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال : بأربعمائة قال عمر : (أي لعبد الرحمن) اذهب فأعطه ثمانمائة

وغير هذا ، فقد أسقط عمر الحد في عام المجاعة للضرورة ، وتجاوز أبو بكر عن خالد بن الوليد في حادثة مالك بن نويرة إذ قتله دون تثبت من إسلامه ، كما تجاوز عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك بما صنعه ببني جذيمة لما أرسله داعياً لا محاربا ، فذهب اليهم وحاربهم ، وقتل وسبى منهم ، فبرىء رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمله الى الله ، ولم يؤاخذه به ، وما ذلك الا لحسن بلاء

خالد في الحروب ، وخدمته العظيمة في الاسلام

وكذلك أسقط سعد بن أبي وقاص الحد عن أبي محجن في حرب القادسية في خبر مشهور طويل ، لا محل لذكره هنا ، وقال : والله لا أضرب اليوم رجلا أبلى للمسلمين ما أبلاهم

والشواهد على هذا من أعمال النبي وأصحابه كثيرة لا يتسع لها مقام الخطابة

ولعل هذه القاعدة سوغت بعد لبعض الحكومات الاسلامية التجاوز عن الحدود والعقوبات البدنية ، كالسن بالسن ، والعين بالعين . واستبدلت بها العقوبات الادبية ، كالحبس والتغريم مثلا لضرورة تغير الزمان ، أو لفشو المنكرات فشواً لم ينجع في تأديب مرتكبيها الا حبس حريتهم في السجون أو غير ذلك من الدواعي والاسباب الزمانية

ليس فيما ذكر غض من مقام الشريعة أو مس لأصولها المقدسة ما دام من أصولها ، وقواعدها أيضاً العدول عن النص عند ثبوت المصلحة أو درء المفسدة بأقل ضرراً منها . والشريعة كما تعلمون مبنية على المصلحة . وقد سبق الله تعالى رسوله والائمة من بعده الى تقرير قاعدة مراعاة الاصلح ، وهو ما يسمونه النسخ ، وما هو بنسخ ، وانما هو تقرير حكم اقتضته مصلحة زمان وحال غير حكم آخر في زمان تقدمه ، وأحوال اقتضته ، كحكم جهاد المشركين من العرب في مبدأ أمر الدعوة لحمايتها وحماية المسلمين من أعدائهم وأعدائها ، وفيه الاذن بقتالهم حتى يقولوا لا إله إلا الله(١) ثم تقرير حكم آخر بعده أي بعد

(١) ان الاذن بقتال المشركين كان للدفاع لا للاكراه على الاسلام فان المشركين كانوا هم المعتدين والآيات صريحة في ذلك وأولها (أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) ومنها قوله تعالى (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) واما حديث « امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله » الخ فمعناه ان القتال المأذون به في الاصل للدفاع مغيا بالدخول في الاسلام الذي عنوانه كلمة التوحيد . واما الدعوة بالتي هي احسن فهي مطلوبة دائما والآية فيها مكية ولذلك قيل انها منسوخة بآية السيف لا ناسخة لها والصواب انها غير ناسخة ولا منسوخة

أن انتشرت الدعوة ، وقوي جماعة المسلمين ، وصاروا في مأمن من غائلة الضعف ، وهو حكم الدعوة بالتي هي أحسن كما في قوله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظه الحسنة) وقوله (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) وقوله (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة

وكحكم النهي عن الصلاة في حال السكر في قوله تعالى (لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون) وكان هذا في أحوال اقتضته . ثم جاء حكم التحريم بتاتاً في أحوال اقتضته أيضاً

وبالجملة فان ملخص ماتلوته عليكم ينحصر كله في المقدمات الآتية :

(أولا) ان القضاء في العصر الاول كان مرجعه نصوص الشريعة أي أصولها التي قررها الشارع ، واجتهاد الصحابة والتابعين فيما لم يرد به نص

(ثانياً) ان الاحكام التي جاءت عن الشارع لم يكن في استطاعة فرد واحد حفظها أو يتعذر على الواحد الاحاطة بها ، فاحتيج في القضاء الى استشارة حفاظها

(ثالثا) ان الصحابة كانوا قد يختلفون في المسئلة الواحدة إما في تطبيق النص أو في مسوغ الحكم اذا كان اجتهادياً تثبتا من وضع الشيء في محله جهد الامكان

(رابعا) أنهم كانوا يعدلون عن النص عند الضرورة الداعية وفي أحوال مخصوصة تدعو اليها المصلحة التي بنى عليها الشرع اقتداء بالشارع

(خامساً) ان ورعهم وتقواهم وخوفهم من الوقوع في الأثم كل هذا كان يدعوهم الى عدم الانفراد بالحكم ومشاركة خيار المسلمين وعلمائهم في تطبيق الاحكام اذا كانت اجتهادية على القياس الصحيح أو الرأي السالم من خطأ الفرد

هذه المقدمات تنتج نتيجتين مهمتين احداهما أن القضاء في الاسلام كان قضاء الجماعة لاقضاء الفرد على نحو ماسبقت الاشارة اليه كثيراً .

والثانية ان الشريعة الاسلامية بما تقرر فيها من قاعدتي الاجتهاد ورعاية الأصلح كانت من الشرائع التي توافق كل زمان ومكان وتجيز لكل ضرورة حكما يوافق مقتضى المصلحة والحال وان خالف النص مع اعتبار هذه القاعدة

شرعاً أيضا (١) خلافا لما يتقوله عليها المتقولون من آنها شريعة ضيقة توافق زمانا غير زماننا هذا ومكانا غير مكان الأمم الراقية لهذا العهد فهي اذا صلحت لأهل ذلك العصر لاتصلح لعصر تسير شرائعه مع مقتضيات المدنية الحديثة وحاجاتها سيراً تدريجيا في كل مايقتضيه ترقي المجتمعات . ومنشأ تقولهم هذا الجهل بحقيقة الشريعة الاسلامية وعدم الوقوف على أصولها وقواعدها وكلياتها، يساعدهم على ذلك مايرونه من تعصب بعض علماء الشريعة المقلدين لما جاء في كتب الفروع دون الأصول وردهم لكل مالم يرد فيها من أسباب التيسير وان ورد في أصول الشريعة وكلياتها مع ان في كتب الفروع من الأحكام التي لاتستند الى دليل قطعي مالا يعد ومبناها الاجتهاد أو الرأي والقياس ومع هذا فانهم يفضلون العمل بهذه الأحكام على الرجوع الى أصل الشريعة مهما كان فيها من التقليد والتضييق على أنفسهم والأمة ومهما ترتب على ذلك من التهم الباطلة التي يرمينا بها الباحثون في طبائع الاجتماع

وحجة هؤلاء العلماء في هذا سد الذريعة أو خوف انتشار دعوى الاجتهاد اذا فتح بابه وتطرق الفساد الى الشريعة وهي حجة معقولة ومسلمة لايخالفهم فيها عاقل لكن فيما لو صارت قوة التشريع أو الاجتهاد الى الافراد وأطلق العنان لكل قائل أن يقول هذا حكم الله ورسوله ولكل حاكم أن يحكم بمايرى ويقول

ومعاذ الله أن يريد هذه الفوضى للشريعة الاسلامية عاقل قط وانما المراد أن ينظر في المسائل التي يقتضيها تغير الزمان وتجدد المصالح والحاجات على شرط عدم الوقوع في ذلك المحذور الذي يخشاه العلماء وذلك بأن تناط قوة التشريع أو الاجتهاد في المسائل الطارئة في كل عصر بجماعة من أهل العلم الواقفين على دقائق الكتاب والسنة والعارفين بحاجات الأمة ليقرروا لها الأحكام الموافقة

---

(١) القاعدة في مخالفة النص لما أقوى منه أن المحرم لذاته كالميتة ولحم الخنزير يباح للضرورة والاصل فيه قوله تعالى بعد ذكر محرمات الطعام (الا ما اضطررتم اليه) والمحرم لسد الذريعة كرؤية العورات يباح للحاجة كالتداوي . وقد فصل ذلك ابن القيم في اعلام الموقعين . وكتبه مصححه

لمقتضى الحال ثم تنال هذه الاحكام تصديق أهل الحل والعقد فتصبح قانونا رسمياً يتحتم العمل به في الحكومة الاسلامية التي هي في حاجة اليه لايعدل عنه الى غيره من أقوال الفقهاء والعلماء -وان مجتهدين- فتضبط بهذا قوانين الشريعة ويؤمن عليها من تطرق الفساد ثم يكون من ذلك ان تحدد هذه القوانين تحديداً يغني عن الرجوع الى كتب الفقه التي تختلف في المسئلة الواحدة اختلافا كثيراً يؤدي في كثير من الأحيان الى التشويش على القضاء، ويكفي أن تكون تلك الكتب شروحا لقوانين الشريعة المعمول بها يومئذ يرجع اليها عند الضرورة والحاجة الى تفسير نصوص ذلك القانون كما هو الشأن في مجلة الاحكام العدلية المعول عليها في محاكم الدولة العثمانية دون غيرها ولهذا البحث تتمة سآتي عليها في الكلام على القضاء في دوره الثاني وها أناذا متكلم فيه

*
* *

قلت فيما سبق ان القضاء في الاسلام له دوران دور العمل بالاصول ودور العمل بالفروع، وانما اخترت هذا التقسيم لاختصار الطريق أو اختصار البحث خوفا من تعب القارىء والسامع مع ان أدواره بعد دور التشريع الاول كثيرة جداً اذا اعتبرنا تقسيمه الى طبقات المفتين والمحدثين من الصحابة والتابعين ثم الائمة المجتهدين ومن بعدهم من طبقات الفقهاء والمقلدين من أتباع كل مذهب نعتبر ذلك بما قسموا اليه طبقات الحنفية مثلا فقد قالوا انهم ينقسمون الى ست طبقات : الطبقة الاولى طبقة المجتهدين في المذهب كأبي يوسف ومحمد وغيرهما من أصحاب أبي حنيفة القادرين على استخراج الاحكام من القواعد التي قررها الامام .

والثانية طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب كالخصاف والطحاوي والسرخسي والحلواني والبزدوي وغيرهم وهم لا يقدرون على مخالفة امامهم في الفروع والاصول لكنهم يستنبطون الاحكام التي لارواية فيها على حسب الاصول

والثالثة طبقة أصحاب التخريج القادرين على تفصيل قول مجمل وتكميل قول

محتمل من دون قدرة على الاجتهاد

والرابعة طبقة أصحاب الترجيح كالقدوري وصاحب الهداية القادرين على تفضيل بعض الروايات على بعض بحسن الدراية

والخامسة طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين القوي والضعيف والمرجح والسخيف كأصحاب المتون الاربعة المعتبرة

والسادسة من دونهم الذين لا يفرقون بين الغث والسمين والشمال واليمين

فلو تتبعنا الكلام على هذه الطبقات والادوار التي مرت على الشريعة بالتفصيل لاحتاج ذلك الى كتاب مطول ورجل أعظم رسوخا مني في العلم ووقوفا على تاريخ القضاء لذا حصرت الكلام على القضاء من الوجهة الاجمالية في دورين واذ قد مضى الكلام على الدور الاول فها أنا ذا أتكلم على الدور الثاني على قدر ما يمكنني من الاختصار

***

لما اتسعت دائرة الفتح وانتشر الاسلام في الممالك القاصية وتفرق حفاظ الشريعة ورواتها في الانحاء مع اتساع دائرة القضاء بازدياد وسائل الحضارة واستبحار العمران وتجدد الحوادث التي يقتضيها تشعب المعاملات وحال الأمم الداخلة فى الاسلام من غير العرب وخيف لهذا من تشتت أحكام الشريعة ودخول الفوضى فى القضاء والافتاء احتيج بالضرورة الى أمرين مهمين : الاول تدوين الشريعة فى الكتب . والثاني وضع قوانين للتفريع عن أصول الشريعة لتطبيق الحادث التي تحدث فى أحكام المعاملات على قوانين الشرع . وأول من تنبه للحاجة الى هذين الامرين على ما أظن عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الاموي وسداً للحاجة الاولى أمر الزهري من جلة التابعين وحفاظهم بتدوين الحديث فى دفاتر وتوزيعها على الامصار في أواخر القرن الاول ففعل كما هو مشهور معروف

وأما الحاجة الثانية فقد شعر بها ولكن سدها بعده الائمة المجتهدون بدليل ماروي عن الامام مالك ابن أنس انه قال قال عمر بن عبد العزيز : يحدث للناس من الأقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور

أدرك هذا عمر بن عبد العزيز ، وأدركه الائمة المجتهدون من بعده : مالك

والشافعي وأبو حنيفة واحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المذاهب التي لم يبق لها اتباع لهذا العهد ، كداود الظاهري وغيره ، وكأئمة الشيعة الذين يعمل بمذاهبهم الى اليوم زيد بن علي وجعفر الصادق وغيرهم ، فلم يكتفوا بتدوين السنة في الدفاتر والكتب ، بل رأوا الحاجة تدعو الى البيان والتفصيل ، والتفريع والترتيب ، فعمدوا الى النظر في أصول الشريعة من الكتاب والسنة ، فاستخرجوا منها الاحكام ووسعوها ورتبوها ودونوها كل على أصول مذهبه وقواعده ، وأصول الاجتهاد المعروفة في كتب الاصول مما لايسعني بسطه الآن ، وكلكم أعرف مني به ، فضبطوا بذلك قوانين الشرع بما بلغه اجتهادهم ، وأدى اليه جهدهم فكانت كتب كل مذهب شرعا يعمل به أتباعه الى اليوم

ولسنا بصدد إطراء هذا العمل الجليل الذي قام به أولئك الائمة الكبار وحسب هذا العمل أو هذه الخدمة التي خدموا بها الامة والشرع انها تصون منزلة الافتاء والقضاء عن متناول كل من ادعى أن عنده مسكة من العلم بالدين والوقوف على السنة ، هذا لو أحسن العلماء بعد العمل بقوانين الفقه

نعم قد انتقد كثير من أئمة السلف ماصار اليه الحال بعد وضع كتب المذاهب من ترك أصول الشريعة والذهاب مع التقليد البحت ، لكن لم يكن هذا الانتقاد موجهاً الى الائمة المجتهدين الا فيما أخطأ فيه اجتهادهم ، وانما كان جل الانتقاد موجهاً الى من جاء بعدهم من الفقهاء والمقلدين لتنزيلهم كلام الائمة منزلة أصول الشريعة ، والعمل بأقوالهم ما أصاب منها وما أخطأ بلا بحث فى الدليل ، مع أن الائمة أنفسهم نهوا عن العمل بقول من أقوالهم دون معرفة دليله من أصول الشريعة كما تعلمون

أراد الائمة المجتهدون أن تكون طريقتهم فى التفريع مهيعاً يسير فيه العلماء فى قياس الحوادث بعضها على بعض ، وردها الى أصولها عند تجدد الحوادث سداً لحاجة المتقاضين ، وأطالوا فى الاستقصاء والبيان والتفريع ، كي لا يدعوا وجهاً لتهجم كل امرىء على أصول الشريعة من الكتاب والسنة ، ليفتي بعلم وبغير علم ، فيصير القضاء الى الفوضى والتشتت بعد انقراض طبقة حفاظ الشريعة من التابعين وتابعي التابعين ، واتساع دائرة الاسلام اتساعا يفتقر معه المسلمون

الى قوانين قريبة التناول من الفهم . لكن أساء من جاء بعدهم من أتباعهم من العلماء فهم الغاية ، فألقوا بأنفسهم في نفس الخطر الذي أراد اتقاءه الائمة المجتهدون . إذ ساروا فى سبيلين متباينين ، سبيل التضييق على أنفسهم الى مالا يبلغ بهم أدنى الحد ، وسبيل التوسع الى ما يتجاوز كل حد

حرموا فى الاول على أنفسهم الاجتهاد ، ولو فى المسائل التي تدعو اليها الضرورة والمصلحة العامة التي هي من قواعد ومقاصد الشرع الاسلامي ، فكان من ذلك أن أحرجوا الامة وألجأوا بعض الحكومات الاسلامية لهذا العهد الى العمل ببعض القوانين المقررة عند الامم الاوربية خصوصاً الجنائية والتجارية

وتوسعوا في الثاني حتى ملؤا بطون الكتب بالحواشي والشروح يؤتى فيها بعدة أقوال في المسئلة الواحدة ولو تافهة ، أو من قبيل تقدير المستحيل ، وكل هذه الاقوال تعتبر شرعا أوشريعة، وتركوا العمل بالصحيح منها أو الاصح أو المفتى به أو المعول عليه الى رأي القضاة ، فكان من ذلك أن أطلقوا لقضاء الفرد العنان بلا شرط ولا قيد ،فوقعوا وأوقعونا فيما أراد دفعه الائمة المجتهدون، وحرم المسلمون من قضاء الجماعة الذي هو كفيل بالعدل، وذلك منذ انقضاء العصر الاول الى اليوم

نعم إن اختلاف الاقوال في المسئلة الواحدة ، وكثرة الحواشي والشروح على القوانين والشرائع موجودة عند كل أمة . فالقانون الفرنساوي مثلا له شراح من المتشرعين وأشهرهم دالوز وكاربانتيه وسيريه وغيرهم كثيرون ، الا أن القضاء عند تلك الامم لما كان بيد الجماعة ، وقوة التشريع ليست من حق فرد من الافراد ، بل من حق الامة ونوابها ، فدستور العمل عندهم ما أجمعت على وضعه قوة التشريع ، وصادقت على قبوله الحكومة ، فصار قانوناً للقضاء لا يعدل عنه الى تلك الحواشي والشروح ، وآراء المتشرعين ، ويصار اليها الا لتفسير مبهم أو تطبيق الحوادث بعضها على بعض

لشريعة المسلمين أصول وكليات كما قلنا في صدر الكلام تعتبر أساساً للتشريع ، ومع أن أحكامها مسلمة فقد كان العمل بها في عهد الصحابة بالشورى بين المتفقهين منهم ، هذا فيما نص منها على مايرد عليهم من النوازل ، فما بالكم

فيما احتاج الى الاجتهاد ، والتشريع بالقياس على تلك الاصول أو الاستنباط منها . وقد سمعتم فيما مر أنهم كانوا لايحكمون حكماً الا بعد استشارة خيار الامة وعلمائها وإقرارهم جميعاً على ذلك الحكم ، حتى اعتبر بعض الائمة المجتهدين بعض أحكام الصحابة لقوتها شرعا أو أصلا من الاصول التي يبنى عليها التفريع سموه عمل الصحابة أو إجماعهم كما سبقت الاشارة اليه ، وكما ترون ذلك في كتب الاصول

إذا كان إجماع الصحابة على مسئلة شرط في صحتها واعتبارها شرعا يلزمنا العمل به ، فقد لزم من هذا أمران

(الاول) ان إجماع الجماعة على تقرير حكم في مسئلة شرط في صحة ذلك الحكم واعتباره شرعا لزمنا العمل به ، وهو ماتفعله الامم الاوربية في تقنين قوانينها لهذا العهد ، وقد وجد له أصل في الشرع الاسلامي فتركناه وأصبحنا نغبط الامم الاوربية وقوانينها أو قضاء الجماعة عندها لهذا اليوم

(والامر الثاني) أن كل أقوال الفقهاء واختلافاتهم الواردة في كتب الفروع ليست بشرع الامن حيث اشتمالها على أحكام يرد بعضها الى أصول الشريعة الا أنه غير متوفر فيها شرط التشريع الذي مر ، وإناطة ترجيح قول دون آخر من حيث قربه من الاصل بشخص واحد لا يكسب هذا القول أو الحكم قوة التشريع ليسمى شرعا أو قانوناً وجب العمل به الا اذا اتفق عليه وقرره جمهور من المتشرعين أو المرجحين ، وهذا ما أردته من وجوب بقاء الاجتهاد ، لكن لايتناوله من شاء فيما شاء . كلا بل ليناط بجماعة من علماء المسلمين تقرير الاحكام التى تدعو اليها المصلحة ، وتتجدد بتجدد الزمان

ولذا فان اجتهاد(١) الجماعة كما انه لازم في الاصول فهو لازم في الفروع أيضاً وذلك لجمع أقوال الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ما أصاب من تلك الاقوال محجة الصواب والمصلحة ووافق أصول الشريعة من الكتاب والسنة والاجماع

«١» كان يكفي هنا العطف بالفاء بأن يقال: فاجتهاد الجماعة الخ واذا كان لابد من الجمع بين لام التعليل والفاء والفاء لها الصدارة وما قبلها لا يعمل فيما بعدها فالصواب ان يقال فلهذا نقول ان اجتهاد الجماعة الخ اه «مصححه»

والقياس الصحيح في كتاب بعينه يعتبر قانونا في المعاملات مجمعاً عليه من العلماء ، ليعرف منه كل مسلم ماله من الحقوق و ماعليه ، لا تتقاذفه أقوال الفقهاء من خلاف لآخر ، ومن قول لنقيضه ، فتصير به الى أهواء القضاة والمفتين ، يحكمون بما ترجح لديهم وبما يشتهون

وليس اختلاف المذاهب بمانع من أن يحكم للشافعي أو عليه بقول للحنفية أو المالكي بقول للشافعية مثلا ، إذ كل أتباع المذاهب أبناء دين واحد ، وكل أقوال كتب الفقهاء ، مأخذها واحد ، وهو الشرع . والواقع يثبت أن أحكام المعاملات كانت في أكثر الممالك الاسلامية ، ولم تزل الى اليوم جارية في القضاء على مذهب الدولة الحاكمة ، وربما كان أكثر الرعية من أتباع مذهب غير مذهبها

ومع هذا فليس ثمة نكير من العلماء على أهل الدولة ، فلا سبيل لهم الى النكير على القائلين بلزوم جمع الاقوال الموافقة لمقتضى المصلحة والعصر من كتب المذاهب وجعلها قانوناً جامعاً في المعاملات المسلمين ، بل هذا خير وسيلة لاصلاح القضاء ربما اغتفرت للفقهاء ماضي تفريقهم وحدة الامة باسم التعصب للمذهب ، وكانت خاتمة اضطراب نظام القضاء في الاسلام

ليس اضطراب حبل القضاء في الاسلام بجديد ، وليس الظلم والعسف الذي لاقاه المسلمون من حكامهم الظالمين ، وحكوماتهم الجائرة ، الا نتيجة تواكئهم على ضعف القضاء ، خصوصاً ما يتعلق منه بولاية المظالم لا لنقص في الدين أو الشريعة ، بل لنقص في طريق التقنين والتنفيذ

إن الدين الذي ينزل على الظالمين صواعق الانذار ، ويقرن الظلم بالشرك بالله تعالى ، ويأمر باقامة ميزان العدل ، ويريد سعادة المجتمع الذي يدين به ما كان ظالما ، ولن يكون ، وانما المسلمون أنفسهم يظلمون

ربما يطالبني كلكم أيها السادة بدليل على قولي : إن اضطراب نظام القضاء وما نشأ عنه من الجور ليس بجديد في الاسلام ، وهذا الطلب من حقكم بعد هذا الكلام ، واليكم دليلا واحداً أكتفي به عن أدلة لو أحصيت لكانت كتابا ليس كالكتب مما تقرؤن

تعلمون أن أحفل العصور الاسلامية بالعلماء والمفتين والفقهاء المتشرعين وأرقاها في سلم المدنية الاسلامية عصر هارون الرشيد العباسي ، إذ الشريعة في إبان زهوها والتفريع في مبدإ مجده ، والائمة المجتهدون هم القائمون بالتشريع والى كتبهم ترجع الفتوى

في ذلك العصر الزاهر بمجد الاسلام وأمجاده العظام ، يرى أبو يوسف صاحب أبي حنيفة من ضعف القضاء ، وتسلط عمال الجور ، واضطراب نظام ولاية المظالم ، ما يلجئه الى وضع كتاب الخراج لأمير المؤمنين هارون الرشيد ، وليس فيه آية أو حديث أو مثال من قضاء الصحابة ، أي كله من أصول تلك الشريعة الطاهرة ، يذكره فيه بالرجوع الى قضاء الله ورسوله وأصحابه أو قضاء الجماعة المتين قائلا : ارجع يا أمير المؤمنين الى هذه الاصول في سياسة الرعية ، وجباية الخراج ، وتوزيع الفيء ، اقعد يا أمير المؤمنين بنفسك للمظالم ، وانصاف المحكوم من الحاكم ، أدرك الزراع فقد كاد يهلكهم الظلم ، فقد بلغني عن عمالك أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، وأنهم يفعلون بهم ويفعلون مما لا يحل لهم بوجه من الوجوه .

هكذا كان الحال في عصر الرشيد ، وأئمة الشريعة أحياء يرزقون ، فما بالكم بما جاء بعده من العصور التي صار فيها التشريع الى عدد لا يحصى من المخرجين والمرجحين ، والفقهاء والمفتين ، وكلهم يقول : قولي أو قول فلان هو شريعة الله المفتى بها ، والمعول عليها ، وما هو الا تفكك نظام القضاء ، وتشتت قوة الجماعة ، فلا حول ولا قوة الا بالله

والنتيجة أيها السادة : أن ضمان العدالة الوحيد انما هو قضاء الجماعة لا قضاء الفرد . وأعني ان التشريع وحده غير كفيل بالعدل في القضاء ، الا اذا نيط كلاهما بالجماعة بالوضع والتنفيذ ، ولا تظنوا أن هذا المطربش الواقف أمامكم يريد شيئاً جديداً في الدين ، أو قلباً لكيان الاحكام ، مع أنه ليس من علماء الدين ولا الائمة المجتهدين

كلا فليس قضاء الجماعة بجديد في الاسلام ، بل هو من عصر الصحابة وهم واضعو أساسه المتين في الدور الاول للقضاء في الاسلام

(أما الدور الثاني) فالذي أذكره أن دولتين من دول الاسلام تنبهتا اليه ، وعولتا عليه (أولاهما) دولة الامويين في الاندلس التي جعلت في القرن الثالث داراً في قرطبة لشورى القضاء ، أعضاؤها من جلة العلماء ، يرجع اليهم في تقرير الاحكام

والحق أقول : إني لم أظفر بكثير بيان عن هذه الشورى ، لكن ما رأيته عنها في ثنايا الكتب التاريخية يكفي للدلالة عليها ، فقد ورد ذكرها في نفح الطيب في ترجمة بعض العلماء كقوله : كان فلان مشاوراً ، وطلب فلان الى الشورى فابى . ونقل إلي ثقة عن كتاب من الاسف انه غير موجود بين يدي بل هو في مكتبة دمشق وهو (كتاب الاحكام للقرطبي) ورد فيه ذكر هذه الشورى بقوله : إن الشورى خالفت الامام مالكا في عدة أحكام أخذت فيها بقول أبي القاسم

وفي هذا دليل كاف على أنه كان لديهم سلطة في التشريع ، وان الدولة الاموية ثمة كانت مسددة الاعمال حتى قبيل وهنها وسقوطها ، حريصة على اجراء قوانين العدل بين رعيتها .

أما الدولة الثانية التي تنبهت الى مثل ما تنبه اليه الامويون فهي الدولة العثمانية لهذا العهد ، فانها جمعت من علماء الامة وفقهائها الموثوق بفضلهم وعلمهم جماعة سمتهم (جمعية المجلة) وذلك من بضع وثلاثين سنة انتخبوا من كتب المذهب قانوناً جامعاً للأحكام المدنية ، وهو المعروف بمجلة الاحكام العدلية ، وأقر على العمل به أهل الحل والعقد ، فصار مرجع القضاء في المحاكم الى اليوم

وستجتمع هذه الجمعية أيضاً لادخال بعض الزيادة والتحرير عليه مما مست اليه الحاجة ، ولو بأخذه من غير المذهب الحنفي

هذا مجمل تاريخ القضاء في الاسلام وما تخلله من الشؤون ، بسطته لديكم مع رجائي أن تصفحوا عن كل خطأ بدر مني أو تردوه ، ولو سمح الوقت لأتيت على شيء كثير من كيفية تقسيم ولاية القضاء وترتيبها ، ومحاسن الفقه الاسلامي وما انتقد عليه ، وانه لو أحسن العلماء العمل به لكان لنا منه قانون جامع لاحسن قوانين الامم المدنية ، وربما أعود الى هذا البحث في فرصة أخرى إن شاء الله

(تمت)

﴿ رسائل رفيق بك العظم ﴾

رحمه الله تعالى

الجامعة الاسلامية

وأوربا

تأليف

رفيق بك العظم

﴿ الطبعة الثانية ﴾

في سنة ١٣٤٤هـ — ١٩٢٥ م



مطبعة المنار بمصر

باسم الله نبتدىء ، وباسم الحق والعدل والتاريخ نشفع ﴿ وبعد ﴾ فقد كثر في هذه الآونة لغط الجرائد الاوربيـة في الجامعة الاسلاميـة ، وارتفع صوت المرجفين المنادين بخطرها العتيد من قادة الامم الغربية ، وأرباب الحل والعقدفي دول أوربا . فسنحت لي من ذلك خواطر رأيت في النفس ميلا الى قيدها . وفي الدواعي داعياً الى نشر ما انطوى في الصدر منها ، لعله لايخلو من فائدة ينشدها طلاب الحقيقة ، ويسكن اليها أهل الانصاف من كل قوم فأقول :

من البديهي ان الاجتماع طبيعي في العالم الانساني لانبعاثه عن ضرورة التعـاون الذي هو قوام حياة الانسان . وأغراض الاجتماع تختلف باختلاف الحاجات ، فمن الاثنين يجتمعان على الامر الحقير ، الى الجماعات يجتمعون على الامر الـكبير . وللاجتماع نظامات وروابط ، وهي العصبيات ، تـكاد تـكون طبيعية بين البشر ، أهمها الروابط العامة التي تجمع قوما أو أقواما كثيرين على كلمة واحدة ، وهي رابطة العشيرة أو الجنس أو الوطن أو الدين ، والارتباط بهذا النوع من الروابط أو العصبيات من مستلزمات الاجتماعات الاولى التي يقوم بها نظام البشر لما يترتب عليها من تكافؤ القوى بين الجمعيات البشرية المدفوعة الى التغالب بحكم الانانية والطمع المفطور عليهما هذا الانسان الذي يشبه في نموه النبات القوي يهلك ما حوله من النبات الضعيف ، ولهذا كان كل مجتمع إنساني مهدداً في كيانه من المجتمع الآخر مالم يكن ذا رابطة تجعله متكافئاً معه في القوة تراعى فيها النسبة في القوة بين الرابطتين ، فـكلما اتخذ المجتمع رابطة أوسع تحتم على الآخر أن يتخذ ما يقابلها . فالرابطة أو العصبية القومية أي عصبية العشيرة أضعف من عصبية الوطن أو رابطته ، فلا يصح أن تقابل بالعصبية الوطنية ، ولا الوطنية بمـا هو أوسع منها ، وهي الجنسية ، ولا الجنسية بمـا هو أعم منها ، وهي

الدينية ، بل كل عصبية من هؤلاء عند قوم تقابل من مثلها عند آخرين اذا هددوا بأعم من عصبيتهم .

ومثاله : أن الالمانيين أقوياء بازاء الفرنساويين ، مالم ينضم الى هؤلاء كل الجنس اللاتيني ويتعصب للفرنساويين ، وحينئذ ينبغي لتعادل القوة وتكافئها أن يتعصب للالمانيين كل الجنس الجرماني ، ويتخذ جامعته شكلا أوسع من شكلها الاول، وعليه يقاس ماهوأعم من هذه الرابطة ، وهي عصبية الدين ومثاله إن الترك المسلمين ضعاف بأزاء الامم المسيحية اذا اعتصبت عليهم بجامعة الدين ، فلا بد لتكافؤ قوتهم مع هؤلاء ، من أن يتعصب للترك كل المسلمين ، وهناك روابط أخرى وهي الروابط الودادية والسياسية التي يستدعيها أحياناً اتحاد المصالح ، إلا أنها ليست بطبيعة الوجود بين الاقوام ، بل هي طارئة قد تحل وتزول بزوال أسبابها العارضة . وأما الروابط الاخرى لاسيما رابطة الجنس والوطن فانها طبيعية الوجود ، لاسبيل الى انحلالها الا بانحلال القوم المنتسبين اليها ، ويلي هاتين في المنزلة العصبية الدينية ونقول : تليهما هذه العصبية لانها نادرة الظهور بين الامم ، ولا يلجأ اليها الا حين الضرورة القصوى ، وقل ماجمع الدين كلمة أهله بأجمعهم الا في الشاذ النادر ، اللهم الا في العواطف دون الفعل ، فقد يتألم مسلم الغرب لمسلم الشرق اذا أصيب بمصيبة كبرى ، فلا يتعدى تألمه هذا دائرة الشعور — وهذا الاسلام فانه مع حضه أهله على التعاون والاخاء كما سنبين بعد ، نراهم كانوا أقل الامم اجتماعا على كلمة الدين ، الا فيما لم يتجاوز عهد النبوة وربما كان لهم اجتماع على عهد الخليفتين أبي بكر وعمر . ومن ثم أخذت عصبيتهم الدينية بالتفرق والانقسام ، وحلت محلها العصبيات الاخرى ، فلم يلتئم بعدها لهم صدع ، ولم تضمهم جامعة الدين حتى في أبان المصائب الكبرى التي حلت في ساحة الاسلام ، وكان من مقتضاها اجتماعهم على رابطة الدين فلم يفعلوا ، وسببه حكم الافراد الذي بسط يده الحديدية على المسلمين بعد دولة الخلفاء الراشدين ففرقهم بتفرق أهواء أولئك الجبارين ، وأذهلهم حتى عن أوامر دينهم المبين ، وقانونه الجامع لمصالح الناس أجمعين

وهذه الحروب الصليبية التي آثار نارها في أواخر القرن الحادي عشر المسيح الراهب بطرس الناسك والبابا أوربانس الثاني ، فمع استمرار هذه الحروب مدة تزيد عن جيلين ، فان المسيحية كانت أنشط في جمع كلمة أهلها من الاسلام ولم يعهد في تاريخ تلك الحروب اجتماع لكلمة المسلمين كما اجتمعت كلمة المسيحيين بل كل ما عهد في التاريخ : ان السلطان نور الدين زنكي أمكنه بحكمته ، وجميل شيمه وحسن سياسته ، أن يجمع اليه باسم الدين كلمة بعض الامراء الاتابكية في الجزيرة وسورية سنة (٥٥٩ ﻫ) بعد ما لاقى من جيوش الصليب ضروب القهر وأشرفت دولته على شفا السقوط ، وبعد أن أخذ يكاتب العباد والزهاد ممن لهم سلطة روحية على نفوس العامة في الجزيرة ، مستنجداً بنفوذهم ، مبيناً لهم ما وصل اليه إخوانهم المسلمون من الضنك ، وما يتهددهم من خطر الاضمحلال العاجل ، فأنجده حينئذ بعض أمراء الجزيرة

بل ان هناك كارثة أعظم ، ومصيبة أكبر وأعم ، حلت في أوائل القرن السابع الهجري بالشرق الاسلامي ، فعفت بها آثاره ، وتداعى عمرانه وتضاءلت دوله ، وقضي على الخلافة العباسية في عروس أقطاره ، وعاصمة ملكه ، ألا وهي هجمات التتار الذين خرجوا من أقصى الشرق ، نغزوا الممالك الاسلامية بخيلهم ورجلهم ، وقصدوا الشرق الادنى بقضهم وقضيضهم ، فكانوا كشواظ من نار يلتهم كل ما أتى عليه من الخضراء واليابسة ، حتى بلغوا سورية وآسيا الصغرى واليك ما قاله ابن الاثير في حوادث سنة (٦١٧ ﻫ) في مقدمة كلامه على كارثة التتار لتعلم مبلغ فعلها في المسلمين ، وقبيح أثرها في البلاد قال :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمي لم تلدني ، وياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا ، إلا أني حثني جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وانا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الايام والليالي عن

مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا . فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها » الخ ما وصف به هذه الحادثة

وأنت ترى أنها حادثة كبرى كانت تهدد كل دول الاسلام في الشرق الادنى بالزوال ، وتنذر المسلمين بسوء المآل . وقد شعروا عند أول صدمة من صدمات هؤلاء الهمج الوثنيين الغزاة أن لا قبل لعصبيات الدول والشعوب الاسلامية بهم ، ولا قوة تصد تيارهم المتجه صوب الممالك الاسلامية ، إلا قوة الاجتماع التي تقابل قوتهم . ولم يكن أدعى يومئذ لمثل هذا الاجتماع مثل الدين الذي يضم تلك الدول المتفرقة ، والعصبات المتغالبة بحكم الرابطة الاسلامية ، ومع هذا فلم يجمع على هذا الامر رأي ، ولم تقل بوجوب السعي اليه والاعتصام به دولة من تلك الدول المخذولة التي يقرأ أمراؤها في كتابهم المنزل (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) بل انفرد كل قوم بعصبيتهم ، وذادت كل دولة عن حوضها بسلاحها ، حتى وهنت قواهم جميعاً ، وفعل التتار في ممالكهم فعلا مروعا انتهى بالتسلط على أكثر الممالك الشرقية الاسلامية ، وبزوال الخلافة العباسية

هل صحيح ما تقوله أوربا ؟
عن الجامعة الاسلامية

علمت أيها القارىء من هذا التمهيد ان الاجتماع يستدعي بطبيعته وجود الروابط القومية والوطنية الخ ، وان الغرض من هذه الروابط حفظ التوازن بين قوى المجتمعات الانسانية الميالة الى المغالبة بحكم الأنانية والطمع ، وإن أقل هذه الروابط تأثيراً في المجتمعات رابطة الدين ، وان المسلمين لم تجمعهم هذه الجامعة يوما ، حتى ولا على التعاون على دفع الكوارث الكبرى التي حلت ببلاد الاسلام من هجمات أهل الصليب والتتار ، ولو اجتمع المسلمون أمام أمثال هذه الجوامع الكبرى ، سواء في ذلك الوقت أو الآن أو في كل زمان لأتوا عملا تستدعيه طبيعة الوجود ، لاسبة فيه ولامؤاخذة عليه ، إلا إذا محيت من صفحات

الوجود قوانين الروابط الاجتماعية بحكم الاخوة الانسانية ، والمساواة العامة بين أفراد البشر وأقوامهم ، ولا يكون هذا ولن يكون الا اذا استبدل البشر بخلق آخرين ، من جنس الملائكة المطهرين

اذا تقرر هذا فاعلم أن دعوى القائلين بخطر الجامعة الاسلامية المتوقع بمعناها الذي يريده أولئك القائلون مدفوعة من وجوه

(الوجه الاول) إن الجوامع الجنسية غالبة عند الامم وأخصها الامة الاسلامية لهذا نرى المسلمين قد مزقهم الاوربيون وتشاطر ملكهم الدول المسيحية دون أن يمد بعضهم يد المعونة الى بعض باسم الدين والجامعة الاسلامية . لغلبة العصبية الجنسية أو الوطنية على العصبية الدينية ، ولتخاذلهم المعروف المتأتي عن تحاسد أمرائهم الذين أعماهم الجهل وحب الذات والانانية الباطلة ، حتى عن الاعتصام بالجوامع السياسية التي تقضي به أحيانًا المصالح المتحدة بين دول الارض

(الوجه الثاني) إن المسلمين ولو اجتمعوا باسم الدين لمناهضة دول أوربا ، فلا يكون اجتماعهم خطراً على المدنية كما يذهب اليه سياسيو المغرب ، بل يكون وفاء بحق القوميـة ، ورجوعا الى الاعتصام بالرابطة العامة التي يمكنها أن تقابل رابطة الدول المسيحية الغربية ، التي اجتاحت أغلب ممالك الاسلام ، وكانت خطراً كبيراً على حياة المسلمين السياسـية — وقد أبنا فيما سبق أن قوانين الاجتماع الطبيعية تقضي على الشعوب بالذود عن مجتمعها ، والذب عن استقلالها ، ما لم يصبح البشر كله في حقوق الانسانية ، والتمتع بثمرات الحياة سواء

(الوجه الثالث) إن القول بالجامعة الاسلامية واتحاد الاسلام ، وغير ذلك من الالفاظ الوضعية التي أراد واضعوها إيغار صدور الامم على المسلمين إنما هي من موضوعات السياسيين في هذا العصر لم ترد في تاريخ الاسلام ، وليس لها في الدول الاسلامية شأن غير سياسي أصلا ، وهو شأن الدول القائمة والامم الفاتحة في كل عصر ، وعلى تقدير أن هناك ما يدعو إلى الظن باتحاد المسلمين في هذا العصر ، فمنشأه اتحاد أوربا على اكتساح ممـالك الاسلام ، واستعباد المسلمين . فليسـموا اتحاد المسلمين بأزاء اتحادهم الاتحاد الديني ، أو الجامعة

الاسلامية ، أو الشرق والغرب ، أو ما شاؤا من الاسماء ، أفليس معنى ذلك كله أن المسلمين يريدون الاعتصام بجامعة كبرى تقابل اجتماع الدول المسيحية على اهتضام حقوق الامم الاسلامية

من العجيب أن الدول الاوربيــة التي تسوغ لنفسها الحق بالاستيلاء على الممالك الشرقية ، والقضاء على حياة المسلمين السياسية، لاتسوغ للمسلمين الحرص على هــذه الحياة بأن يحموا بقوة الاجتماع والتآلف ذمارهم ، ويصونوا من عبث العابثين استقلالهم ، وأن ينادي ساستهم إن في وجود الجامعة الاسلامية خطراً على أوربا ، وبعبارة أوضح على سياسة دولها الموجهة الى تدويخ الممالك الاسيوية والافريقية ، ولا يجوزوا أن يقول المسلمون إن في وجود الجامعة المسيحية الاوربية خطراً على الممالك الاسلامية ، مع تحقق الخطر من قبل هذه وانتفائه من قبل تلك

إن ساسة المغرب يوهمون العالم أن الجامعة الاسلامية خطر على المدنيــة لاصطباغها بصبغة دينية ، مع أنها خير على المدنية وأرجى لنفع الانسانية لو قام بها المسلمون ، واليك البيان

﴿ الاسلام والجامعة الاسلامية ﴾

من المعلوم بالضرورة أن معنى الدعوة الى الدين هو ربط أفراد كثيرين وأقوام عديدين بعقيدة واحدة . فالامة التي تدين بدين واحد مسوقة بضرورة المشاركة في الاعتقاد الى المشاركة في العواطف ، وهذا هو الارتباط الديني الذي قلنا أنه كباقي الروابط طبيعي بين البشر مادام لهم دين أو أديان ، والاسلام من هذه الوجهــة كباقي الاديان ، إلا أنه يمتاز بأمرين جديرين بالنظر والاعتبار ، وهما تنويهه بشأن الارتباط الاخوي بين المسلمين ارتباطاً خاصا ، ثم الارتباط الانساني بين الناس كافة ارتباطا عاما . ومما جاء في الامر الاول قوله تعالى في القرآن الكريم (إنما المؤمنون أخوة) وقوله (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان) وفي الحديث النبوي « المسلمون تتكافأ دماهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم على يد من

سواهم » وفي الحديث أيضاً « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ولذا كانت رابطة التعاون والأخاء عقيدة من عقائد المسلمين ، وان تناسوها ولم يعملوا بها الا قليلا

ومما جاء في الأمر الثاني أي في الرابطة الانسانية قوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفي الحديث « لافضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » (١)

وأنت ترى من هذا البيان أن الاسلام له رابطتان ، رابطة العواطف التي يشترك بها أرباب كل دين ، ورابطة التعاون والاخاء التي يدعو اليها بالفعل ، إلا أنه بين معنى هذا التعاون في أنه على الخير دون الشر ، وعلى البر بالناس دون العدوان عليهم ، لكي يكون ارتباطهم بجامعة الاخاء الديني واجتماعهم عليه غير مقصود به العدوان ، بل المحاسنة والاحسان ، وصريح قوله بالاجتماع وعدم التفرق محمول على ما تستدعيه حالة الاجتماع من لزوم حفظ البيضة وكف الايدي العادية عن المجتمع ، وهذا ضروري للمجتمعات كما أشرنا اليه في التمهيد

ثم لكي لاتكون جامعة الدين سبباً للعدوان مع الآخرين ، بل وسيلة الى التدرج في مدارج الانسانية في أعم مظاهرها ، وهي المساواة العامة بين أفراد البشر وأقوامهم فيما تقتضيه حقوق الانسان على الانسان من الكرامة وحسن الجوار وتبادل المنافع . والاعمال التي جعلت الانسان مدنياً بالطبع ، أي محتاجا الى التعاون ، مفتقراً بعضه الى بعض ، قال الله تعالى إرشاداً للمؤمنين الى ذلك (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) الآية

هذه هي الوحدة الدينية التي يدعو اليها الاسلام ، أفلا يرى المنصفون من كل قبيل أن الجامعة الاسلامية التي يوهم ساسة الغرب العالم المسيحي بخطرها على المدنية اذا اصطبغت بصبغة الدين هي خير للمدنية من أن لا تصطبغ بهذه

«١» اين هذا مما يعتقده الاوربي من انه افضل البشر واسماهم ام

الصبغة (١) وان فوضى العقول عند الطوائف الاسلامية تأتي بما هو شر على المدنية مع تنكر نفوس المسلمين لهذا العهد لما تأتي به دول أوربا لمضادتهم ومضادة دولهم من أساليب المكر والخديعة، توصلا لامتهان حقوقهم، وسلب استقلالهم، ووطء بساط ملكهم حيثما كان

اللهم إن المسلمين ما قذف بهم في لج الحيرة، ووقف بهم عن السير مع الامم الراقية في سبيل المدنية الصحيحة، وكشف ما بينهم وبين الامم المتمدنة، فرموهم بكل نقيصة، ونالوهم بكل سوء الا انفصام عروة وحدتهم الدينية، والخروج عن قانونها الجامع الذي يرمي الى غرض الاجتماع الصحيح والمدنية الفاضلة، ويريد الشعوب على توحيد الكلمة لضرورة القيام على شؤون الحياة المدنية، وإنما يتحقق معنى الحياة في قوم اذا أعزوا جانبهم، وذادوا عن حوضهم، وكانوا يداً على من ناوأهم، وأقسطوا في المعاملة الى من عداهم، وهذا ما يريده الاسلام

من الظلم أن يمثل ساسة المغرب الجامعة الاسلامية بصبغتها الدينية في صورة معكوسة ينكرها الاسلام، ويأباها العدل والتاريخ، ولا تنطبق على نص من نصوص الدين كما رأيت. وحسبك من الدين والتاريخ دليلا على أن الاسلام لايحض أهله على الجامعة إلا ليكونوا يداً على من ناوأهم، وأن يقسطوا الى من سواهم، وإن افترق عنهم في الدين، مالم يبادئهم بالعدوان ويرد بهم السوء. إن بعض القرشيين من المشركين كانوا يزورون بعض المهاجرين من ذوي قرابتهم في المدينة، فلا يقبلون عليهم، ولا يحسنون اليهم، لما عرفت به قريش من الشدة على المسلمين، والاصرار على الشرك، فنزلت في تنبيههم الى أن الدين لايمنع من الاحسان الى غير أهله ما دام غير مناو المسلمين هذه الآية (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم، إن الله يحب المقسطين)

---

(١) ان حزب الاصلاح الاسلامي الداعي الى اصلاح الدين هو الذي يريد مثل هذه الوحدة ويدعو اليها لما فيها من التقارب بين الشعوب

وهذا التسامح الذي عرف به الاسلام ونبه عليه القرآن هو الذي سد كل منفذ من منافذ الاغراض السياسية التي تفسد نظام الاجماع وتفرق وحدة الانسانية وتلقي العداوة والبغضاء بين بني الانسان فلم يستطع زعماء السياسة في الدول الاسلامية جمع الشعوب العائشة في البسيط الاسلامي على كلمة الاسلام بقوة الاكراه، ولم يسعهم أن يعاملوا مخالفيهم في الدين بضروب من العنت تلجئهم ولو إلى الهجرة والجلاء عن بلاد بسط عليها الاسلام جناح سلطانه. وآخر من نعهد انه حاول ذلك من ملوك المسلمين السلطان سليمان العثماني فانه لما رأى شغب المسيحيين في ولاياته الاوربية وتوالي خروجهم عن الطاعة وعلم أن بقاءهم على النصرانية خطر على تلك الولايات استفتى علماء عصره في إكراههم على الاسلام فأبوا أن يفتوه بذلك وكان ماتوقعه ذلك السلطان من الخطر على تلك البلاد فضلا عما لاقته الدولة العثمانية من النصب والتعب في سياسة أهلها ولم تزل تلاقيه فيما بقى منها في حوزتها الى الآن

إن السياسيين وأهل الانانية المتوحشة في أوربا الذين يرجفون بخطر الجامعة الاسلامية لايرون أن من الخطر على المدنيــة والعبث بنظام الالفة الانسانيــة والوحدة البشرية اضطهاد المسلمين الذين تحت كنفهم وارهاقهم بضروب من الاذلال والاعنات قصد القضاء عليهم واستئصال شأفتهم باسم السياسة ويرون أن من الخطر على المدنية وجود جامعة اسلامية تعامل باسم الدين مخالفيهم في السياسة والدين معاملة الاكفاء في الانسانية والعشراء في الوطنيــة كما سبق بيانه أفليس في هذا مايدعو الى الحكم على رجوع الانسانيــة القهقرى وتقدم المدنية الى الوراء

حقاً إن هذه (السياسة) المطلقة من قيود الانسانية والوجدان ومن قيود الحق والعدل تشبه في تشكلها حكايات الغيلان الواردة في أساطير الاولين وتماثل آله الشر عند اليونانيين فالسياسيون اذا ساقوا الشعوب الى الدمار وقتلوهم بالسيف والنار قالوا انها السياسة، واذا وطئوا بأقدامهم الحقوق وامتهنوا الشرائع اتهموا السياســة ، واذا أخطؤا خطأ يجلب على بلادهم الدمار وعلى دولتهم العار

تدرعوا بالسياسة . وبالجملة فحيثما سنحت لهم سانحة شر قدموا أمامهم السياسة فالسياسة عندهم (كالجسم المرن) قابلة للتشكل بأشكال الاهواء التي تنبعث في نفوسهم وتدعوهم اليها اطماعهم . ولهذا لما استباحوا لجامعتهم الاوربية أو المسيحية أو السياسية اضطهاد الجامعة الاسلامية في ملكها ودينها وأهلها، ورأوا أن يأتوا لهذا العهد على البقية الباقية منها، أخذوا يصيحون بخطر الجامعة الاسلامية تمهيداً لمقاصدهم السيئة وتكفيراً عن إجرامهم الى المسلمين أمام العقلاء وانصار العدل والفضيلة من أهل البلاد الاوربية ولسوف يعلمون أنهم مخطئون

﴿ أوربا والجامعة الاسلامية ﴾

قبل أن نأتي على تاريخ مناهضة أوربا للجامعة الاسلامية أو بعبارة أصح على أسباب توجه الافكار فيها الى تدويخ الممالك الاسلامية نريد الاشارة إلى السبب الذي يدعو الساسة الاوربيين في هذا العصر الى التمويه وبسط المقدمات الواهية من نحو قولهم بخطر الجامعة الاسلامية والتعصب الاسلامي وغير ذلك عند مايجمع أمرهم على اكتساح جزء من الممالك الاسلامية وسلب استقلال شعب من الشعوب ، مع أن المعروف عندهم أن الحق مع القوة ، والمسلمون حيثما كانوا ضعاف لاتحتاج غارة الدول على أي فريق منهم الى بسط المقدمات وانتحال الاسباب فأقول

اعلم أن الامم المسيحية لما كانت مسوقة في أوربا بيدي الكهنة والملوك مأخوذة الارادة بقوة هاتين الفئتين كانت كعامة أهل المشرق مسيرة غير مخيرة ليس لها من الامر الا أن تدعى الى عمل فتجيب ، وتساق الى حرب فتسير ، لاتبحث عن الباعث على ذلك ولا تسأل عن المصير . ولما قدت هذه الأمم قيود تلك السلطة وتمتعت بالحرية وشاركت الحكام بالرأي أصبح الحكام بيد الشعب لا الشعب بيد الحكام، وصار الساسة وأرباب الحل والعقد محاسبين على كل عمل يأتونه، وغالى بعض الاحزاب المغرقين في الحرية فقالوا بوجوب اشتراك البشر على اختلاف الطبقات في حقوق المساواة العامة،وسد سبل المطامع دون زعماء

السياسة والمال. وقال بعضهم بوجوب نزع السلاح من الدول أي تجريدها عن كل قوة تدعو إلى النزاع والخصام، وتعدي الاقوام على الاقوام، الى غير ذلك من الاحزاب ذات الآراء المعروفة لهذا العهد في إصلاح الهيئة الاجتماعية. يضاف الى ذلك كثير من الفلاسفة ومحبي خير الانسانية وأهل الفضيلة من الطبقة الراقية في العقل والوجدان الموجودين في كل مملكة من ممالك أوربا، كل هؤلاء ينظر اليهم رجال الحكومة الاوربية بعين الحذر عند الاتيان بكل عمل كبير في السياسة الخارجية أو الداخلية لانهم قادة الافكار ومالكو أزمة عامة الشعب وهذا مايدعو الحكومات أحياناً إلى التمويه ومغالطة الشعوب لاسيما في مسائل الشرق البعيدة عن أنظار القوم لكي يمهدوا لانفسهم سبيل المعذرة في غاراتهم الشعواء على الامم الضعيفة بغير ماسبب إلا الانانية المتوحشة وحب التوسع في الفتح. وهم يستخدمون الجرائد في أكثر الاحيان لنشر بهتانهم وترويج مقاصدهم لان صوتها مسموع عند عامة الشعب وخاصته ومن هذا القبيل صيحتهم القائمة اليوم في الجامعة الاسلامية والاتحاد الاسلامي ونحو ذلك من الاقوال المفتراة التي تجسم للعالم الاوربي المسلمين في صورة تستوجب الذعر وتستدعي الحيطة على مصالح الأمم الاوربية التجارية المنتشرة في أنحاء الشرق، والتجارة روح تلك الامم وعماد سعادتها وغناها وسبب مجدها وقوتها وانما تحاط مصالحهم التجارية بالحكومات فحيثما يطرق مسامعهم أمثال تلك الصيحة يبعثهم حب المصلحة والحرص على المنفعة الى التسليم بما تقضي به حكوماتهم من القضاء الجائر على المسلمين بالخصوص والشرقيين بالعموم

هذه هي الاسباب التي تدعو حكومات أوربا الى التمويه والتضليل وايغار صدور الشعوب المسيحية على المسلمين، وتفجير بركانها السياسي في المشرق من حين الى حين

أما تظاهر الدول الاوربية بالعدوان على المسلمين وتوجه مقاصدهم نحو الشرق وطمعهم في ممالك الاسلام وتذرعهم بكل وسيلة لمناهضة أهله ومشاكستهم فله تاريخان قديم وحديث أما القديم فمنبعث عن تعصب ديني قبيح ملوث

بادران الهمجية الاولى ومنه فظائع جمعيات التفتيش وتمثيل الاسبانيول بمسلمي الاندلس تمثيلا قلما جاء مثله في التاريخ ومنه الحروب الصليبية التي انكفأ بها الغرب على الشرق الادنى الاسلامي وأصلى أهله حربا عوانا مدة تزيد عن جيلين وليس من قصدنا الكلام على هذا التاريخ لانه طويل الذيل مثير للشجون يأنف من ترديده على السمع أبناء هذا العصر ويأبى من الخوض فيه قلم الحكيم وانما نريد أن نلم بشيء من تاريخه الحديث لعلاقته بالتمدن الحاضر واتصاله بمبدا النهضة الاوربية الجديدة التي ابتدأ معها ضعف أعظم دولة اسلامية في الارض وهي دولة آل عثمان

إن النهضة الحديثة التي ظهرت في أوربا تبتدي من عهد المصلح الديني الشهير (لوثر) الذي قام في المانيا في أوائل القرن السادس عشر للمسيح واشتهرت مقالته بعدم مشروعية الرهبنة والاعتراف وسيادة البابا الدينية فكانت مقالته هذه أول خطوة خطاها الاوربيون للتملص من اغلال السلطة الدينية التي استأثر بها (الاكليروس) فاستخضع لارادته النفوس والارواح وحال بينها وبين الترقي الى متناول المعرفة بمزية الحرية والعلم . نعم أن نور المدنية قد كان ظهر في أوربا قبل ذلك بقرون في أواخر القرن الثامن للمسيح في عهد شارلمان ملك الفرنسيس الا انه مالبث أن انطفأ بموت ذلك الرجل العظيم وكان يلمع من حين الى آخر لاسيما بعد احتكاك الغرب بالشرق ومخالطة الاوربيين للمسلمين في الاندلس وفي الحروب الصليبية، الا أن لمعانه كان من وراء حجب كثيفة أقامها الكهنة وزعماء الرياسة فلما جاء لوثر بتعاليمه التي من مقتضاها هتك تلك الحجب وتخليص العقول من أسر الخضوع الاعمى لارباب السلطة الدينية وسرت مقالته في أوربا سريان النار في الهشيم تلقتها العقول بمزيد القبول وأعقب هذا الاصلاح الديني الاصلاح السياسي والمدني وظهرت ثمرات هذا المذهب على اتمها في انكلترا في أواسط القرن السادس عشر على عهد الملكة اليصابات حيث أصبحت هذه المملكة ملجأ الفارين من اضطهاد الكاثوليك من أرباب الحرف والصنائع النفيسة في انحاء أوربا

والعجيب أن هذا العهد الذي هو عهد الاصلاح والترقي في أوربا كان أول عهد التدلي فيما يجاور شرقي أوربا من الممالك الاسلامية وهي المملكة العثمانية وفي عصر أعظم ملوك العثمانيين شهرة وأشدهم صولة وهو السلطان سليمان القانوني الذي كان معاصراً للوثر مؤسس الاصلاح الديني في الغرب

منذ اكتشف كولمبوس اميركا في أواخر القرن الخامس عشر دبت روح التنافس بين الدول الاوربية في استعمار الممالك القاصية فيما وراء البحار فاشتهر البرتغاليون بأسفارهم البحرية واكتشاف طريق الهند واستولوا على كثير من جزر المحيط واتبعهم الاسبانيول والانكليز فأسس الانكليز شركة الهند التجارية في القرن السادس عشر تمهيداً لتملك ذلك القطر الواسع الاكناف والممالك المتنائية الاطراف وجرى مجراهم الفرنساويون والهولانديون فكانت ممالك الاسلام في الهند وجزائر آسيا وافريقيا عرضة لهذه الغارة الاوربية بعد اذ أخذ الضعف حده من المسلمين وحكوماتهم في تلك الارجاء وكانت الدولة العثمانية في شرق أوربا تكافح دول أوربا وتذود عن حياض الشرق الادنى بقوة السيف دون الانتباه الى قوة العلم التي أخذت بزورها تنبت في أرض المغرب. ولما كان عهد السلطان سليمان الذي القى الذعر في نفوس الملوك وأزعج بسطوته الحكومات الاوربية عن مطمئن الراحة لاسيما شارلكان امبراطور المانيا وأسبانيا ولويس ملك المجر وفرديناند ملك النمسا أخذت الدولة العثمانية دوراً غير دورها الاول وهو دور الانحطاط لاسباب

السبب الاول منها ظهور فكرة الاصلاح عند الامم الاوربية ودخولها في دور جديد من المدنية باعطاء العقل حق السلطان المطلق مع وقوف المسلمين في الجانب الآخر وقفة المتفرج المؤذنة بصعود أولئك الى أوج المجد والقوة وهبوط هؤلاء الى حضيض المهانة والضعف

السبب الثاني منح السلطان سليمان بعض الامتيازات القنصلية لجمهوريتي جنوى والبنادقة ولفرنسيس الاول ملك فرنسا

الثالث — ويشترك فيه غيره ممن سبق من سلاطين العثمانيين — هو صرف

قوة الدولة الى القسم الاوربي مما يلي الاستانة وإضعاف قوتها في اخضاع شعوب لم يكن منهم في مستقبل الدولة الا الضرر وايجاد العقبات في سبيل تقدم الدولة في أنحاء أخرى لاشغال قسم كبير من جندها في توطيد دعائم الامن في تلك الولايات واخماد نيران الثورات المتوالية التي كان يضرم نارها فيها المسيحيون من حين لآخر الى هذا اليوم

أما امتيازات القناصل فانها كانت الآفة الكبرى والوسيلة العظمى التي توسل بها الدول الى إرهاق الدولة لاسيما بما استرزدنه بعد عهد السلطان سليمان من المنح والامتيازات الاخرى التي تخول بعض الدول حماية الكنائس في الشرق وبعبارة أخرى حماية المسيحيين تذرعا بذلك الى خلق المشاكل التي تمهد لهن السبيل إلى التسلط على ممالك الدولة عند سنوح الفرص الملائمة ونذكر من هذه المنح والامتيازات ماأعطى لدولة فرانسا سنة ١٧٤٠ من حق حماية جميع قسوس الكاثوليك في المملكة العثمانية

وبينما الدولة العثمانية تخبط في ديجور الحيرة في دورها هذا أي دور التدلي والانحطاط وتتسرب اليها أفاعي الدسائس والامتيازات والدول الاوربية تقضي لباناتها من الممالك الاسلامية في أقصى الشرق وتوالي هجماتها على الثغور الاسلامية من افريقيا الشمالية الغربية كتونس والجزائر وطنجه وسلا والعرائش سعى أحد الباباوات بتحالف الدول الاوربية على الدولة العثمانية فاتحدت كل من النمسا وبولونيا والبندقية والروسيا ورهبنة مالطة وذلك سنة (١٦٠٤ هـ) و(١٦٨٣ م) اتحاداً سموه « الاتحاد المقدس » وهاجم هؤلاء الدول المملكة العثمانية من البر والبحر وأصلوا بلادها حربا تشيب لها الرءوس وفي غضون ذلك كانت الدولة الروسية تعد بهمة بطرس الاكبر عدواً هائلا للمسلمين يهدد أوربا العثمانية والقوقاز والتركستان وفارس وكل آسيا الوسطى وأمرائها من المسلمين بسيل جارف يقضي على بقية الممالك التي لم يتيسر للدول الاوربية الوصول اليها وسلب استقلالها، وأخذ بطرس الاكبر بمناوئة الدولة العلية وأثار عليها حربا عوانا لم يصادفه فيها التوفيق فحول وجهته الى جارتها أي دولة الفرس وانتهز فرصة ضعفها وانقسامها فتجاوز جبال القفقاس واكتسح اقليم داغستان

وكل الثغور الغربية الواقعة على بحر الخزر ووضع وصيته المشهورة التي يوصي بها اخلافه بصرف الهمة الى القضاء على استقلال التتار في بلاد القريم وتدويخ الممالك التركية والايرانية والاتفاق مع بعض الدول الاوربية على الرضا بذلك فتبع قياصرة الروس بعد ذلك هذه الوصية على قدر ماوصل اليه جهدهم فوفقوا في بعضها ولم يوفقوا في البعض الآخر

ولما كان عهد الامبراطورة كاترينا (الى سنة ١٧٧٣ م) أخذ الروس بدس الدسائس في القريم والقاء الشقاق بين الاهالي بعد أن سعوا باستقلال القريم عن تركيا استقلالا تاما في (معاهدة قينارجه) الشهيرة حتى توصلوا الى احتلال القريم وامتلاك سواحل البحر الاسود الشمالية ثم اتفقت الامبراطورة كاترينا سنة ١١٩٤ﻫ ١٧٨٠ م مع امبراطور النمسا يوسف الثاني (١) على اقتسام تركية أوربا وبعض جزائر البحر الابيض واقامة حكومة جديدة في الاستانة كالحكومة البزنطية المنقرضة وإرضاء دول أوربا بشيء من هذه القسمة تنفيذاً لوصية الامبراطور بطرس الكبير فقدم سفيرا روسيا والنمسا الى الباب العالي تقريرين يشتمل كل منهما على ثلاثة مواد تتضمن (أولا) طلب الدولتين لحرية التجارة وأن تضع النظامات اللازمة والاصلاحات الموافقة لحرية الملاحة ونقل المحصولات من ثغورها البحرية مراعية في ذلك الاصول والنظامات المعمول بها عند أكثر الدول الاوربية (ثانيا) عدم مداخلة الدولة في أمور التتار واعتبار الخان مستقلا في حكومته (ثالثا) رفع الجزية المضروبة على الافلاق والبغدان

وقد استشعرت الدولة من هذين التقريرين بنيات الروسية السيئة ، وظهر لها أن هناك اتحاداً بين الدولتين يراد به محوها من الوجود ، فعقدت في الاستانة في محرم سنة (١١٩٧ﻫ) مجلساً للمشورة والاجابة على هذين التقريرين ، فرأى

---

(١) قد كانت بروسيا حاربت النمسا على عهد والدة يوسف الثاني - الامبراطورة ماريا تريز حرباً استمرت نحو سنتين حتى اصاب النمسا من جرائها ضعف شديد وحاولت بروسيا ان تغرى الدولة العلية بحربها اثناء هذا الضعف فلم تقبل الدولة بذلك مراعاة لماريا تريز ولو حاربتها يومئذ لقضت عليها فانظر كيف تقابلها دولة النمسا الآن بالاتحاد عليها مع الروسيا

المجلس أن الدولتين تريدان التحرش بالدولة ، واستفزازها للحرب لتعزوا اليها نقض العهود السابقة والمبادأة بالعدوان ، فينقضا عليها بالخيل والرجل ، مع أنهما هما البادئتان بالعدوان ، وان بينهما اتفاقا سريا على مهاجمة الدولة ، وقد أخذا لأنفسهما أهبة الحرب ، مع أن الدولة لم تكن كذلك ، فأقر المجلس على أن يجاوب عن التقريرين جوابا محكما يدافع به رغباتهما الخبيثة ، ريثما تأخذ الدولة أهبتها للحرب ، وأن تباشر من تلك الساعة أمر الاستعداد والتجهز لما عساه يكون بلا توان ولا إهمال . فأجابت الدولة جوابا خلاصته :

إن التقريرين المقدمين من سفيري الدولتين المحبتين قد نظر فيهما ، وقدرت الدولة سعي واهتمام الدولتين الحبي بالاصلاح المطلوب حق قدره ، وستنظر من الآن في الوجوه التي تشكو منها دولة الروسية ، مطبقة أعمالها على العهود السابقة وأن الدولة بادرت بتقديم هذا الجواب لسفيري الدولتين المتحابتين لتكونا واثقتين بأنها كانت ولا تزال حريصة على السلم والمصافاة

ولم تلبث الدولتان بعد هذا أن أشهرتا الحرب على الدولة ، واحتلت الروسيا بلاد الفلاخ والبغدان وبسارابيا ، ودخل النمساويون بلاد الصرب ، وارتكب الروسيون الفظائع في هذه الحرب في قلعة إسماعيل (١) وصارت الدولة على شفا الخطر لو لم يعجل الموت على أمبراطور النمسا يوسف الثاني ، وتسعى بعض الدول في إبرام الصلح مع الدولة العلية ، ووضع معاهدة زشتوى المعروفة

ولما أخذت الدولة بعد هذه الحرب في لم شعثها وإصلاح جنديتها فاجأتها الجمهورية الفرنساوية بارسال نابليون الى مصر واحتلالها دون سابق سبب ولا إعلان للحرب ، وذلك سنة (١٢١٣هـ) سنة (١٧٩٨م) وكان ما كان من غزو

---

(١) قلعة اسماعيل هذه بنيت في بلدة اسماعيل على ضفة الطونة سنة (١١٩٥ هـ) أي قبيل وقوع هذه الحرب وحاصرها الروس مدة غير قليلة ولما سقطت في ايديهم قتلوا كل من فيها من الجنود والنساء والاولاد وكان عدد الجنود ثلاثين ألفا وعدد النساء والاولاد خمسة عشر ألفا ولم ينج من هؤلاء كلهم سوى شخص واحد ألقى نفسه في الطونة وذهب لاخبار الدولة بما وقع

الفرنساويين لسوريا ، ثم جلاؤهم عنها ، ثم اتفاق الانكليز مع الدولة على إخراجهم من مصر ، وتم ذلك فعلا

وقدقضت أوربة أن لا تستريح هذه الدولة ولا يوما واحداً من عناء الحرب أو يقضى عليها ، إذ اتفقت الدولة الروسية والدولة الانكليزية سنة (١٨٠٧م) على حرب شعواء يقيمانها على الدولة بسبب تقرب نابليون منها بعد توليه شؤون الحكومة الفرنساوية ، فهاجماها من البر والبحر ، ودمر الاسطول الانكليزي كل المراكب الحربية العثمانية الواقفة في مدخل مضيق الدردنيل ، بينما كانت الجيوش الروسية تهاجم الجيوش العثمانية عند نهر الطونة ، ولم يطفأ شواظ هذه الحرب الا بمهاجمة نابليون للدولة الروسية ، وتقهقر جيوشها أمامه ، ولما استقر الصلح بين الدولتين ، وعقدت بينهما معاهدة تلسيت الشهيرة سنة (١٢٢٣هـ) واجتمع الامبراطور نابليون والقيصر اسكندر الاول في تلسيت وأرفورد اتفقا بينهما على اقتسام المملكة العثمانية ، وأن تكون الاستانة في القسم التابع لروسيا أو على الحياد ، بل يقال أنهما اتفقا على ما هو أوسع من ذلك من الآمال المبنية على المطامع الوهمية التي يصورها خيال الملوك القادرين، على أن هذا الاتفاق وان وافق مقاصد نابليون الكبيرة وأطماعه الاشعبية، إلا أن وجود الدولة الروسية في مركز عظيم كالاستانة أو قربها أمرجلل لايجهل نابليون عواقبه الوخيمة على أوربة جميعها ، بل وعلى آسيا وأفريقيا أيضاً ، لهذا غض النظر عن الوفاء بوعده ،فأغاظ ذلك دولة الروسيا ، ورأت أن الاضطراب الواقع في الاستانة العلية في شأن تغيير نظام الجندية ، وما حصل فيها من تمرد الانكشارية على السلطان سليم وخلعهم له ، وما أعقب ذلك من قتل سليم ، وخلع السلطان مصطفى ، وتولية السلطان محمود ـ فرصة لاتفوت ، فاستأنفت الحرب مع الدولة العثمانية ، إلا أنه لحسن حظها كانت العلائق فترت بين الروسيا ونابليون ، لاخلال هذا ببعض شروط معاهدة تلسيت ، ورأى نابليون أن يعيد الكرة على الروسيا لاشتغالها بالحرب مع الدولة العلية ، فبادرت الروسيا الى عقد الصلح بينها وبين هذه الدولة لتتفرغ لقتال نابليون ، وأمضيت بينهما معاهدة بخارست سنة (١٨١٢م)

كل هذه الحروب المتوالية ، والدماء المسفوحة ، لم تقف بطمع الامبراطور اسكندر عند حد ، إذ لما أعياه أمر القضاء على هذه الدولة ، وتنفيذ وصية بطرس الاكبر ، أخذ بتحريض اليونانيين من أهالي المورة على الثورة والاستقلال ، فأنشأوا جمعية سرية مركزها في بطرس برج برئاسة أحد الغرندوقات ، وأخذت هذه الجمعية بنشر مبادئها الثورية ، وإعداد المورة لثورة يتطاير شررها في أنحاء البلاد ، حتى اذا تخمرت في النفوس دواعي البغضاء ، ونمى حب الاستقلال ، نهض أهل المورة في وجه الدولة ، ورفعوا راية العصيان ، وأنجدتهم يومئذ أكثر أوربا المسيحية ، مؤملة إضعاف الدولة ، ومشاطرة ممالكها فيما بعد ، وبعد استمرار الثورة مدة طويلة ، وتطوع عدد غير قليل من الضباط الاوربيين والجنود أيضاً لمساعدة اليونانيين ، ويأس الدول من توصل اليونانيين الى قهر الدولة ، أرسلت كل من فرانسة وإنكلترة وروسية أساطيلهن الى سواحل اليونان لارهاب الدولة العثمانية ، ثم فاجأت هذه الاساطيل في (نافارين) المراكب العثمانية والمصرية بالحرب بدون سابق إعلان بها ودمرتها تدميراً ، ثم أصرت هاته الدول على الباب العالي بوجوب التسليم بمطالب اليونانيين ومنحهم الاستقلال ، فأبى ذلك ، فأعلنت الروسية عليه الحرب ، وناهيك بحرب تدخل فيها الدولة بعد ذلك الجهاد الطويل مع الروسية من قبل واليونان بعد ذلك ، ثم هي تكون مضطربة في شؤونها الداخلية لقضاء السلطان محمود على جنود الانكشارية وحل معسكراتهم ، واشتغاله بتنظيم جند جديد على الطرز الاوربي ، وهم لم يكونوا بعد شيئاً مذكوراً بالنسبه لقوة الروس العظيمة واستعدادهم الهائل

لهذا لم يقو الجيش العثماني على الوقوف في وجه العدو الا قليلا ، ثم أخذ بالتقهقر حتى بلغت الجيوش الروسية مدينة أدرنة ، وهناك رأت الدول ان الغاية من إنهاك قوى الدولة قد حصلت ، وأن دخول الجيوش الروسية الى الاستانة خطر عظيم على مصالحهن في الشرق والغرب ، فتداخلن في الصلح بين الدولتين على كره من روسيا ، وأمضيت بينهما معاهدة أدرنة سنة (١٨٢٩م) وقد ردت الروسية بمقتضاها الى الدولة العلية كل ممالك البلقان

وعلى عقب هـذه الحرب وانهاك قوى الدولة وجهت فرانسة فكرها الى أفريقيا الشمالية الغربية ، وانتهزت فرصة ضعف الدولة واضطراب حالة الجزائر فهاجمتها بحجة الانتقام من واليها لاهانة ألحقها بالقنصل الفرنساوي ، وما زالت الحرب ناشبة بينها وبين الجزائريين حتى سـنة (١٨٤٧م) حيث بسطت عليها جناح سلطتها الى اليوم

رأيت أيها القارىء العناء الدائم الذي لاقته الدولة العثمانيـة من مكافحة أوربة ، ومصادمة الدول الطامعة في ملك الاسلام ، وربما قلت إن دولة بلغ بها الوهن وضعف القوة من الحروب المتوالية مبلغاً يستدعى اتفاق الدول الاوربية على اقتسام ممالكها منذ أكثر من مائة سنة ولم تفعل فلم هذا ؟ فنجيبك إن لهذا سببا ها نحن (أولاد) باسطوه لديك

إن الدول الاوربيـة لمـا وجهت مقاصدها الى الشرق ، ورغبت في الفتح والاستعمار في البلاد القاصية ، كانت الدولة العلية في مكانة من القوة لا تتطاول اليها الاعناق ، ولا تتناولها الاطماع ،فكانت كسد منيع قائم بين الغرب والشرق ليس فيه منفذ تتسرب منه جيوش تلك الدول الفاتحـة الى ممالك الاسلام في الشرق الادنى ، حـتى اضطرت الدول الى تحويل وجهتها الى ماوراء البحار ، ودارت أساطيلها حول الـكرة عن طريق رأس الرجاء لتبسط جناح سلطانها على ممالك الاسلام في الشرق الاقصى ، وشغلها من هذا الفتح الجديد شاغل عظيم عن تركيا ، حتى اذا بدأ الوهن والضعف يظهران على الدولة العثمانية ، وسنحت لاوربة فرصة العمل في تركيا ، ظهرت شوكة العنصر السلافي المنتشر من حدود الطونة الى أقصى الشمال في الروسيا ، وذلك بهمـة بطرس الاكبر الذي نهض بالامة الروسية الى مقام السـياسة نهوضاً ارتج له الغرب ، وأخذت من ثم الدولة الروسية تنازع الدول الاوربيـة بحكم الوحدة المسـيحية على مشاطرة الممالك الاسلامية ، وأقرب ما يكون اليها القسطنطينية التي تشبه بمركزها الجغرافي مرتفعاً مشرفا على الارض اذا اعتلى قمته النسر الروسي بسط جناحيه على الشرق والغرب وهو مطمح نظرها في كل آن ،فهال الدول ذلك المنازع الجديد وأخافها طموح الروسية

الى الاستانة ومحاولة خروجها بقوتها العظيمة الى شطوط البحر الابيض ، وأكثر ما أخاف ذلك دولة انكلترة ، لاسيما وان الروسية لم تنحصر مطامعها في تركية ، بل امتدت الى الهند فكانت تهدد انكلترة من جهات التركستان ، وتنازعها النفوذ في البامر وفارس وخليج العجم ، فهذا ماجعل الدول وفي مقدمتهن انكلترة تنكمش عن التطاول الى تركية مادامت الروسية شريكة معهن في اقتسام ممالكها ، ومن ثم غيرن وجهة سياستهن في الشرق حيث عدلن عن الاتحاد على اقتسام الممالك التركية الى ترقب الفرص المناسبة لاختطاف كل دولة على حدة جزءاً منها مع بذل الجهد في منع الروسية عن التجاوز الى داخل المملكة العثمانية ، وكان من نتائج هذه السياسة مشاركة الدول للدولة العثمانية في حرب القريم التي كان منشؤها الامتيازات الاجنبية التي كانت بلاء على الدولة وسبباً عظيماً من أسباب تحكك الدول الاوربية بالدول العثمانية واليك البيان :

تنازع قسوس الروم مع قسوس الكاثوليك في القدس سنة (١٢٦٠ هـ) في شأن يتعلق بكنيسة القيامة ، وتصدت الروسية للانتصار للروم توسلا الى الاغراض الكامنة في نفس الامبراطور نقولا امبراطور الروس فتداركت الدولة الامر ، وأخذت على نفسها إجراء التحقيق اللازم في هذا الأمر ، وإحقاق الحق حيثما كان ، ولم تدع للروسية ولا لفرانسا سبيلا للتداخل في هذا الحادث ، ولما كادت تصل الى فصل النزاع ، ووضع الحق في نصابه ، لعبت يد الدسائس الروسية بقسوس الروم ، فلم يقتنعوا بالتحقيق الذي عملته الدولة ، وتعدوا على حقوق اللاتين في الكنيسة ، وهدموا منها مكانا يختص باللاتين . فاحتج على ذلك سفير فرانسا في الاستانة المسيو بوركنه ، وطلب الى الباب العالي عمل تحقيق دقيق في هذا الأمر، مستنداً الى المعاهدة المنعقدة بين فرانسا والدولة العثمانية سنة (١١٥٦ هـ) التي تخول لفرانسا حق حماية الكاثوليك في الشرق

أما الامبراطور نقولا فقد اغتنم فرصة انقلاب الجمهورية ، وارتقاء نابليون على عرش فرانسة ، وما تتمحض به تلك المملكة من الفتن ، مع اطمئنانه من جهة أوستريا لوقوفها موقف المحتاط الحذر بإزاء المبادىء الحارة التي تسربت اليها

عقب الثورة الفرنساوية يضاف الى هذا النزاع الواقع يومئذ بين الباب العالي والجبل الاسود ، فأوعز الى سفيره في الاستانة المسيو تتوف بتذكير الباب العالي بالمادة الواردة في معاهدة (قينارجه) المعقودة سنة (١١٩٠ هـ) التي تبحث عن عدم معارضة الروم من أي قبيل كان في إقامة شعائرهم الدينية في القدس الشريف وبيت لحم ، فقدم السفير تقريراً الى الباب العالي يتضمن مطالب الامبراطور في إنصاف قسوس الروم

فألف الباب العالي لجنة لهذا القصد غير اللجنة الاولى التي بدأت بالتحقيق ، فلم تفلح في إرضاء الروم مع كل ما صرفته من العناية في جلاء الحقيقة وصرف أسباب النفور ، بل استأنف الروم التعدي على الكاثوليك ، وأوقعوا بهم في مشاجرة وقعت بين الفريقين ، فألف الباب العالي لجنة ثالثة مختلطة من روم وكاثوليك برئاسة عفيف بك ، فسافرت من الاستانة سنة (١٢٦٨ هـ) وبقيت في القدس الى السنة التالية ، ووفقت بين الفريقين جهد الامكان ، هذا مع شدة ما كانت تلاقيه الدولة من تصعب كل من فرانسا والروسية ، وتشبث كل دولة منهما بما يوافق مصلحتها السياسية

ولما لم يكن قصد الامبراطور نقولا الا الحرب بالجهاد أي سبب كان من الأسباب أنفذ الى الاستانة البرنس منشيكوف لأجل المخابرة في مسئلة الأماكن المقدسة في بيت لحم والقدس في الظاهر ، وفي الباطن للتحكك بالدولة ، وخلق سبب للحرب ، وبمجرد وصوله الى الاستانة أظهر من العجرفة والغرور ما جعل فؤاد افندي (باشا فيما بعد) ناظر الخارجية يمتنع عن مقابلته ، حتى اضطر الى تقديم استعفائه ، وتولى نظارة الخارجية بعده رفعت باشا

وفي أثناء ذلك اجتمع الامبراطور نقولا مع سفير انكلترة لدى حكومته السير هاملتون سيمور ، وأسر اليه بما في طويته من المقاصد الخبيثة نحو الدولة العثمانية ، مظهراً له ضرورة اتحاد دولة انكلترة معه على اقتسام تركيا ، وان الدولة العثمانية أصبحت كالرجل المريض الذي تحتم اليأس من شفائه ، فأولى بهاتين الدولتين المبادرة الى اقتسام تركته قبل أن يموت ، ويقوم النزاع على

اقتسامها بين الدول ، وعرض عليه أن تأخذ انكلترة مصر وكريد ، وأن تكون الصرب ومقاطعات الدانوب وبلغاريا حكومات مستقلة تحت حماية الروسية ، واذا دعت الضرورة الى احتلال جنوده (أي جنود الروسية) الاستانة تكون كأمانة في يد الروسية ، ليس لها حق التملك عليها ، وكان مما قاله له : إني أكلمك الآن باعتبارك صديقاً لي ، واذا توصلنا الى الاتفاق مع دولتك على هذا الأمر فلا تهمني البقية (يريد بقية الدول) ولا أخاف مما يصنع أو يريد صنعه الآخرون (يعرض بفرانسا والنمسا)

فكان جواب السفير له : إن تعهد هذا المريض بالعلاج والاعتناء به حتى يشفى من مرضه ، وتعود له قوته ، خير من القيام الى اقتسام تركته ، الذي يجر الى حرب تسيل فيه الدماء أنهاراً

ثم كتب السفير بما دار بينه وبين القيصر من الكلام ، وذاعت كلمات القيصر التي تنم عن مقاصده بين الدول ، فأكبرن الامر، وعد القيصر إفشاء السر خيانة من السير سيمور ، ولكن لاخيانة فيما فيه المصلحة في شرع السياسيين

ولما تأكدت عند الدول مقاصد الروسية أمضيت بين فرانسا وانكلترة معاهدة في لوندرة تقتضي المحافظة على أملاك الدولة بالمال والرجال ، وبعد أمور يطول شرحها أعلنت الحرب الدولية على الروسيا بعد أن بدأت بالعدوان باحتلال الافلاق والبغدان، ومهاجمة الاسطول العثماني في سينوب على حين غرة منه وتدميره كله

وفي أثناء الحرب اتفقت الدول الثلاث المحاربة للروسية مع أمبراطور النمسا على أن يحتل بجيوشه الافلاق والبغدان اذا انجلت عنها الروسية ، وكان كذلك. وبعد ذلك انضمت حكومة ايطالية مع الدول المتحالفة ضد الروسية ، وأرسلت جيشاً مؤلفاً من ١٨ ألف مقاتل انضم الى جيوش الدول المتحالفة على قتال الروسية في القريم ، وكذلك انضمت الى هذا التحالف دولة السويد ، ولم يبق بعد هذا كله ، وبعد الخذلان المتوالي الذي أصاب الجيوش الروسية في القريم أمام الجيوش المتحالفة ، وفي البلقان أمام الجنود العثمانية ، إلا التسليم بمطالب الدول ، والكف عن الامعان في الحرب ، فاضطر الامبراطور اسكندر المتولي

بعـد الامبراطور نقولا الذي توفي في أثناء الحرب الى طلب الصلح والمسالمة ، فوضعت الحرب أوزارها وانعقد الصلح في مدينة باريس بانعـقاد مؤتمر دولي هناك أمضى أعضاؤه على معاهدة باريس المعروفة التي تكفلت بحفظ أملاك الدولة العلية من أطماع الروسية ، وجعلت للدولة العلية المقام السياسي المطلوب بين دول أوربة على شرط أن تتعهد الدولة باجراء إصلاح في قوانين المملكة يقضي بتحسين حال رعاياها من كل الملل والأجناس ، وذلك سنة (١٨٥٦م)

انقضت هذه الحرب في عهد المرحوم السلطان عبد المجيد الذي توفي عقبها وتولى مكانه السلطان عبد العزيز ، فداهمته الدول بالمطالب الكثيرة التي ترمي الى المداخلة في شؤون الدولة التي أقرت تلك الدول على سلامتها واستقلالها التام في أمورها الداخليـة في مؤتمر باريس ، لـكنها لم تلبث أن انقلبت عليها بدس الدسائس السياسية في بلادها لالجائها الى التصديق على صحة إمارة أمير رومانيا الذي اختارته الدول، وللتسليم بمطالب الصربيين الذين يريدون الاستقلال المطلق عن الدولة . ثم بتحريك أهالي كريد للنهوض الى الثورة ، والانفصال عن الدولة ، حتى اضطرت الدولة الى إكراههم على الطاعة بقوة الجند

وبينما الدولة تلاقي هذه الخطوب بعزم وثبات ونضال مستمر ، حدثت الانقلابات الشهيرة ، والخطوب الكبيرة بموت السلطان عبـد العزيز وتولي السلطان مراد ، ثم السلطان الحالي عبد الحميد ، وقامت الفتنة ثانية في البلقان ، وشبت بعدها نار الحرب الاخيرة بين الروسـية والدولة العثمانية ، وانفصلت عنها بسببها البوسنه والهرسك والصرب والبلغار ثم الروملي الشرقي ، وتضعضعت قوى الدولة ، وهـذا ما تريده أوربا منـذ قررت الدول أن لا يهاجمن الدولة مجتمعات ، بل ينتهزن مثل هذه الفرص وينقصن من أطرافها منفردات ، وكانت فرصة ضعفها سانحة لهن عقب هذه الحرب ، فأخذت انكلترة جزيرة قبرص ، واحتلت فرانسا تونس ، ثم احتل الانكليز مصر ، ولم يكف الدولة ذلك حتى قامت اليونان فاغتصبت تساليا ، ثم أقامت حربها الثانيـة التي انخذلت فيها ، فعاقبت الدول الدولة العثمانية على قهرها لليونان بفصل جزيرة كريد عنها ، وكل

هذه حوادث غير بعيدة عهد من الناس ، فلم نر حاجة للاسهاب في ذكرها، وتجديد ذكرى الآلام في نشرها ، ثم أعقب هذا أموراً في مناهضة أوربا للدولة العثمانية في الجليل والحقير من شؤونها الداخليـة ، كانت ولم تزل تتجدد كل يوم ، ومع هذا كله فان السياسيين من أهل أوربة لا يخجلون من الحق ، ولا يستحيون من جميع العالم الانساني الشاهد عليهم بالكذب والبهتان ، حيث ينادون بخطر الجامعة الاسلامية واتحاد الاسلام ، مع أن المسلمين في كل ناحيـة من الارض صاروا أسرى الدول الاوربية ، وأصبحوا لاحول لهم ولا قوة إلا تلك العاطفة الدينية المنبعثة عن الشعور دون العقل الفعال كما أبنا عن ذلك فيما سبق من الكلام

إن أوربة تناهض المسلمين منذ عدة أجيال كما رأيت وتنقص من أطراف ملكهم في أقطار الارض ، وهذه تركيا التي هي أعظم دولة إسلامية وتاريخها مع أوربا شاهد على ذلك ، وهذه القريم وقفقاسيا وداغستان وطاشقند وبخارى وخيوى وتاريخها مع الروسية شاهد على ذلك ، وهذه الهند والسند (بلوجستان) وجزائر آسيا وأفريقيا كجاوى وسومطرا وسنغافوره وهنزوان وزنجبار والبحرين وغيرها ، وتاريخها مع انكلترة وفرانسا وهولاندا والبورتغال شاهد على ذلك ، وهذه أفريقيا الشرقية وتاريخها مع إيطاليا وانكلترة وفرنسا وألمانيا شاهد على ذلك ، وهذه أفريقيا الشمالية والغربية وتاريخها مع انكلترة وفرنسا شاهد على ذلك ، وهذه أفريقيا الوسطى والسودان المصري وتاريخها مع انكلترا وبلجكا وفرانسا شاهد على ذلك ، وهذه مراكش التي هي البقية الباقية من أفريقيا الشمالية الغربية ، ومعاهدة ابريل سنة (١٩٠٤ م) بين انكلترة وفرانسا القاضية بسلب استقلالها شاهدة على ذلك

هذا ما تفعله الدول الاوربية بالمسلمين ودولهم منذ أربعة قرون ، تارة مجتمعات وتارة منفردات ، وهكذا كانت ولا تزال تتشاطر ملك الاسلام ، وتقف لأهله في كل مرصد ، وتسد في وجوههم كل منفذ . وأكثر الساسة والكتاب الغربيين ينذرون البقية الباقية من دولهم بيوم عصيب ، وخطر قريب ، يجهزون به على البقية الباقية لهم من الاستقلال ، إذ حان على زعمهم بعث المسئلة

الشرقية من رمس السياسة ، وهي المسئلة التي طال قولهم فيها وتعريضهم بها. وأقوالهم في هذه المسئلة مستفيضة في التاريخ ، وعلى الألسن . فمن العبث استقصاؤها في هذه العجالة ، وانما ننقل قولا واحداً لمتأخر جاء في كتاب « مستقبل مصر » تأليف (المستر ديسي) المطبوع حديثاً وهو قوله :

« ومن الجلي أن المسألة الشرقية تحل نفسها بنفسها ، وإن كان هذا الحل يظهر أنه بطيء للأمم التي تئن من الظلم التركي ، والتي هي في شوق لأن ترى مصرع الرجل العليل في أوربا (يريد الدولة العثمانية) ليقتسموا ميراثه بينهم ، ولكن مرض الدولة العلية قد بلغ حداً من المحال أن تبرأ منه ، وليست حقيقة المسئلة الشرقيــة البحث عن الوقت الذي يتقلص فيـه ظل الاتراك عن آخر أملاكهم في قارة أوربا ، وانما الحقيقة التي يبحث عنها هي من ذا الذي يخلفهم في القسطنطينية والبوسفور والدردنيل ، وكلما تباطأ حل هذه المسئلة كلما زادت فوائد انكلترة بصفتها نصيرة السلام العام ، ولا حاجة بي الى بيان أنه لولا الخوف من سعة نفوذ الروسيين لمحي الاتراك الى اليوم(١) من صحيفة الوجود في أوربا ، ومهما كانت نتيجة القلاقل المنتشرة الآن في الروسيا ، سواء كان نتيجتها نزع سلطة القيصر أو محو آثار هذه القلاقل ، فمما لا ريب فيه أن حربا ستقوم يمحى بها أكثر الاتراك من أوربا . ولا بد أن يأتي يوم نسمع فيه أن المسئلة الشرقية قد انحلت » .

ثم هو يدعو في مكان آخر من هذا الكتاب الدول المسيحية الى الاتفاق على جهاد المسلمين وسحقهم ، خصوصاً في أفريقيا . كل هذا يسمعه المسلمون ويرون أثره ظاهراً في وجودهم السياسي الذي تكافحه أوربا منذ أربعة قرون ، وكادت لهذا العهد تأتي على آخره ، وتمحو من الوجود معالمه ، فماذا صنع المسلمون ؟ هل خطر لهم يوما خاطر الاتحاد الاسلامي ؟ أو هبت في نفوسهم عاطفة الدين ، فمد بعضهم لبعض يد الاخاء ، وتناصروا على دفع الأعداء ، وهل كان أمراؤهم الكبار ، وطواغيتهم الجاهلون الاغرار ، يتناصرون حين اشتداد

«١» كذا ولعله : قبل اليوم

الخطوب ويتصارخون حين الحاجة ، ويتحابون عند نزول العدو في ساحة أحدهم بقصد اكتساح بلاده وثل عرشه واستخذائه وقومه ؟

كلا ، بل بلغ بهم ضعف العقول وانحلال الرابطة أن كان بعضهم عدواً لبعض يتربص به الدوائر ، ويسارقه نظر العدو الغادر أو الصديق الجاهل ، ولم نظفر في التاريخ الحديث (أي منذ نهوض الدول الاوربية لمصادرة المسلمين ومناوأتهم) الا بالشاذ النادر من الأخبار التي تنبيء عن الاستنجاد أو التناصر بما لا يتعدى حد القول، ولم يبرز من القوة الى الفعل ، وها نحن نسوق اليك تلك الاخبار في مساق الحكم على ضعف أمراء المسلمين ، وانحلال رابطة الوحدة الاسلامية بين حكومات الاسلام ، بل والوحدة السياسية أيضاً التي تقضي بها طبيعة الاجتماع ، لما يقابلها من وحدة السياسة الغربية التي ترمي بسهامها الى غرض واحد ، وهو تدويخ المشرق واستعباد أهليه . وهذا ماتشتغل أوربا للوصول اليه من عدة أجيال . وحسبك من نتائج تخاذل الحكومات الاسلامية المدارة بيد الافراد سقوط مملكة الاندلس بيد الأسبانيول ، وهي تستغيث بأمراء المسلمين وليس من مغيث ، وآخر مدينة سقطت منها بيد العدو مدينة غرناطة ، وأميرها يرسل الرسالة تتلو الرسالة الى سلطان المغرب السلطان الشيخ الوطاسي والسلطان بايزيد العثماني لينجداه ، وينقذا المسلمين من بلاء كبير أعده لهم الاسبانيول ، فلم ينجده الا السلطان بايزيد برسالة بعث بها الى بابا رومة لم تغن عن جند أومال، وانتهت الحال بسقوط الاندلس كافة بيد الاسبانيول

أشرنا فيما سبق الى أن وجود الدولة العثمانية بين دول أوربا والشرق الأقصى وعدم تمكنهن من الاستيلاء على ممالكها حول مطامعهن الى المحيط الهندي ، خصوصاً بعد اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ، فانكفأت الدول الطامحة الى الفتح والاستعمار على تلك الأرجاء ، وأخذت بأكظام المسلمين على حين استحكام العداوة بين أمرائهم ، وتفشي الجهل والفوضى بين خاصتهم وعامتهم ، ولما ضاقت بأمراء الهند سبل الخلاص من تلك الدول وخاصة الانكليز والبورتغال ، كان أول من تنبه منهم الى وجوب

الاستعانة بغيره من سلاطين المسلمين السلطان علي راجا سلطان مليبار في الهند فأرسل الى السلطان عبد الحميد الأول سنة (١١٩١هـ) رسولا ومعه كتاب يقول فيه : إن المرحوم السلطان مراد كان أسعف حكومة مليبار بسفينتين حربيتين وجنود انتصرت لها على أعدائها من المجوس ، وذلك سنة (٩٥٠ هـ) ويطلب في هذا الكتاب تجديد هذا التفضل من الدولة على حكومة مليبار بانجادها الآن بالمال فقط لتستعين به على محاربة أهل جوارها من المجوس الذين كانوا أصلوا السلطان علي نجا حربا عوانا بدسائس الانكليز والبرتغاليين ، وكانت الدولة أكثر منه حاجة الى المال ، فلم تساعدها الأحوال على إسعافه بما طلب . ثم في سنة (١١٩٤هـ) أرسلت أخته السلطانة بيبي – وكانت خلفته في الملك – رسولا آخر الى الاستانة تستنجد الدولة العلية على أعدائها ، فاعتذرت الدولة ببعد المسافة بين المملكتين ، وأعادت الرسول مصحوبا بهدية نفيسة الى السلطانة مع تطمينها أن الدولة أوصت دولة انكلترا والبرتغال بعدم التعرض لحكومة مليبار بما يقلق راحتها وراحة الاهلين ، ثم لما اشتدت وطأة الانكليز على بلادها ، وأشرف ملكها على السقوط ، وذلك سنة (١١٩٩هـ) ولم ينجدها أحد من ملوك الهند المتخاذلين ، استنجدت بالدولة أيضاً ، والدولة كتبت الى والي بغداد تسأله ان كان في الامكان اسعافها بشيء من النجدة ، ولم يتم لتلك المملكة التعسة ماتريد لأن الدولة كانت في حرب دائمة مع أوربا في ذلك الوقت ، وخصوصاً الروسية فلم تستطع إمداد الهنود بشيء من القوة ، ولو فعلت لكانت لها السيادة على الهند الى اليوم .

وفي سنة (١١٧٩هـ) رأى السلطان محمد بن عبد الله سلطان الغرب – وكان من عقلاء الملوك المسلمين وفضلائهم – أن يمهد السبيل لازالة أسباب التقاطع الواقع بين المسلمين وأمرائهم ، وعلم أن الدولة العثمانية وهي أكبر دول الاسلام أولى بأن يوصل بها حبل الالفة ، فأرسل الى القسطنطينية رسولين ، ومعهما هدية الى السلطان مصطفى الثالث فيها خيل عتاق بسروج محلاة بالذهب وسيوف مرصعة وما أشبه ذلك ، فقوبلت هديته بالسرور ، وأرسل اليه السلطان مصطفى مركباً

موسوقا من آلة الحرب كالمدافع والقنابل والبارود ، واقامة خاصة بالمراكب الحربية التي كانوا يسمونها يومئذ المراكب القرصانية من كل ما تحتاج اليه

ثم لما وقعت الحرب بين الروسية والدولة العثمانية مدة السلطان عبد الحميد الاول الذي تولى الملك بعد السلطان مصطفى الثالث بادر السلطان محمد بن عبدالله المومأ اليه ، فأرسل الى حاكم الجزائر أربع سفن حربية موسوقة بالهدايا وآلات الحرب ، ورغب اليه أن يرسلها بواسطة حكومة الجزائر الى القسطنطينية ، فأساء ذلك الحاكم الوساطة ، ورد على سلطان المغرب رداً قبيحاً ، فلم يمنعه ذلك من المضي في سبيل التقرب من الدولة العثمانية ونصرتها ، فبعث الى القسطنطينية سفيراً هو محمد بن العربي بهدايا نفيسة وكتاب الى السلطان عبد الحميد ، فبسط السفير الى السلطان خبر اساءة حاكم الجزائر وقال له : إن مولاي بلغه بواسطة بعض قناصل الدول المتحابة ان الروسيا والنمسا اتفقتا على مهاجمة القسطنطينية وسحق الدولة العثمانية بزعمهما الفاسد (١) فأقلق ذلك خاطر مولاي وآلمه الخبر ثم علم من ذلك القنصل ان دولتكم العلية أخذت بالاستعداد لمقابلة العدو ، وتوفرت على تجهيز الاساطيل وتحصين القلاع ، فأرسلني لتبليغكم خبر استعداده لكل ما يطلب منه من المعونة ليقدم ما في استطاعته حتى نفسه وما يملك فداء عن حضرة السلطان ، ولكي أبين لكم أسفه من تقاطع ملوك المسلمين ، لاسيما في مثل هذا الحين ، لان معاضدة الدول للروسية أضر بالمسلمين ، فما بالنا ونحن ملوك المسلمين لا نتحد ونتعاضد ؟

فأجيب السفير بالشكر على هذه العناية وان اعتبار سلطان المغرب بقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) الذي يوجب اتفاق المسلمين وتعاون ملوكهم واتحادهم قد قدر عند السلطان تقديراً عظيما وان الدولة ولله الحمد كثيرة الجند ولا تحتاج لغير المال اذا أشهرت عليها الحرب فاذا احتجنا الى شيء منه فكم يستطيع السلطان ان يقرضنا ؟

فأجاب السفير ان في امكانه ان يقرضكم خمسة آلاف كيس : فاستصغر هذا

(١) يعني اتحاد امبراطورة الروسيا كاترينا والامبراطور يوسف امبراطور النمسا وقدمر ذكره

المبلغ من مثل سلطان المغرب ومع ذلك لم تحتج الدولة يومئذ لهذا القرض لأنها عقدت معاهدة صلح مع الروسية وسافر السفير المغربي مكرما الى الحجاز ومن ثم بقيت الصلة الأدبية بين الدولتين مدة السلطان محمد الذكور

وفي أواخر مدة السلطان عبد العزيز أرسل أمير بخارى رسولا الى الاستانة يستغيث بالدولة من تعدي الدولة الروسية عليه وعزمها على اكتساح ملكه وكان ذلك قبيل سقوط بخارى في يد الروس ولم يستقر السفير في الاستانة حتى وردت الاخبار بسقوطها بيد الجنود الروسية

وآخر من نعلم من امراء الاسلام الذين أرادوا التقرب من الدولة العثمانية ولكن عند آخر نفس من الحياة السلطان برغش سلطان زنجبار وذلك انه طلب ان يضع بلاده تحت حماية الدول العلية لما أخذت دولتا ألمانيا وانكلترة بمضايقته ومحاولة الاستيلاء على بلاده فلم يفلح في طلبه وأنى يفلح والدولة كانت خارجة من حرب الروس والدول كلها تتربص بها الدوائر وليس بين ملوك المسلمين ما بين ملوك أوروبا من التعاون اذا اتحدت المصلحة وان افترقت تلك الدول أحيانا في المطالب والغايات

هذا كل ما رأيناه من تناصر المسلمين وأمرائهم في التاريخ الحديث بازاء تناصر الدول الاوربية واتفاقها على اكتساح ممالك الاسلام وإصلائها المسلمين حربا عوانا في كل انحاء الارض منذ بدأت أوربا تصعد في معارج الرقي والمدنية الحديثة الى اليوم

فهل يجوز لساسة المغرب أن يصوروا قوما هذا شأنهم في التخاذل وانحلال عرى الاتفاق في صورة غول إذا تضامت قواه يلتهم العالم وهم أولى بهذه الصورة وحقيقتها والتاريخ كما بينا شاهد عدل

حقا ان الانسان اذا أحرج أخرج (وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم) اني أعتقد ان ساسة المغرب في هذا العصر قد خدموا المسلمين أكثر مما خدموا به سياستهم الطامعة وأنانيتهم العظيمة في إلحاحهم بتهمة المسلمين بالتعصب الاسلامي والاتحاد الاسلامي وما شابه ذلك ومجاهرتهم بما في أنفسهم من نية السوء واستعجالهم بالشر الذي يريدونه بدول الشرق على العموم والاسلام على الخصوص حتى كادوا

ان ينبهوا بذلك شعور المسلمين بقصورهم في جانب دينهم الذي يأمرهم بالتعاون ويربطهم بربط الاخاء ليفزعوا الى الاعتصام به جزعا من جيوش السياسة التي تطاردهم في كل مكان ويعلموا ان الماضي كان جريمة اجترمها امراؤهم الظالمون المستبدون الذين أضلوهم عن سبل الخير وسدوا في وجوههم منافذ النور الذي تستمد منه الحياة

ان حركة الفكر الاسلامي القائمة الآن هي نتيجة تبادل الشعور بما تريده أوربا من المسلمين من الاستخذاء والتعبد ونتيجة الشعور بما بلغته الامم الاوربية من قوة السلطان والبسطة في الملك في الشرق والغرب فهي أي هذه الحركة اذا ظنها الاوربيون مقدمة للاتحاد الاسلامي أو عين الاتحاد فانما هي اتحاد على معرفة الواجب بالبحث عن مصدر ترقي أوربا الا وهو العلم والحرية . فأما العلم فقد نشطوا له في كل مكان بقدر ماتساعدهم الظروف وماينفذ اليهم من خلال حجب الاستبداد من نور المعرفة . وأما الحرية فهم ينشدونها حيثما وجد الاستعباد لافرق في ذلك عندهم بين الدول المسيحية والاسلامية فكما نرى المصريين يطالبون الانكليز بالحرية نرى الايرانيين يحاربون حكومتهم الاسلامية من أجلها ونرى العثمانيين كذلك يبذلون مع حكومتهم الاسلامية كل جهد ويفادون بكل نفس ونفيس لأجل الحصول عليها والتخلص من ربقة الظلم والاستبداد .

أليس هذا اتحاد في الشعور بالحاجة الى الرقي والى مسابقة الأمم المتمدنة ؟ أليس التمدن والرقي ضد الهمجية ؟ فاذا كان المسلمون همجاً متعصبين — وبهذا يصمهم الاوربيون — أفليس في طلبهم الرقي وترامیهم على الدخول في صفوف الامم الراقية المتمدنة ما يزيل عنهم هذه الوصمة، ويسقط حجة أعدائهم في تلك التهمة ؟ بلى هذا هو الحق الصراح فلينصف الساسة الغربيون، وليرجعوا عما يقولون ،

﴿ نصيحة للمسلمين ﴾

قد رأى المسلمون مما تقدم بسطه ان الذي فصم عروة اجتماعهم وفرق أجزاءهم وأنساهم معنى الاخوة في دينهم منذ قرون بعيدة انما هو حكم الافراد أي أمرائهم

المستبدين . وأن الانشقاق بين المسلمين انما هو نتيجة الانقياد لحكم الاشخاص الذين من دأبهم التخاذل حتى في أشد الاوقات حرجا على المسلمين ، وخطراً على المتفرقين ، كما رأيت فيما تقدم من هذه الرسالة حيث كانت الاعداء تتشاطر ملك الاسلام ، فلا يأخذ الجار بناصر جاره ، ولا يشد الملك بعضد أخيه — وحسبكم اذا تركتم النظر الى الماضي أن تنظروا الى الحاضر وتعرفوا منه العبر ، وتلمسوا الخطر ، فانكم تسمعون كل يوم باتحاد الدولة الفلانية مع الدولة الفلانية على مسائل البحر الابيض ، أو خليج فارس ، أو البحر الاحمر ، أو غير ذلك من بلاد الاسلام ، فهل تسمعون لملوككم ركزاً ؟ أو تبصرون منهم رمزاً ؟ وهل ترونهم يتضامون على حفظ استقلالهم ، كما يتضام غيرهم على نزعه منهم واستعباد رعيتهم ؟ انكم لاترون منهم ذلك ولا تسمعون ، بل إنهم يأخذون بكم الى مهاوي الخطر وأنتم لاتشعرون

فكل مصائبكم انما كانت من قبل حكم الاشخاص ، وموت ارادة الملايين من البشر في ارادة شخص وهو موت لهم أجمعين ، وخذلان يخرجهم عن مصاف الآدميين ، وليس هذا من شأن الانسانية ، ولا من شأن العقل ، ولا من شأن الدين

ان دينكم يريد أن تكونوا في أرقى منازل البشرية ، وأدناها في الوجود الى متناول العقل ، فلم يجعل حتى للانبياء سلطانًا على الارادة والعقول الا بالحق والهداية ، فاسمعوا ماذا يقول الله لنبيه في كتابه الكريم (ما على الرسول الا البلاغ — لست عليهم بمسيطر — وما أنت عليهم بوكيل)

واسمعوا ماذا يقول في خطابه للمؤمنين (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم)

كل هذا اشارة الى أن لاحكم للارادة على الارادة ، وانما الحكم للعقل والوجدان ، فحرية الوجدان هي التي يقاتل من أجلها الروس ، وقاتل من أجلها الفرنساويون وكل أمم أوربا ، وهي التي كانت أساس الدعوة في دينكم أي التبليغ كما رأيتم في الآيات ، وانما أضلكم عنها ، وتركم صرعى دونها ، حكم الافراد

الذي هو بطبيعته قاتل للوجدان ، خاذل للنفوس ، مانع من ترقي العقول وتلمس طرق العلم الصحيح ، فلتعلموا اذن أن حكم الاشخاص اذا استمر سائداً على المسلمين ، فليس هو بأقل خطراً على حياتهم السياسية من هجمات الاوربيين ، وصدمات الفاتحين ، بل هو ممهد له ، داع في القريب العاجل اليه

اذا تقرر هذا فنصيحتي الاولى لكم هي أن تعلموا أن حياتكم الادبية بالعلم ، وحياتكم السياسية بالحكومات النيابية ، فأقبلوا بكليتكم على طلب العلم ، جودوا بالاموال لتأسيس المدارس ، ابعثوا بأولادكم الى دور العلم في أوربا ، استفيدوا خير ما في المدنية الغربية وهو العلم ، اهدموا كل حاجز يقوم في سبيل نشر العلم في بلادكم مهما كان ، عضدوا نوابغكم حيثما كانوا ، عظموا قدر علمائكم أين ما وجدوا ، توفروا على التأليف وعلى العمل بجد في سبيل الرقي ، انبذوا الأوهام ولا تستسلموا لليأس ، ولتقم فئة من كل طائفة منكم استنارت بنور العلم والمدنية ببيان فوائد العلوم الحديثة للأقوام الآخرين الذين عزلتهم حكومات الاستبداد عن عالم الحركة وعالم العلم ، كأهالي مراكش وجزيرة العرب والتركستان وغيرهم ، فأصبحوا يستنكرون كل ما أتاهم من طريق الغرب ، لا لانحطاط في مداركهم أو لأثر من الدين في نفوسهم ، بل لضعف في قلوبهم ولده استبداد الامراء وممالأة الفقهاء أجيالا متوالية كادت تذهب بآثار الحياة الصحيحة من البلاد الاسلامية

العلم به يحارب الاستبداد ، وبه يعرف كل فرد قيمة الحياة ، ومعنى إرادة النفس وحرية الوجدان ، فتعلموا ثم قاتلوا بسلاح العلم الحكم الشخصي حيثما كان سائداً عليكم متحكماً فيكم . قيدوا حكوماتكم أنى كان جنسها بالقانون النيابي ، إذ بهذا تتم سعادتكم ، ويسلم استقلالكم ، وتأمنون على حياتكم السياسية وجوامعكم الملية ، وبه تتعارفون ويتحابون ، كما كنتم في أيام الحكم الشخصي تتنافرون وتتباعدون

واعلموا أن تبادل العواطف بين الشعوب الاوربية هو الذي رفع منزلتهم بين الامم ، ونفخ فيهم روح القوة — ومثاله : اذا نهض أحقر شعب أو أكبره من الشعوب المسيحية في طلب الحرية والدستور أو الاستقلال ، عطفت عليه ثمة

كل القلوب ، وتنصره الساسة وأرباب الاقلام ، فاذا رأيتم شعباً منكم يحاول هدم الحكم الشخصي ، ويطالب بالحكومة الدستورية ، فاعطفوا بقلوبكم عليه وانصروه ولو بالاقلام وعلى صفحات الجرائد ، كما تصنع الامم المسيحية ، ليعلم العالم أجمع انكم أحياء متعاطفون ، تريدون السعادة الشاملة ، وتخدمون الانسانية الراقية ، واقتدوا في ذلك بشعب منكم لم ينل حرية الفكر والقول الا بالامس ، وهم مسلمو الروسيا ، فان أكثر جرائدهم تأتينا وفيها من روح التعضيد للعثمانيين الاحرار في طلبهم الحكومة الدستورية ، ومن حسن استقبال النهضة المصرية وشكر القائمين بها ، وبطلب الحكومة الدستورية في تركيا مايدل على أن قوة الحنو والمشاركة في العواطف قد دبت في ذلك الشعب النشيط ، وستسري الى غيره قريباً ان شاء الله

هذه نصيحتي الاولى .

ونصيحتي الثانية أن توقنوا أن الشرق للشرقيين متى توفر لديكم ذانكم الشرطان ، وهما العلم والحكم النيابي ، وأن تكتبوا ذلك على صفحات قلوبكم ، وتتدارسوه في دور علمكم ، وأن تعلموا أن الارض التي ينبت فيها المسلم والمسيحي واليهودي في الشرق هي وطن لهم جميعاً ، فتناصروا مع أهل وطنكم ، واعرفوا لهم حقوقهم التي عرفها قبل ذلك نبيكم صلى الله عليه وسلم وقررها شرعكم ، وأرشدتكم اليها آداب دينكم ، ولا تجعلوا اليكم سبيلا لطعن الطاعنين أو مؤاخذة المساكنين في التقاطع مع غيركم من أهل الملل الاخرى ، وكونوا أوسع صدراً من غوغائهم ومتعصبيهم ، يعرفون لكم بعد ذلك جميلكم ، ويحفظون جواركم متى حفظتم جوارهم ، ولا يمنعكم ماتسمعونه من تهم الاوربيين وغلوهم في ذم المسلمين . أن تحسنوا الى أهل جواركم ، وتكذبوا مع الزمن مفتريات أعدائكم . فسيأتي يوم يحصحص فيه الحق . ويعرف العالم أجمع أن المسلمين خير الناس معاملة للناس واستمساكا بالفضيلة ، وأن الشرق منبت الانسانية الاولى ، سيكون بأهله مجمع الانسانية الفاضلة الى ما شاء الله

إن الاوربيين يقولون : أوربا للاوربيين ، ودولهم لاتزال تدأب على العمل لتقليص ظل سيادة المسلمين عن آخر ملك لهم في أوربا ، فلا حرج عليكم أن

تقولوا مثلهم إن الشرق للشرقيين ، وأن تحققوا هذا القول لا بالجلبة والضوضاء، بل بالتماس القوة من طرق العلم. نعم من طرق العلم ، إذ لا قوة بغير العلم. فاليابان فى أقصى الشرق سبقتكم الى تحقيق هذه الامنية ، فكونوا مثل أولئك القوم في أدناه تتحقق حينئذ آمالنا في أن الشرق للشرقيين ، وتصافحكم أوربا كما صافحت اليابان ، مصافحة الصديق للصديق ، لأنها في حاجة اليكم ، وأنتم في حاجة اليها . فهي تحتاج الى ترويج متاجرها في الشرق ، وأنتم تحتاجون اليها في تلقي دروس المدنيـة عنها ، وفي أخذ العلوم النافعة منها . فالحاجة متبادلة حتما ، ولا غنى للشرق عن الغرب ، وبالعكس

وبعد هذا كله يجب أن تعلموا أن من الانصاف والعدل الاعتراف بفضل المدنية الاوربية التي نهضت بالانسانية الى منزلة سامية لم تبلغها من قبل ، وأن الاحتكاك بالاوربيين قد نفع الشرق نفعاً محسوساً نلمسه بالأيدي لمساً ، فنحن مدينون لهم بالرقي العقلي والصناعي ، فلا يمنعنا عنت ساستهم بنا من معاشرتهم بالمعروف ، والاعتراف لهم بالفضل ، وتوثيق عرى الصلة الانسانية معهم في كل مكان وزمان ،

وبعد فانا في حاجة الى صداقة بعض الدول الاوربية ، فأية حكومة منهن عاملتنا بالمعروف ، ومهـدت لقوم منا سبيل الحرية والاستقلال ، فلنحرص على صداقتها ، ولنعرف لها صنيعها ، ولعل في نهضة المسلمين العلميـة وحركتهم الفـكرية ، وتشربهم روح الديمقراطية، مايقرب أوان التوفيق بين مصالح الشرق والغرب ، ويدعو الدول الى مصافاة الامم الاسلاميـة ، إذ هذا أبقى للمودة ، وأدعى لاستفادة الغرب من الشرق . وانما يستفيد الغرب من الشرق اذا راعى في تطلب المصلحة قاعدة تبادل المنافع ، دون التمسك بالانانية ، وحب الأثرة ، ومصادرة الامم في حقوقهم الطبيعية التي تحرص عليها الانسانية المتمدنة . فيستحيل ان يفرط بها الشرق العريق في المدنية وحب الاستقلال

﴿ نصيحة لغير المسلمين ﴾

إن العالم يسير الى الديموقراطية الصحيحة سيراً حثيثاً ، يجعل حياة الامم السياسية بمعزل عن الاعتقادات ، بحيث لايكون تباين اعتقادين في شعب واحد مانعاً من توثق عرى القومية ، أو مبايناً بين أغراضها السياسية . وقد سبق الغرب الشرق لهذا العهد الى هذه الديمقراطية ، وبدأ الشرق يحس بها أو يشعر بالحاجة اليها ، بعد أن ثقلت عليه سيطرة الغرب ، وأنهكه طول التفرق والانقسام ، فليس المسيحي واليهودي وغيرهما بأقل حاجة من المسلم الى الاعتضاد بالقومية ، وتوثيق وشائج الاخاء الوطني للدخول في تلك الديمقراطية الصحيحة التي ترفع شأن الامم وتحوط حياة الاقوام السياسية بسور من القوة

وهذا مانريد أن ننبه اليه أهل جوار المسلمين من أرباب الملل الاخرى ، حيثما جمعهم جميعاً وطن واحد ، وجبلوا من طينة واحدة ، ونخالهم يسلمون معنا أن عصور الجهالة التي كان انطفأ فيها مصباح العلم في أيام الاستبداد الغابر الذي طمس معالم الفضيلة الدينية والوطنية ، ونفث في المسلمين والمسيحيين وغيرهم سم التصعب ، قد مضى أمره ، وذهب سلطانه ، الا أثراً منه في النفوس ، نرجو أن يعالجه العلم بالادواء النافعة ، ويحل محله الوفاق والحب والمصافاة

العلم هو رسول السلام في هذا العصر ، والمشرق على القلوب . ونرى الشرقيين عامة قد تنبهوا اليه ، وأخذوا بالحظ الوافر منه ، وأن تفاوتوا في النسبة بين السابق واللاحق ، والمبتدىء والمتوسط . وما دامت السيادة مؤكدة في المستقبل للعلم ، فلنتلقها من الآن بصدر رحيب ، ولنمهد لها السبيل الذي لاعوج فيه ، وخير الذرائع الى ذلك أن يسمع اخواننا من أهل الملل الاخرى نصيحتنا التي أسمعناها المسلمين بنبذ التعصب وإزالة أسباب البغضاء والتنافر التي بينهم وبين المسلمين ، وأن يحفظوا حق الجوار والسكن والجنسية للمسلمين ، حيثما جمعهم وإياهم وطن واحد ، وأن يمهدوا بذلك للشرق طريق الدخول في الديمقراطية التي يسير اليها العالم بحكم الحاجة ، وأن يعلموا أن الشرقي مهما كان دينه لايكون في

عوائده وأخلاقه ومعيشته وحكومته غربياً قط ، ولا الغربي يقبل أن يكون الشرقي غربياً قط ، إذ أن الحياة السياسية في أوربا قد صارت أو كادت تصير بمعزل عن الاعتقاد . فالغربي اذا حكم في الشرق مسيحياً مثلا لا ينظر الى ما بينهما من المشاركة في الاعتقاد ، بل ينظر الى المصلحة ، وهذا الغرب أصبح لهذا العهد يحكم القسم الاكبر من آسيا وأفريقيا ، فهل صير المحكومين منه غربيين أي أعطاهم من الحقوق ماله ، وجعل عليهم منها ما عليه . كلا بل هو يعتبرهم أحط منه منزلة وأبعد عنه مشاكلة ، لذا ترى القانون الاساسي لكل دولة أوربية لايشمل سكان ممالكها في آسيا وأفريقيا ، بل اختص هؤلاء بحكم مخصوص لايمتاز عن حكم المالك في المملوك ، مع أن الشرقيين سواء في الحقوق عند أية حكومة شرقية مهما اختلفوا في الاديان . فالمسيحي في حكومة إسلامية له ما للمسلم وعليه ماعليه، والمسلم في الصين في نظر حكومتها الوثنية كالبوذي لافرق بينهما في المعاملة . إذن فالشرقي سيد نفسه مادام سيداً في بلاده ، فليعتبر بهذا إخواننا الذين يخالفونا في الاعتقاد من أي نحلة كانوا ، وليتفقوا مع المسلمين على المضي في سبيل العلم والترقي والديمقراطية الصحيحة التي يسير اليها الشرق كما سار الغرب ، وليحققوا بذلك آمال الشرق في بنيه ، وخير الاعمال ماسبقته العزيمة الصادقة ، وكانت مطية صاحبه الاخلاص

﴿ كلمتنا مع ساسة أوربا ﴾

بقي علينا أن نقول كلمة لساسة أوربا وقادة الامور فيها لعلها تصادف منهم قلوباً واعية ، تنصر الحق ولو يوما . والانسان كما أنه ليس بخير محض ، فهو ليس بشر محض ، بل هو قابل للامرين ، وربما كان الى الخير أقرب منه الى الشر

يعلم مما تقدم كله أن الفرص التي سنحت للدول الاوربية في مناهضة المسلمين واقتسام أملاكهم في القارات الثلاث انما كان سببها تخاذل ملوك المسلمين وانقياد الامة لحكم الاشخاص ، بحيث كان كل شعب من المسلمين لايحس ولا يعتبر بمصائب الشعب الآخر ، لأنه مسلوب الارادة بقوة الحاكم المطلق ، ضعيف الحس لشدة ماتوالى عليه من الاحن والمحن من وجه ، ومن وجه آخر كان

المستبدون من أمرائه يحجبون عنه نور المدنية والعلم الصحيح بحجب صفيقة لا ينفذ منها الا شعاع ضئيل يكاد لا ينبه الحس ، شأن الحكومات المطلقة مع الرعية في كل زمان ومكان

ولم يكن احتكاك المسلمين بأهل المدنية الحديثة ، بالغاً مبلغه الآن ليتكهربوا بتيار الحرية الجاري في جسم الممالك الاوربية ، وليمزقوا تلك الحجب ، ويندفعوا الى فضاء الحرية ، فضاء العلم والحياة . لذا كانوا في حالة تشبه الخدر ، يصيب الجسم وينبهه قليل من الدلك

أما الآن فقد تغيرت الحال ، وتنبه ذلك الجسم المتخدر رغم الوسائط الكثيرة التي كان يستعملها لتعطيل حركته أولئك المستبدون ، وذلك لسببين

(السبب الاول) اندفاع الدول الاوربية بكليتها الى الشرق ، وتهافتها على البلاد الاسلامية في أفريقيا وآسيا ، وخصوصاً فى أواخر القرن الماضي ، تهافتاً خالياً عن كل تبصر ، ارتعدت له فرائص المشرق ، واهتزت له أعصاب المسلمين في كل أنحاء الارض ، فشعروا بالخطر المحيط بهم ، وبوشك سقوط سيادة كل شعب منهم حتى على الارض التي جبلوا هم وأجدادهم الشرقيون بترابها ، وتمتعوا بحق القرار فيها منذ عرف تاريخ الانسان

(والسبب الثاني) هو احتكاك المسلمين بالاوربيين خصوصاً في هذا العصر احتكاكا شديداً ، سواء كان في المعاشرة والمتاجرة ، أو باقتباس العلم عنهم في أوربا وفي الشرق نفسه ، وهذا يدعو بطبيعته الى الاستفادة من العلوم والمبادىء التى نهض بها الغرب ، وهذا أمر لا محيص عنه مادام الشرق متصلا بالغرب ، وما دام العلم مشاعا بين الامم والمبادىء تسري من قوم الى قوم بحكم الحاجة الى النافع ، وتقليد الضعيف للقوي

اذا تقرر هذا فقد تعين على ساسة أوربا أن يقدروا نهضة المسلمين لهذا العهد قدرها ، ويتحققوا أنها نهضة طبيعية ، انبعثت عن أسباب قاهرة وطبيعية ، لا عما يسمونه التعصب أوغيره . والاسباب التي دعت الامم الاوربية الى المطالبة بالحرية ، وهدم أركان الحكومات المطلقة عقب الثورة الفرنساوية ، وسريان مبادئها يومئذ في نفوس الشعوب ، تقليداً للفرنساويين واقتداء بهم ، هي عينها

التي تدعو المسلمين الآن الى طلب الحرية ، سواء كانوا محكومين بحكومات مسلمة أو مسيحية . فكما يطالب العثمانيون حكومتهم الاسلامية بالدستور ، ويتفانى الايرانيون في سبيل الحرية ، وتأييد دعائم الحكم النيابي الذي نالوه من الشاه من بضعة شهور ، كذلك يؤيد المسلمون في القفقاس والقريم ، وكل البلاد الروسية إخوانهم الروسيين في طلب الدستور من حكومتهم المسيحية ، وكثير منهم انحاز الى جانب السوسياليست من الروسيين مغالاة في المبادىء الحرة التي نفثت فيهم بحكم الطبيعة أو الاقتداء والجوار

والاسباب التي دعت اليونانيين والبلغاريين وغيرهم الى طلب الاستقلال عن الدولة العثمانية ، ونصرتهم على هذا الطلب كل أوربا المسيحية باسم الانسانية، هي التي تدعو الشعوب الاسلامية المحكومة بالاجنبي الى طلب الاستقلال والحرية ، وتأمل أن تسعفهم أوربا باسم الانسانية أيضاً

إذن ما دامت هذه النهضة الاسلامية أثراً من آثار الترقي الطبيعي في العالم، منعكسة صورته عن الغرب ، والغرب هو السابق في بث هذه الروح العالية ، روح الحرية والاستقلال . فمن الواجب على ساسة أوربا أن يتلقوا بالارتياح كل خطوة يخطوها المسلمون الى الامام ما داموا يحذون بخطاهم حذو الاوربيين ويعترفون لأهل المدنية الحديثة بفضل السبق في رفع راية الحرية والعلم

إن المسلمين أيها الساسة أمم مثلكم أهل شعور ، لايختلف في شيء عن شعور غيرهم الا بكونه أرق وأشد استعداداً للتأثر بالجميل بما أودعه فيه دينهم المبين ، من حب الفضيلة ، وحب الغير ، وحب المحسنين اليهم . فعاملوا ولو شعباً واحداً منهم ، كما عاملت فرانسا الامريكيين أيام حروب الاستقلال ، وكما عاملت كل دولكم اليونان أيام طلبها الاستقلال ، وكما تعاملون كل الشعوب المسيحية التي تحاول نيل الاستقلال والحرية ، وانظروا بعد ذلك كيف يكون ذلك الشعب مع ناصريه على الاستقلال ، ومانحيه الحرية ، وكيف يقابل الاحسان بالاحسان ، ويذكر الجميل لصاحبه على مدى الزمان

إنكم تعاملون المسلمين الآن حكمتموهم أو لم تحكموهم بالقسوة المتناهية بحيث لم يبق شعب منهم الا ذعرتموه ، ولم تبق دولة من دولهم الا قصدتم إذلالها ،

وحاولتم نزع استقلالها . واذا ثار على المسلمين شعب مسيحي تألبتم لنصرته باسم الانسانية . واذا نال شعباً مسلماً من حكومة مسيحية ظلم في الاموال ، وإرهاق في الانفس ، وهضم في الحقوق ، لا تأخذكم عليه الرحمة ، ولا تدفعكم الى نصرته الانسانية . ومع هذا كله تطلبون من المسلمين وداعة الحملان ، وطاعة العميان ، والا وصمتموهم بالتعصب ، ورميتموهم بأنواع التهم

ليس هذا ما تطلبه منكم الانسانية ، وليست سياستكم هذه بالسياسة التي تنتج تألف قلوب الامم الاسلامية ، أو تؤدي الى بسط السيادة على الشرق الاسلامي ، الا اذا كنتم تظنون أن من الهين استخضاع ثلاثمائة مليون من البشر في الشرق لسلطان الغرب بالقوة ، وأخذهم بالعنف ، وأعيذ عقلاءكم من مثل هذا الظن ، لاسيما في هذا العصر الذي تكهربت فيه أعصاب الامم بكهرباء الحرية ، وأحس الشرق كله بثقل سيطرة الغرب ، وأنانية أهليه البالغة ، لافرق في هذا الاحساس بين المسلم والمسيحي والوثني كما نعلم وتعلمون

وبناء على هذه الاعتبارات كلها فاني كما نصحت لاخواني المسلمين أنصح لكم أيها الساسة الكرام أن توقنوا أن المسلم إنسان كامل ، يتأثر بكل المؤثرات التي يتأثر بها غيره ، وأنه يأنس بمن يحسن اليه ، وينفر ممن يسيء اليه . وإن المسلمين الذين سادوا على كثير من الممالك ، وشيدوا بنيان التمدن الاسلامي ، وأدخلوا دينهم وتمدنهم الى كثير من ممالك آسيا وأوربا وأفريقيا ، وبسطوا سلطانهم على جزء عظيم من الارض ، يضنون بالبقية الباقية لهم من السيادة ، ويحرصون على أن لاتأتي أوربا على آثار مجدهم القديم . فمن الصعب ، بل المستحيل أن تذهبوا أيها الساسة بحياة المسلمين السياسية في أنحاء الارض ، لأنها مرتبطة بحياتهم المادية ، والفراغ الذي يشغله من الكرة ثلاثمائة مليون من البشر ، يستحيل أن يشغل بغيرهم من جنس البشر الا اذا خلف فراغا مثله ، أنتم أحوج الى شاغليه في متاجركم وصنائعكم . فاتقوا الله والانسانية في سياستكم البالغة منتهى التهور والانانية الباطلة مع المسلمين . واعلموا أن دعواكم العريضة في نصرة الانسانية ، ونشر التمدن ، وما شابه ذلك من الالفاظ انما تكون بأن تساعدوا الأمم الاسلامية على الرقي ، مساعدة الانسان لأخيه ، وأن تسعفوا المحكومين

منكم من المسلمين بما هم في حاجة اليه من الحرية والعدل ، وتشرب روح العلم والمدنية ، وأن تعرفوا لهم من الحقوق ماتعرفه كل حكومة إسلامية لغير المسلمين من رعيتها ، تبعاً للقاعدة الاسلامية المحتم عليهم العمل بها ، وهي (لهم مالنا ، وعليهم ما علينا) وعندئذ ترون من إخلاص المسلمين لكم ، واعترافهم بالجميل لحسن معاملتكم والتودد إليكم ، ما يذهب بثورة الغل من الصدور ، ويؤلف بين الشرق والغرب

إن المسلمين في الهند لما كان الانكليز يعاملونهم بالقسوة ، ويمتهنون حقوقهم امتهان القوي لحقوق الضعيف ، تنكروا لهم تنكراً يعرفه الانكليز ، ولما أخذوا من عهد غير بعيد بأن يحسنوا اليهم في المعاملة ، وينشطوهم على السير في سبيل الرقي ولو ببطء ، انقلب ذلك التنكر الى إخلاص وتودد بنسبة مايرونه من حسن المعاملة ، وذلك اعتراف من المسلمين بالجميل ، ومقابلة للاحسان بالاحسان . ولما كان الانكليز أصدقاء الدولة العثمانية ، يسعفونها في المآزق السياسية . كان المسلمون في الشرق يقدرون قدر هذه الصداقة ، وكان المسلمون في تركيا يميلون بكل قلوبهم الى الانكليز ميلا يؤيد ماعندهم من رقة الشعور ، ومعرفة الجميل . وإنما تباعدت قلوب المسلمين الآن عن الانكليز لما انقلبت صداقتهم تلك الى عداوة ، ينكرها عليهم الآن مسلمو تركيا ، ويحس بخطرها عقلاء الامة الانكليزية . وفي هذا دليل على أن المسلمين كما ذكرنا شديدو الشعور بالجميل ، ليس كما تصورونهم أو تتصورونهم أيها الساسة . فخير لكم أن تصافحوا هذه الامة مصافحة الاصدقاء ، وتقلوا من ذلك العداء . وليس في هذا أدنى خطر على مصالح أممكم التجارية كما تزعمون ، بل بالعكس اذا أفسحتم للمسلمين مجال الترقي ، ولم تتعرضوا لشؤونهم الداخلية بما يعوق سيرهم في سبيل المدنية والاستقلال ، جعلتم ممالكهم سوقا غنية لمتاجركم وصناعاتكم . والشرق مهما ترقى لايستغنى عن الغرب ، والغرب كذلك في حاجة الى الشرق . والمستقبل كشاف لما في ثنايا الايام والسلام

تم


VETUS & TESTA-
NOVUM MENTUM
DEI·SUB·NUMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY


DS57
.xA985